كتابي

الكتاب الشهري لتلخيص الكتب العالمية

١٢ قرشا

حلمي مراد



حسناء من جزيرة (بالي) للفنان الاندونيسي بازوكي عبد الله

كتابي

كتاب شهري لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر - صاحبه ورئيس تحريره : حلمي مراد

الكتاب الخامس والتسعون (السنة الثامنة)

الاشتراكات والأعداد السابقة : التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب

دور الاديب والفنان ،فى الثورة ((الثقافية)) !

عزيزى القارىء ..

فى الحديث البليغ فى بسطه ، وتبسيطه للأمور ، الذى نفذ به الرئيس الى قلوب المواطنين جميعا – وليس الى اعضاء اللجنة التحضيرية فحسب – فى الجلسة الافتتاحية لاجتماعات اللجنة ، دعا قائد ثورة ٢٣ يوليو الى ان تقترن الثورة الاشتراكية الجديدة بثورة اخرى « ثقافية » ..

ولا يثلج صدر كل مشتغل بالثقافة والتثقيف فى هذا البلد ، مثلما يثلج صدره ان تمتد شرارة الثورة الى هذا الميدان الذى تخلف حتى الآن – غير متعمد – عن مساندة الثورتين السياسية والاجتماعية ، المساندة الكافية .

.. **واذا كانت** المساندة المطلوبة من علماء الاجتماع ، والاقتصاد ، والدستور ، والقانون ، هى ان يعكفوا – كما قال الرئيس فى حديثه الى اللجنة – على الدراسة والبحث ، كل فى ميدان تخصصه ، ليخرجوا من ذلك بأبحاث ونظريات جديدة تخدم أهداف مجتمعنا الجديد ..

فما هو دور الأديب ، والفنان ، فى هذا المجال ؟

ان واجبه الحقيقى ، ودوره الرئيسى هو أن يعمل – فى ميدانه الادبى ، أو الفنى – على بث روح التفاؤل ، والبهجة ، والتوثب ، فى مجتمعنا الجديد المتطور ..

فالتفاؤل هو « السلاح السرى » فى معركتنا الجديدة من أجل حياة أفضل ، ومستقبل سعيد ..

التفاؤل هو « الدينامو » الذى يشحذ الهمم ، ويضاعف الحمية ، ويقوى النفوس والاجسام على العمل والانتاج ..

فليكن هذا رائد الكاتب فيما يكتب .. والرسام فيما

يرسم .. والنحات فيما ينحت .. والموسيقى والمغنى فيما يلحن ويغنى ..

كفانا نواحا فى أغانينا .. وبكاء وعويلا فى مسارحنا .. وابرازا للجريمة والشر ، والارهاب والبلطجة ، فى أفلامنا ومسلسلاتنا الاذاعية ..

كفانا تشاؤما « وسوداوية » فى لوحاتنا ، وقصصنا ، وتمثيلياتنا التليفزيونية ـ مثل تمثيلية « غفران » التى شاهدناها على شاشته منذ ايام !

فأنا أفهم ان يقدم لنا مخرجو التليفزيون الأفاضل ـ مشكورين ـ «تراجيديا» تاريخية ليوسف وهبى ، ذات جو يمت الى عصر غير عصرنا ، وبلد غير بلدنا ، فلا يؤثر فى أعصابنا أو يعكس كآبته على نفوسنا .. ولكنى لا أفهم ، ولا أهضم ، ان يقدموا لنا « مأساة » عصرية مفجعة من صميم وواقع بيئتنا ، لفتاة تتخرج من الجامعة ، وتظفر بالعمل الذى تحلم به ، ثم يخطبها المهندس الشاب الذى تحبه .. وفجأة تفجع فى بصرها ويصيبها العمى !.. فى الوقت الذى تصاب فيه أمها بمرض مميت ، تظل تصرخ من آلامه فى أسماعنا ، حتى تلفظ أنفاسها .. لا لشىء الا لكى يأخذ الطبيب قرنيتى عينيها فيعيد بهما البصر الى ابنتها العمياء !

أى والله !.. ومتى تقدم لك هذه التمثيلية ؟.. فى منتصف الليل ، قبيل النوم ، كيما تذهب الى فراشك مهتز الأعصاب ، مضعضع النفسية ، بدلا من أن تنعم بنوم هادىء يهيئك لأن تستقبل عملك فى الصباح التالى ، متفتح النفس للكفاح ..

هذه مجرد أمثلة من روح التشاؤم الهدام الذى يجب ان نحاربه فى آدابنا وفنوننا ، اذا أردنا لها أن تساهم بدور بناء فى تطوير مجتمعنا الجديد المنشود .

والله ولى التوفيق ..

حلمى مراد

رائيت وسمعت لك ..
في تايلاند (سيام)



مشاهدات وتعليقات

للمحرر

حول العالم .. فى ٣٠ يوما !

عزيزى القارىء ..

ماذا تعرف عن مملكة (تايلاند) ـ أو (سيام) ، كما كان يطلق عليها قبل الحرب الاخيرة ؟

أغلب ظنى ان معلوماتك عنها لا تزيد كثيرا عن معلوماتنا جميعا ، التى استقيناها من مصدرين لا ثالث لهما : أولهما تلك السطور القليلة التى درسناها عن تلك البلاد النائية فى كتب الجغرافيا .. والمصدر الثانى هو ذلك الفيلم المشوه للحقائق الذى أخرجته هوليوود منذ أعوام وأطلقت عليه (الملك ، وأنا) ، والذى اقتبست حوادثه من قصة نشرت من قبل فى كتاب عنوانه (أنا ANNA وملك سيام) !

وقد كانت تلك معلوماتى بدورى ، الى أن أتيحت لى فرصة زيارة تلك البلاد فى شهر سبتمبر الماضى ، لمناسبة افتتاح الخط النفاث الجديد الى الشرق الاقصى ، بطائرات شركة الخطوط الجوية السكندنافية SAS .. وهو الخط الذى يدور حول الكرة الارضية دورة كاملة ، فيبدأ من (كوبنهاجن) شمالا ، الى روما ، ثم جنوبا الى الهند ، مارا بـ (كراتشى) و (كلكتا) ، ومنها الى (بانجكوك) عاصمة تايلاند ، ثم هونج كونج ـ أو (مانيلا) عاصمة الفيلبين ، أيهما يختار المسافر ـ فطوكيو عاصمة اليابان .. ومن هناك الى القطب الشمالى عبر (ألاسكا) ـ بالقرب من كندا ـ ثم الى كوبنهاجن مرة أخرى ، حيث كانت نقطة البداية !

دولة محظوظة !

واسم (تايلاند) معناه « بلاد الاحرار » ، وهم اسم على مسمى ، فان تايلاند هى **الدولة الوحيدة من دول جنوب شرق آسيا التى لم تطأ أرضها قط أقدام اى مستعمر** ، فاحتفظت باستقلالها وحريتها طوال القرون الاربعة التى تفشى فيها الاستعمار الغربى فى تلك المنطقة بأسرها ، بين القرن السادس عشر والقرن العشرين — وينسب أهل تايلاند الفضل فى ذلك الى دهاء وكياسة ملكها الفذ « مونجكوت » . (بطل قصة « الملك وأنا ») ، وخلفائه الاذكياء — ولعل نجاة تلك البلاد من قبضة الاستعمار هى التى أضفت عليها جو السلام والسكينة الذى يسودها ، والذى جعل القوم هناك يطلقون عليها **« بلاد الابتسامات »** . وانه لأمر عجيب حقاً أن تحتفظ تايلاند بجو السلم والأمن والحرية ، وهى التى يحيط بها من كل ناحية « حزام » من الدول التى عاشت قروناً — وما تزال تعيش حتى هذه اللحظة — نهباً للاضطرابات ، والحروب ، والقلاقل ، والاطماع الاستعمارية : فمن ناحية الشرق والشمال الشرقى تتاخمها (لاوس) و (كمبوديا) .. ومن ناحية الشمال والغرب تقع (بورما) .. ومن ناحية الجنوب تقع (الملايو) !

.. ومع ذلك فقد ظلت (تايلاند) أو (سيام) بمنجاة دائماً من نير الاستعمار الغربى ، ومن نيران الحروب ، الساخنة والباردة على السواء ! .. ولعل عدم ابتلائها بوطأة الاستعمار هو السبب فى انعدام أى شعور عدائى نحو دول الغرب — الاستعمارية — فى قلوب سكانها ، الذين يستقبلون الوافدين اليهم من كافة بلاد العالم بنفس الابتسامة الودية المرحبة ، على وجوههم !

الاحرار .. لا ((السمر)) ، ولا ((الصفر)) !

اما الاسم السابق ((لبلاد الابتسامات)) وهو : (سيام) ، فقد كان مشتقا من لفظ (سايام) باللغة السنسكريتية ، ومعناه ((ذوى البشرة الداكنة)) . وطبيعى ان يؤثر أهل تلك البلاد تسميتهم ب ((الاحرار)) على تسميتهم بالسمر أو الصفر ، أو أى لون من الالوان التى تعطى البيض سلاحا يميزون به أجناسهم ويبذرون بذور التفرقة العنصرية البغيضة !

وشعب تايلاند ينحدر من أهالى وادى نهر (يانجتسى) بالصين ، الذين هاجروا من وطنهم الاصلى نحو الجنوب - فى القرن الثالث عشر - واستقروا حول نهر (شاو فيا) ، فكانوا نواة هذه الدولة الودودة المسالمة .

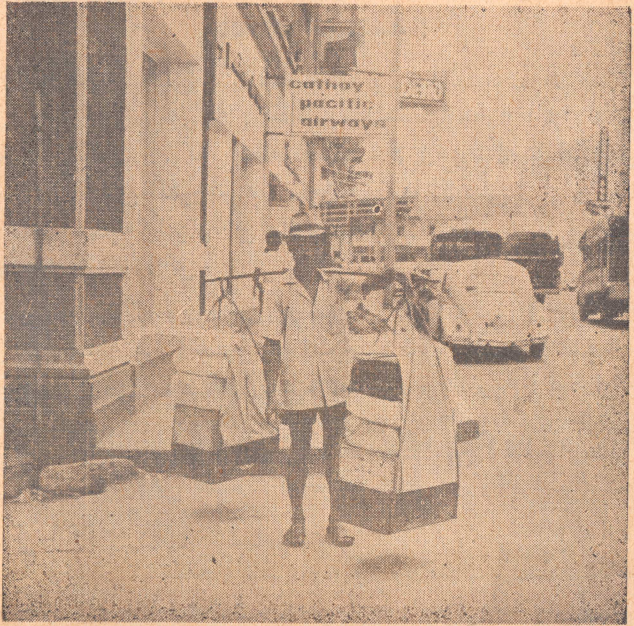
وتبلغ مساحة رقعة تايلاند مائتى الف و ١٤٨ من الاميال المربعة ، **(أى مثل مساحة فرنسا ، أو مساحة ولاية ((تكساس)) الامريكية)** . وقد ارتفع تعداد سكانها حسب احصاء عام ١٩٦٠ الاخير الى ٢٥ مليونا و ٥١٩٩٦٥ نسمة (٢٥ر٥١٩٩٦٥) .

ويعمل نحو ٨٥ فى المائة من هؤلاء السكان فى زراعة الارض، التى يملك نحو ٨٧ فى المائة من مساحتها الصالحة للزراعة ، زراعها الحاليون أنفسهم .

وتايلاند اقليم استوائى - اذ لا يبعد عن خط الاستواء سوى تسعمائة ميل - وتتراوح درجة الحرارة فيه بين ٢٠ - ٤٠ درجة مئوية . ويعتدل طقسها عادة خلال الاشهر من نوفمبر الى فبراير من كل عام . على ان الطقس يختلف بين منطقة ومنطقة من هذا الاقليم الذى تقع حدوده الجنوبية على

خط عرض ٥ ، وحدوده الشمالية على خط عرض ٢١ ، (وبين الطرفين مسافة تبلغ نحو ألف ميل) ، اما بالنسبة لخطوط الطول فتقع تايلاند بين خطى ٩٧ و ١٠٦ (وبينهما مسافة خمسمائة ميل) .

واذا نظرت الى خريطة تايلاند ، وجدتها تشبه رأس فيل و خرطومه ! .. ولعل هذا الشبه هو الذى جعل أهلها



حمال ينقل بضاعة فى احد شوارع (بانجكوك) الرئيسيه ، بطريقة العصا المتوازنة فوق الكتفين ، وهى طريقة لحمل الاثقال منتشرة فى اكثر بلاد الشرق الاقصى ، سواء فى المدن او الحقول والمزارع .. الخ

يتخذون « الفيل الابيض » شعارا لبلدهم .. ولو ان الحيوان الذى يظفر باهتمام الشعب وتقديره هو الجاموس المائى ، لأنه أكثر الحيوانات المستأنسة مساهمة فى الانتاج القومى فى تايلاند ، نظرا لكثرة مساحات الاراضى التى تزرع أرزا ، والتى تغطيها المياه أشهرا طويلة كل عام . والارز هو الثروة القومية الرئيسية للبلاد .

القطط السيامية !

وعلى ذكر الحيوانات المستأنسة فى تايلاند أو (سيام) ، قد يدهشك أن تعلم ان القطط « السيامية » التى تطبق شهرتها الآفاق فى كل أنحاء العالم ، **لا وجود لها البتة فى (سيام) ، وهى المفروض ان تكون موطنها الاصلى !** .. ويبدو ان هذه النخبة الممتازة فى عالم القطط قد هاجرت من سيام الى بقية بلاد الارض !

على ان غابات (تايلاند) تزدحم - الى درجة الكثافة . - بأنواع مختلفة من الحيوانات المتوحشة ، منها : الدببة ، والنمور الرقطاء ، والفهود ، والخنازير البرية الضارية ، وانواع شتى من الوعول ، والجاموس الوحشى ، والثعابين المميتة - واشهرها (الكوبرا) - فضلا عن الفيلة الخطيرة .. الخ .. وبعض هذه الوحوش يبلغ وزن الواحد منه خمسة اطنان !

.. وتبادر مصلحة السياحة فى تايلاند - ولها نشاط محمود سأحدثك عنه فى موضع آخر - فتطمئنك الى ان هذه الحيوانات المفترسة جميعا «لن تبحث عنك ، اللهم الا اذا بحثت انت عنها ! »

وبعض هذه الحيوانات يستأنس ويدرب على اقتلاع

الاشجار من الغابات ، ونقل الاخشاب منها الى المصانع والموانىء ..

واذا كان الزائر لتايلاند لايصادف وحوشها المفترسة الا اذا تعمد البحث عنها ، فانه على العكس يصادف الكثير من الزواحف الصغيره غير الضاره ، مثل « السحالى » ، **التى يقتنيها الناس فى كثير من البيوت كى تاكل البعوض والحشرات الاخرى فتخلصهم منها** . وبعض هذه السحالى « البيتيه » كبير جدا ، حتى ليخيفك للوهله الاولى . ولكنه بدوره غير ضار ، ولا خطر منه البتة .

ولا يستطيع زائر تايلاند الا ان يلحظ بلابلها وطيورها المفرده الجميله ، فانت فى (بانجكوك) تصحو فى الصباح الباكر على « كورس » من تغريد العصافير الصداحة ، تتجاوب اصداؤه من كل شجره ! .. واذا كنت مولعا بهذه العصافير فانك واجد فى الحوانيت المتخصصة فى بيعها كل ما يخطر ببالك من انواع البلابل والببغاءات على اختلاف ألوانها وأصواتها ..

٩٠ فى المائة من الشعب .. بوذيون

والديانة الرئيسية التى يعتنقها شعب تايلاند هى البوذية ، (اذ يدين بها ٩٠ فى المائة من سكان البلاد) ، لكن حرية العبادة مكفولة فيها كفالة كاملة للجميع ، سواء بمقتضى التقاليد أو بنص الدستور . **ويبلغ عدد المسلمين فيها نحو مليون نسمة ، اكثرهم فى المناطق الجنوبية منها ، كما يدين بالمسيحية ــ على اختلاف مذاهبها ــ نحو خمسين الفا .**

وفى أنحاء تايلاند ٢٩٤٤ معبدا للديانة البوذية ، منها نحو أربعمائة فى العاصمة (بانجكوك) وحدها ــ ومن هنا يطلقون على بانجكوك وصف « المدينة ذات الاربعمائة معبد » !



احدى قنوات «السوق العائمة» فى (بانجكوك) ، وقد ازدحمت بعشرات الزوارق التى تحمل الخضروات والبقالة ومختلف الحاجيات، التى تباع لربات البيوت كل صباح بين ٧ـ١٠ .. واكثرهن يذهبن لشرائها فى زوارق مماثلة تختلط بزوارق البائعات . وعلى البر احد المستودعات «الكبرى» التى تتزود منهـا الزوارق العائمة ببعض بضائعها .

على ان بانجكوك اشتهرت على مر العصور بتسمية أخرى ، اذ يطلق عليها البعض « (فينيسيا) الشرق الاقصى» ،

نظرا للشبه الكبير بين المدينتين من حيث كثرة عدد القنوات التى تتخلل كلا منهما ، والتى تقوم مقام الشوارع — وان كانت سلطات تايلاند قد عمدت فى السنوات الاخيرة الى ردم الكثير من هذه القنوات ورصف شوارع فسيحة مكانها . تمشيا مع عصر السرعة فى وسائل الانتقال من ناحية ، ولزيادة العناية بالصحة العامة من جهة اخرى .. والاسم الذى يطلقونه على هذه القنوات بلغة البلاد هو (كلونجز) .

السوق العائمة .. وسوق اللصوص !

لكن هذه السلطات لم ولن تفرط فى اكبر وأشهر قنوات العاصمة التايلاندية . وهى القنوات التى تقوم فيها أعجب وأطرف سوق من نوعها فى العالم بأسره : «السوق العائمة» .. وسأحدثك عنها ، وعن السوق الاخرى العجيبة المسماه « سوق اللصوص » ، فى موضع آخر ..

و ٩٠ فى المائة من سكان تايلاند من أهل البلاد ، اما العشرة فى المائة الباقية فهى موزعة كالآتى : (٤ر٣) فى المائة صينيون . و (٤ر٣) هنود ومن رعايا الملايو . وال (٢ر٣) الاخيرة تضم مختلف الجنسيات الاخرى سواء من الشرق أو من الغرب . **واكثر الجاليات الاوربية عددا فى تايلاند هى الجالية الدنمركية (اذ توجد بين البلدين صلات تجارية قديمة وعديدة)** . والجالية التى تليها هى الجالية الانجليزية ، ثم الجالية الامريكية (التى يتزايد عدد افرادها باستمرار منذ نهاية الحرب الاخيرة ، ولاسيما بعد انضمام تايلاند الى حلف جنوب شرق آسيا ، الذى يطلق عليه « سياتو ») .

مطاط .. وقصدير .. وجوز هند

وتنقسم اراضى تايلاند الى اربع مناطق رئيسية :

المنطقة الشمالية الشرقية ، وهى عبارة عن سهل فسيح منبسط .

والمنطقة الشمالية ، وتتخللها الجبال ، والقنوات ، والوديان ، والغابات .. وبها بعض الصناعات الخفيفة .

ثم المنطقة الجنوبية التى تمتد الى شبه جزيرة الملايو ، وهى شريط رفيع من الارض يتوسطه « عمود فقرى » من الجبال . وتتميز هذه المنطقة بمناظرها الطبيعية الخلابة ، وغاباتها التى تنتج المطاط ، وجوز الهند ، والنباتات الاستوائية .. ثم أرضها الغنية بمناجم القصدير . ورغم أن طقسها اقل حرارة من طقس العاصمة (بانجكوك) — التى تقع فى الشمال منها — الا ان الرطوبة فيها مرتفعة ، والامطار غزيرة ، سيما فى شهر سبتمبر من كل عام ، حيث تهطل فى اكثر الايام ..

اما المنطقة الوسطى من تايلاند ، التى تتوسطها العاصمة (بانجكوك) ، فهى منطقة سهول ووديان ، يشقها نهر « شاو فيا » — وهو النهر الرئيسى فى البلاد — وتتفرع منه مئات القنوات ..

« البات » .. أو « التيكال » !

والعملة فى تايلاند يطلق على وحدتها الرئيسية « بات » — وان كانت التسمية الامريكية الشائعة منذ الحرب الاخيرة هى « تيكال » — وقيمة « البات » أو « التيكال » أقل من قرشين مصريين ، أو نحو ١٧ مليما . (فالجنيه الاسترلينى يساوى ٥٨ «بات» ، والدولار ٢١ « بات ») . وينقسم « البات » الى ١٠٠ « ساتانج » .

ثلاث عواصم سابقة .. قبل (بانجكوك)

والآن ، تعال نلم بطرف من تاريخ هذا البلد البعيد الذى نهم بزيارته :

كان شعب تايلاند يعيش فى القرن السابع الميلادى فى منطقة فسيحة من جنوب شرقى الصين - الى الجنوب من وادى نهر (يانجتسى) - حيث أسسوا لأنفسهم فى عام ٦٥٠ م مملكة (نانشاو) المستقلة . فلما غزت جحافل « كوبلاى خان » تلك المملكة ، عام ١٢٥٣ ، هاجرت نسبة كبيرة من اهلها ، على نطاق واسع ، نحو الجنوب ، متجهين صوب الارض التى عرفت يومئذ باسم (سيام) ، وتعرف الآن باسم (تايلاند) .. واستقر المهاجرون فى وادى نهر (شاو فيا) الخصيب . حيث أسسوا **العاصمة الاولى لمملكتهم الجديدة واطلقوا عليها (سوكهوتاى)** - وقد أطلق عليها فيما بعد « مهد الحضارة التايلاندية » .

وأشهر حكام سوكهوتاى كان الملك « راما خامهنج » (سنة ١٢٧٥ ميلادية) الذى كان بطلا وطنيا ، والذى ادخل ابجدية اللغة التايلاندية .

وفى عام ١٣٥٠ أسس الأمير « راما تيبودى » سلالة ملكية جديدة . ونقل عاصمته الى **مدينة (أيودهيا) ، التى ظلت عاصمة للبلاد نحو ٤١٧ عاما ، تعاقب خلالها على حكم البلاد ثلاثة وثلاثون ملكا** .. حتى سقطت (أيودهيا) فى يد قوات بورما ، (عام ١٧٦٧) ، وكادت ان تدمر تدميرا شاملا .

وخلال تلك المعارك فر قائد من قواد الجيش يدعى « فيا تاك سين » ، ومعه خمسمائة من أتباعه .. فلم يمض عام حتى توج ملكا وألف قوة استطاع بها ان يطرد الغزاة من العاصمة (ايودهيا) ، ثم **أسس عاصمة جديدة لملكه فى**

(دهونبورى) - وكان موقعها يواجه العاصمة الحالية (بانجكوك) ، عبر النهر .

وخلف الملك « تاك سين » واحد من قواد جيشه يدعى « شاو فيا شاكرى » ، وقد نصب نفسه ملكا باسم « راما الأول» ، **وأسس العاصمة الحالية (بانجكوك) عام ١٧٨٢** ، وما زالت سلالته المعروفة باسم « شاكرى » تحكم تايلاند الى اليوم .

ثورة ١٩٣٢ ، غيرت نظام الحكم

كانت (تايلاند) تحكم حكما ملكيا مطلقا حتى يوم ٢٤ يونية عام ١٩٣٢ ، حين تزعم عدد من ضباط الجيش - يؤيدهم بعض المدنيين البارزين - ثورة أرغمت الملك «براجادهيبوك» على التسليم للبلاد بنظام دستورى للحكم ، وضع السلطة التشريعية فى يد جمعية وطنية مؤقتة يختار نصف اعضائها بالانتخاب ، والنصف الآخر بالتعيين .

وفى عام ١٩٣٥ ، تنازل الملك «براجادهيبوك» عن العرش ، فخلفه ابن اخيه الملك « أناندها ماهيدول » ، الذى اغتيل فى ٩ يونية ١٩٤٦ ، (حين وجدوه قتيلا ، برصاصة فى جبهته .)

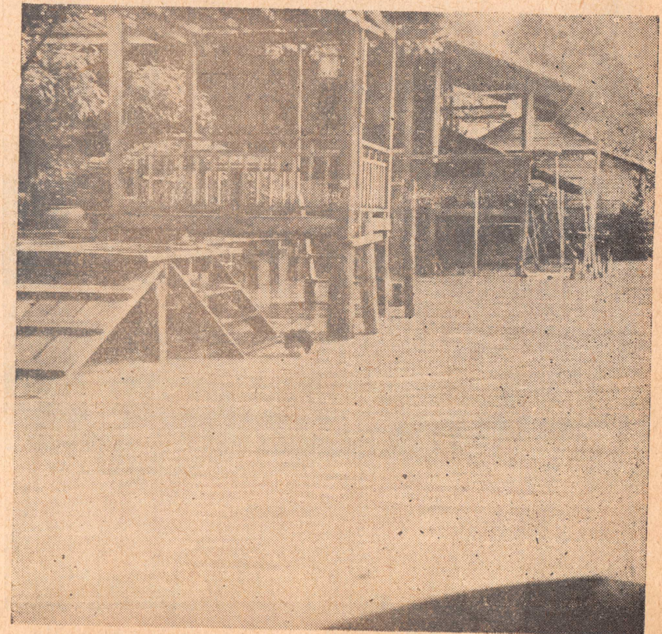
اما الملك الحالى « بهوميبول أدولياديج » ، فقد ولد فى مدينة كمبريدج بولاية (ماساشوسيتس) الامريكية فى ٥ ديسمبر ١٩٢٧ . وفى عام ١٩٤٩ تزوج من الملكة « سيريكيت » (التى تعتبر اجمل ملكات العالم فى الآونة الحاضرة !) .. وللملكين الآن ثلاث بنات وولد واحد ، هو ولى العهد الامير « فاجيرا لونجكورن » ، الذى ولد فى ٢٨ يوليو عام ١٩٥٢ .

والحكومة التى تحكم تايلاند فى هذه الايام اختيرت بواسطة

الحزب الثورى الذى استولى على السلطة فى ٢٠ اكتوبر ١٩٥٨ ، وتتلخص اهدافه التى أعلنها يومئذ فيما يلى :

١ ـ ادخال اصلاحات ادارية بعيدة المدى ، لتحقيق النزاهة فى اداة الحكم .

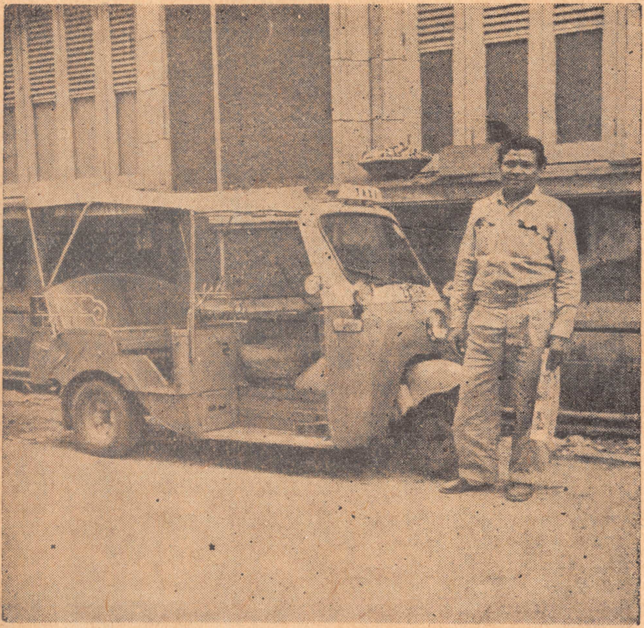
٢ ـ تحقيق الاستقرار فى الاقتصاد الوطنى ورفع



فتاة هبطت لتستحم تحت منزلها ، فى احدى قنوات بانجكوك (فنيسيا الشرق الاقصى) ، ويبدو رأسها عند طرف السلم فى يسار الصورة .

مستوى معيشة الشعب عن طريق حسن استغلال وتطوير موارد البلاد الطبيعية الوفيرة .

وخلال العامين اللذين انقضيا منذ ذلك التاريخ ، وضعت خطط بعيدة المدى ، لتحقيق هـذه الاهداف . وفى انتظار



تملأ شوارع (بانجكوك) سيارات التاكسى اليابانيـــة ذات الثلاث عجلات ، وهى مفتوحة الجوانب بلا نوافذ ، تناسب طقس البـــلاد الحار . وترى سائق التاكسى واقفا بجوار سيارته الظريفة ، وفى يده صحيفة يومية .

وضع الدستور الدائم للدولة ، ألف مجلس مؤقت ، من اعضاء معينين ، ليقوم باختصاص السلطة التشريعية .

وتايلاند عضو فى الأمم المتحدة ،وهناك فى بانجكوك اكثر من مقر رئيسى لمنظمات تنتمى الى هيئة الأمم .. كما ان حلف جنوب شرق آسيا (سياتو) — الذى تشترك تايلاند فى عضويته — يتخذ بانجكوك مقرا رئيسيا له .

وأحسب فى هذا القدر الكفاية ليعطيك فكرة سريعة مبدئية عن (تايلاند) بصفة عامة ، قبل ان أروى لك مشاهداتى فيها بالتفصيل ، حين نصل اليها ..

والآن ، لنبدأ رحلتنا معا ، من أولها :

فى الطريق الى روما ..

.. **الطائرة** النفاثة منطلقة من القاهرة فى طريقها الى روما ، بسرعة تقرب من الألف ميل فى الساعة .. وقد جاوزت الساعة التاسعة ، من ذلك الصباح المشرق ..

.. ولم اكد أفك عن خصرى حزام المقعد وأسأم التطلع من النافذة المجاورة الى منظر البحر — الابيض — الرتيب ، ثم — حين ارتفعت الطائرة اكثر — الى منظر السحب التى فرشت تحتنا بساطا من القطن المندوف .. حتى تناولت من حقيبتى الصغيرة «أطلسا» حديثا للعالم ، أحضرته معى ، ورحت أتابع عليه خط سير الرحلة البعيدة التى أنا مقدم عليها ..

ولم أملك نفسى من الاحساس بشعور يخالطه شىء من الرهبة والوحشة !

مالى ولهذه المغامرة التى انتزعتنى من بيتى فى القاهرة ،

لتعلقنى هكذا بين الارض والسماء .. ثم تحملنى الى اقصى الشرق ، الى طوكيو .. ومنها الى اقصى الشمال ، الى (الاسكا) ، بلاد الاسكيمو ، والمنطقة القطبية ! .. ثم تعود فتهبط بى من القطب الى كوبنهاجن ، فدوسلدورف ، وفيينا ، وأثينا ، فالقاهرة !

.. وأفقت من تأملاتى فى خريطة العالم الذى أتأهب لـ «غزوه» ! .. فأخذت اقلب الصفحات التالية من الأطلس الذى فى يدى ، واذا فى آخره فصل رائع ، يجمع الكثير من الاحصاءات الشائقة عن هذا الكون العجيب الذى نعيش فيه !

ورحت أقرأ فيه هذه الحقائق التى أنقلها اليك فيما يلى ، بغير ترتيب :

دوران الارض

تدور الارض فى مدارها حول الشمس بسرعة ٦٦٧٠٠ ميل فى الساعة .. فتتم دورة كاملة حول الشمس كل ٣٦٥ يوما ، و ٥ ساعات ، و ٤٨ دقيقة ، و ٤٦ ثانية !

وتدور الارض حول محورها (نفسها) بسرعة اكثر من الف ميل فى الساعة ، فتتم دورة كاملة كل ٢٣ ساعة ، و ٥٦ دقيقة .

مقاييس الارض

عمرها ((المقدر)) : ٢ « بليون » (مليون مليون) سنة ، على الأقل !

وزنها : ٦ « سكستليون » و ٦٦٠ « كوينتليون » طن !

مساحتها : ١٩٦ مليونا و ٩٤٠ الف و ٤٠٠ ميل مربع .

مساحة ((البر)) فيها ، (بما فى ذلك الانهار والبحيرات

الداخلية ، مع استثناء منطقتى القطبين) : ٥٢ مليونا و ١٢٥ الف ميل مربع .

قطرها الاستوائى : (بين الشرق والغرب) ٧٩٢٦ ميلا .

قطرها القطبى : (بين الشمال والجنوب) ٧٨٩٩ ميلا .



فى بانجكوك ، المدينة ذات الاربعمائة معبد ، ترى الكثير من هذه الابراج المدببة الطرف - (حتى لتكاد تثقب كبد الغمام) - ويبدو فى هذه الابراج التى تعلو جميع المعابد البوذية ، جمال فن المعمار التايلاندى ، ذى الطابع الفريد فى نوعه .

معدل قطرها : ٧٩١٨ ميلا .
محيطها الاستوائى : ٢٤٩٠٢ من الاميال .
محيطها القطبى : ٢٤٨٦٠ من الاميال .
الفرق بين المحيطين : ٤٢ ميلا .



«بوفيه» شركة الطيران السكندنافية ، فى جانب من قاعة الطعام الفسيحة بمطار روما الجديد الفاخر الذى اطلقوا عليه اسم الفنان الخالد «ليوناردو دافنشى» . وقد شيدت واجهة القاعة (المطلة على ارض المطار) باكملها من الزجاج السميك ، كما ترى فى يسار الصورة

سكانها .. وسطحها

ويبلغ العدد الاجمالى لسكان الارض نحو ٢٫٦٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة ، (اى بمتوسط كثافة قدره خمسون نسمة فى الميل المربع) .

وأعلى قمة فوق سطح الارض هى قمة (افرست) ، فى جبال (نيبال) بالصين ، ويبلغ ارتفاعها ٢٩٫٠٢٨ قدما فوق سطح البحر .

واكثر بقاع الارض انخفاضا هى شاطىء البحر الميت ، بالاردن ، وتنخفض عن سطح البحر بمقدار ١٢٨٦ قدما .

وأعمق نقطة فى قاع المحيطات هى (شالنجرديب) ، جنوبى (جوام) ، بالمحيط الهادى . ويبلغ عمقها ٣٥٦٤٠ قدما تحت سطح البحر .

مقاييس الحرارة والامطار بها

أعلى درجة حرارة سجلت فى بقعة من العالم هى ٥٨ درجة مئوية . فى بلدة (العزيزية) — فى ليبيا ، بشمال افريقيا — وكان ذلك يوم ١٣ سبتمبر عام ١٩٢٢ .

وأقل درجة حرارة سجلت فى العالم هى ٦٧ درجة مئوية تحت الصفر ، فى جهة (فيرخويانسك) بصحراء سيبريا الجليدية ، وكان ذلك فى يومى ٥ ، ٧ فبراير عام ١٨٩٢ .

وأعلى متوسط للحرارة على مدار السنة ، هو ٣٠ درجة مئوية ، وذلك فى (مصوع) باقليم اريتريا ، و (جيبوتى) بافريقيا .

أما أقل متوسط سنوى للحرارة فهو ٣٠ درجة مئوية

تحت الصفر ، وذلك فى (ايسميت) بمنطقة (جرينلاند) ، وتقع بين خطى عرض ٥٤ ـ ٧٠ ، وخطى طول ٤٠ ـ ٤٢ .

وأغزر نسبة لسقوط الامطار هى ٤٦ بوصة خلال ٢٤ ساعة ، وقد هطلت ليلة ١٤ ـ ١٥ يوليو عام ١٩١١ ، فى (باجيو) بمنطقة لوزون من جزر (الفيليبين) .

ومن الارقام القياسية ـ التالية لهذا الرقم من حيث غزارة سقوط الامطار ـ ما حدث فى (شيرابونجى) بالهند ، حين هطل اكثر من ١٥٠ بوصة من الامطار خلال خمسة ايام متوالية من شهر اغسطس عام ١٨٤١ . ثم هطل فى نفس المنطقة فى شهر واحد (هو يوليو من عام ١٨٦١) مقدار ٣٦٦ بوصة . هذا ويبلغ المعدل السنوى لسقوط الامطار فى (شيرابونجى) المذكورة ٤٢٦ بوصة .

مقارنات طريفة .. بين القارات

وفيما يلى سلسلة من الاحصاءات المقارنة بين مختلف قارات الارض ، من حيث : المساحة ، وعدد السكان ، وكثافتهم فى الميل المربع ، ومتوسط الارتفاع ، واقصاه ، وادناه :

ولنبدأ بالمقارنة **من حيث المساحة** : فأكبر القارات جميعا قارة آسيا ، اذ تبلغ مساحتها ٠٠٠ر٣٥٠ر١٧ ميل مربع .. وتليها قارة افريقيا (٠٠٠ر٦٣٥ر١١ ميل مربع) .. ثم امريكا الشمالية (٠٠٠ر٤٣٥ر٩ ميل مربع) .. فأمريكا الجنوبية (٠٠٠ر٨٦٠ر٦ ميل مربع) .. ثم المناطق القطبية (٠٠٠ر٠٠٠ر٥ ميل مربع) .. فأوربا (٠٠٠ر٨٥٠ر٣ ميل مربع) .. واخيرا استراليا (٥٨١ر٩٧٤ر٢ ميل مربع) .

أما من حيث **تعداد السكان** ، فيبلغ عدد سكان آسيا (والمصدر الذى أنقل عنه هذه الاحصاءات مطبوع عام



فى قلب مدينة (روما) تبدو هذه المفارقة الصارخـــة بين المبنى الاثرى القديم ، الى اليمين ، والمبنى العصرى المشيد على احدث طراز فى مواجهته الى اليسار ! .. وكل شىء فى روما يتميز بهذه المفارقة الشاسعة بين القديم والحديث .

١٩٥٧) ٠٠٠ر٦٠٠ر٤٩٣ر١ نسمة - (بكثافة قدرها ٨٨ نسمة فى الميل المربع) - ويليها فى عدد السكان أوربا (التى يجىء ترتيبها السادسة من حيث مساحة الارض !) فيبلغ تعدادها ٠٠٠ر٣٠٠ر٥٥٣ نسمة - (بكثافة ترتفع الى ١٤٤



فى ممر «مسقوف» فاخر بين عمارتين من عمائر (روما) ، اقيم هذا المقهى الانيق ، تحف به من الجانبين عشرات الحوانيت والمكتبات ..

نسمة فى الميل المربع) .. ثم أمريكا الشمالية (٢٢٩٫٧٠٠٫٠٠٠ نسمة ، بكثافة قدرها ٢٤ نسمة فقط فى الميل المربع .. فأفريقيا (٢١١٫٤٠٠٫٠٠٠ نسمة ، بكثافة تنخفض الى ١٨ نسمة فى الميل المربع) .. فأمريكا الجنوبية (١١٨٫١٠٠٫٠٠٠ نسمة ، بكثافة قدرها ١٧ نسمة

فى الميل المربع) .. وأخيرا استراليا (٨٫٨٧٦٫٠٠٠ نسمة ، بكثافة قدرها ٣ فقط فى الميل المربع !) .. أما المناطق القطبية، فغير مأهولة بالسكان .. وبالتالى فكثافتها : صفر !

واما من حيث المرتفعات والمنخفضات فى كل قارة ، ومتوسطها ، فتجىء آسيا فى المقدمة أيضا ، اذ توجد بها أعلى قمم العالم — كما أسلفنا — وهى قمة أفرست بجبال (نيبال) بالصين ، (٢٩٠٢٨ قدم) — كما توجد بها أدنى بقاع الارض انخفاضا ، وهى شاطىء البحر الميت (١٢٨٦ قدما تحت سطح البحر) .

ويلى آسيا فى مجال المرتفعات **امريكا الجنوبية** ، حيث توجد بها قمة جبل (أكونكاجوا) بالارجنتين (٢٢٨٣٥ قدما) .. فى حين لا يوجد بها أى منخفض يقل عن مستوى سطح البحر .

.. ثم **أمريكا الشمالية** ، وبها قمة جبل ماكينلى فى (ألاسكا) ، ويبلغ ارتفاعها ٢٠٢٦٩ قدما ، يقابلها فى الانخفاض (وادى الموت) — « ديث فالى » — بكاليفورنيا ، الذى يهبط الى ٢٨٢ قدما تحت سطح البحر .

اما **افريقيا** ، فأعلى قممها هى قمة جبل (كيليمانجارو) فى تنجانيقا (١٩٥٦٥ قدما) .. يقابلها منخفض القطارة فى مصر (٤٤٠ قدما تحت سطح البحر) .

ثم تليها **(اوربا)** ، حيث يبلغ ارتفاع جبل (ايلبروس) — فى الاتحاد السوفييتى — ١٨٤٨٠ قدما .. يقابلها بحر قزوين — فى الاتحاد السوفييتى أيضا — الذى ينخفض عن مستوى البحر بمقدار ٨٥ قدما .

وقد يدهشك ان **بالمنطقة القطبية** قمة يبلغ ارتفاعها ١٥١٠٠ قدم ، هى قمة جبل (ماركهام) .. فى حين لا توجد بها أية **منخفضات عن سطح البحر** .

واستراليا دائما فى المؤخرة : فأعلى قممها — وهى قمة جبل (كوزكييسكو) — لا يزيد ارتفاعها عن ٧٣٠٥ أقدام .. كما ان أدنى منخفضاتها لا تهبط الى اكثر من ٣٩ قدما تحت سطح البحر ، وهى بحيرة (اير) .

مدن العالم الخمسين الكبرى

والاحصاء الاخير المقارن الذى أورده لك فيما يلى ، لايقل طرافة وأهمية عن الاحصاءات السالفة ، وهو ينصب على بيان تعداد سكان اكبر خمسين مدينة من مدن العالم ، حسب ترتيبها من حيث عدد السكان ، (وقد أورد الاحصاء أمام اسم كل مدينة رقمين : أولهما عدد سكان المدينة ذاتها ، فى أضيق الحدود .. والرقم الثانى — المعول عليه — هو عدد سكان المدينة بجميع ضواحيها) .. وفيما يلى قائمة مدن العالم الخمسين الكبرى ، وقد جاء ترتيب (القاهرة) فيها ، السادسة والعشرين ، (وأعود فأكرر ان المصدر الذى اورد هذا الاحصاء مطبوع فى سنة ١٩٥٧) :

نيويورك : ٨ر٠٥٠ر٤٢٥ (١٣ر٨٦٥ر٣٨٤)
لندن : ٣ر٣٤٣ر٥٦٢ (٩ر٨٣٥ر٣١٩)
طوكيو : ٥ر٣٨٥ر٠٧١ (٨ر٤٠٠ر٥٢٧)
موسكو : ٥ر١٢٥ر٠٠٠ (٧ر٢٥٠ر٥٢٢)
باريس : ٢ر٨٥٠ر١٨٩ (٦ر٦٥٠ر٠٠٠)
شنغهاى (الصين) : ٦ر٢٠٤ر٠٠٠
شيكاغو : ٣ر٧٦٠ر٨١٧ (٥ر٦٢٥ر٩٦٥)
بوينس ايرس (الارجنتين) : ٣ر٣٤٤ر٢٠٣ (٥ر١٣٥ر٠٠٠)
لوس انجلوس (امريكا) : ٢ر١٧٥ر٥٣٤ (٥ر٠١٨ر٢٨٥)
اوزاكا (اليابان) : ١ر٩٥٦ر١٣٦ (٤ر٤٢٥ر٠٠٠)

لنينجراد (الاتحاد السوفييتى) : ٣٫٦٧٥٫٢٣٩ (٤٫٢١٢٫٨٧٥)

برلين (الغربية ، المانيا) : ٢٫١٩١٫٤٧٥ (٣٫٩٠٢٫١٩٨)

كلكتا (الهند) : ٢٫٥٤٨٫٦٧٧ (٣٫٧٥٠٫٠٠٠)

فيلادلفيا (الولايات المتحدة) : ٢٫١٤١٫٧٠٠ (٣٫٥٧٥٫٨٦٤)



في ميدان (ايزيدرا) المشهور بمدينة روما ، الذى تتوسطه نافورة من اجمل نافورات المدينة العريقة ، خططت هذه العلامات البيضاء العريضة لتحدد احد اماكن عبور المشاة .

اسن (المانيا الغربية) : ٦٦٧ر٨٥٠ (٣٢٢ر٥٢٥ر٣)
ريو دى جانيرو (البرازيل) : ٣٧٢ر٣٦٦ر٢
(٠٠٠ر٠٧٥ر٣)

مدينة المكسيك (المكسيك) : ٩١٤ر٢٣٣ر٢
(٠٠٠ر٠١٥ر٣)

بومباى (الهند) ، ٢٧٠ر٨٣٩ر٢
بيكين (الصين) : ٠٠٠ر٧٦٨ر٢
تيين تسين (الصين) : ٠٠٠ر٦٩٤ر٢
بوسطن (الولايات المتحدة) : ٢١٥ر٨٠٥ (١١٢ر٥٧٥ر٢)
سان فرانسيسكو (الولايات المتحدة) : ٣٨٠ر٧٨٠
(١٤٧ر٣٢٥ر٢)

مكدن (الصين) : ٨١٢ر٢١٣ر٢
سان باولو (البرازيل) : ٣٦٠ر١٩٧ر٢
القاهرة : ٦٥٤ر٠٩٠ر٢
هونج كونج (الصين) : ٣١٠ر٨٥٢ (٠٠٠ر٩٨٢ر١)
فيينا (النمسا) : ١٢٥ر٦١٦ر١ (٠٠٠ر٩٠٠ر١)
همبورج (ألمانيا الغربية) : ٦١٠ر٧٣٥ر١
واشنجطن (الولايات المتحدة) : ٢٤٧ر٨٦٠
(٠٠٠ر٧٢٥ر١)

روما (ايطاليا) : ٥٨٨ر٦٥٧ر١
كليفلاند (الولايات المتحدة) : ٢٩٤ر٩٣٥ (٠٠٠ر٦٣٠ر١)
سيدنى (استراليا) : ١٨٥ر٢١٣ (٤٤٥ر٦٢١ر١)
تشو نكنج (الصين) : ٠٠٠ر٦٢٠ر١
كانتون (الصين) : ٢٠٠ر٦١٤ر١
جلاسجو (انجلترا) : ٤٣٢ر٠٨٣ر١ (٠٠٠ر٦١٢ر١)
بودابست (المجر) ٣٠٠ر٥٩٥ر١

برمنجهام (انجلترا) : ٥٢٤ر١١٨ر١ (٣٠٠ر٥٥٢ر١)
مدريد (اسبانيا) : ٨٩٤ر٥٢٧ر١
برشلونة (اسبانيا) : ٦٧٥ر٢٧٦ر١ (٠٠٠ر٥٢٥ر١)
بتسبرج (الولايات المتحدة) : ٤٢٦ر٦٨٠ (١٣٨ر٥١٥ر١)
مانيلا (الفيليبين) : ٩٠٦ر٩٨٣ (٢٧٥ر٥١٠ر١)
هانكاو (الصين) : ٤١٧ر٥٠٠ر١
ميلانو (ايطاليا) : ٩٩٤ر٢٦٨ر١ (٠٠٠ر٥٠٠ر١)
منشستر (انجلترا) : ٨١٣ر٧٠١ (٠٠٠ر٥٠٠ر١)
سيول (كوريا الجنوبية) : ٢١٩ر٤٤٦ر١)
دلهى (الهند) : ٧٩١ر٩١٤ (٠٠٠ر٤٢٥ر١)
مدراس (الهند) : ٠٥٦ر٤١٦ر١

وعند هذا القدر ، دعنا نطوى هـذا الأطلس الطريف ، لنربط حزام المقعد ، ونتأهب لهبوط الطائرة فى روما .. والى العدد القادم ..

حلمى مراد

رجال "أرامكو"



تحتاج صناعة الزيت الى كثير من المعلومات . فسجلات الضغط والحرارة التى تؤخذ من المناطق التى تحتوى على الزيت داخل الارض هامة جدا . وتظهر هذه المعلومات الحالات التى بموجبها تعرف نسبة انتاج الزيت فى باطن الارض .

والسيد عبد الرحمن سليمان العجاجى هو المشرف على الموظفين الذين يقومون بهذه القياسات . ومن عمله فحص الالات ومعرفة دقتها بمقاييس ثابتة كما يظهر فى الصورة .

وقد التحق السيد عبد الرحمن فى شركة ارامكو فى عام ١٩٤٨ ، فعمل فى فرقة قياس الحرارة والضغط ، ثم فى مراكز فرز الغاز من الزيت حتى أصبح مشغلا أعلى خارج الورشة . وفى اوائل هذا العام عاد الى العمل فأصبح مشرفا بقياسات الحرارة والضغط.

وقد درس السيد عبد الرحمن سبع سنين فى بلدة ظرما فى نجد. وبعد ان التحق بشركة ارامكو واصل دراسته خلال ساعات العمل وبعدها فى مدارس الشركة ، حيث درس الجبر والهندسة والعلوم الطبيعية بالاضافة الى اللغتين العربية والانجليزية فساعدته هذه الدروس على التقدم المستمر .

وقد سافر السيد عبد الرحمن أخيرا الى الولايات المتحدة الامريكية اذ مهدت له الشركة السبيل ليعمل هناك لمدة سنة يتمرن خلالها على أعمال تسجيل الحرارة والضغط فى حقول متعددة للزيت وسيعود الى ارامكو حاملا معه مزيدا من المعلومات والخبرة فى هذا الباب .

أرامكو : شركة الزيت العربية الأمريكية

الظهران - المملكة العربية السعودية

عزيزى القارىء :

ما **أحسبك** تجهل الكاتب القصصى الفرنسى ((**جى دى موباسان**)) ، فهو من أبرز أقطاب القصة .. وقد قدم لك ((**كتابى**)) بعض تحفه ، اذكر منها «شالى» (**العدد ١٥**) ، و « فرانشيسكا فى سوق الهوى » (٤٠) ، و « العانس » (٥١) .. كما قدمت لك ((**مطبوعات كتابى**)) روايته الرائعة « حياة امرأة » فى عدديها **الخامس والسادس** .

والقصة التى أقدمها لك ـ فى هذه المرة ـ من اول انتاجه ، ومن المبدعات التى اذاعت صيته .. ولكنى لا أقدمها لك لقيمتها القصصية فحسب ، وانما .. **لأنها تعطيك أجلى وأصدق صورة لفرنسا التى تبطش اليوم بشعب الجزائر العربى الأصيل ، لانه يطالب بحريته ، بينما كانت تنصاع ذليلة ، مهينة ، تحت اقدام الالمان ، فى اكثر من مرة فى التاريخ الحديث .. تفرط لهم فى كل شىء .. حتى الشرف !**

ومع أن « بول دى سويف » تعنى ((**كرة الدهن**)) ، وكانت تطلق على البطلة للسخرية ، الا اننى آثرت استبقاءها لان لها رنين الاسماء .. ولأنها اكتسبت شهرة الاسماء عند قراء الادب .

كانت فلول الجيش الفرنسى تجتاز شوارع مدينة (روان) ، متقهقرة مبعثرة ، وقد ارتسمت على جباه جنودها آيات العناء والأعياء ، وبدت لحاهم مشعثة مرسلة ، وثيابهم مهلهلة ، وهم مشتتون فى كل صوب ، لا يجمعهم علم ، ولا

تضمهم كتيبة ، ولا تقوى أبدانهم على مواصلة السير.. حتى اذا توقفوا يلتمسون بعض الراحة ، كانت اقدامهم تخونهم فيسقطون متخاذلين !

وما انقضى الهزيع الأخير من الليل ، حتى كانت البقية الباقية من جند فرنسا قد اختفت هاربة أمام طلائع الألمان .. **وما لبثت المدينة أن أقفرت وخيم عليها سكون رهيب ، وهى تنتظر فى هلع قدوم الفاتحين .**

حتى اذا تقدم النهار قليلا ، طلع على المدينة بضعة جنود من فرقة الفرسان الألمانية ، واخترقوا شوارعها مسرعين . ثم اقبلت ــ بعد قليل ــ كتيبة مدرعة من ناحية (سانت كاترين) .. تلتهاكتيبتان منناحيتى (دارنتال) و (بواجيلوم) . ومالبث السيل الألمانى أن تدفق ــ بعد ذلك ــ فى كل شوارع المدينة ، وارتفع صوت الخطوات المنتظمة للجنود وهى تدق على احجار الطريق . وراحت العيون المذعورة ــ بينذاك ــ ترقب ، من وراء النوافذ الموصدة ، أولئك القوم الظافرين .

ثم مالبث الألمان أن أخذوا يطرقون على الناس أبوابهم ، ويدخلون عليهم بيوتهم . **فهذا هو الأحتلال بعد الغزو ، حيث يبدأ واجب المقهورين فى أن يكونوا كراما نحو القاهرين !..** وراح ضباط الغزاة يأكلون على موائد كثير من الأسر ، فما مضى بعض الوقت حتى بدأت الحياة تدب فى المدينة من جديد.. ولم يحن اليوم التالى ، حتى فتحت المتاجر أبوابها ، واستأنف الناس معاملاتهم ، وجرت الأمور فى مجراها المعتاد .. بل لقد تجرأ بعض التجار ــ الذين كانت لهم مصالح فى مدينة (الهافر) ــ على أن يطلبوا من الفاتحين اذنا بالسفر الى هذه المدينة ، التى كانت بعد فى يد الجيش

الفرنسى.. وتوسلوا لذلك ببعض الضباط الألمان الذين سبق لهم أن استضافوهم على موائدهم ، فحصلوا على اذن بالسفر من القائد العام .

***

ومن ثم أعد المسافرون عدتهم للسفر ، فى اليوم التالى ، بعربة تجرها الخيول . فلما كانت الساعة الرابعة من فجر ذلك اليوم ، اجتمعوا فى فناء فندق (نورمانديا) استعدادا للسفر . وكان النعاس يملأ عيونهم ، والبرد يفرى أجسامهم .. وما كان الواحد منهم ليتبين وجه أخيه فى الظلام الدامس . حتى اذا أقبلت العربة أخذوا مجالسهم فيها صامتين .

وبدأت العربة رحلتها فى بطء ، وراحت عجلاتها تغوص فى الجليد المتراكم ، فيسمع لها صوت كتفكك الأوصال .. وعلا تنفس الخيل ، والبخار يخرج من خياشيمها ، والسائق يفرقع سوطه مستحثا اياها .. حتى بدأ الفجر يرسل ضياءه ، وأخذ المسافرون ينظر بعضهم الى بعض ، ويتفحص كل منهم الآخر فى الضوء الخافت :

ففى أقصى العربة ، كانت تجلس **مدام ((لوازو))** ، ويجلس قبالتها زوجها **مسيو ((لوازو))** ، وهو رجل طويل القامة ، ضخم الجسم ، أحمر الوجه ، منتفخ الأوداج ، تكتنف عارضيه لحية كثيفة ، وكان من كبار تجار النبيذ فى شارع (جرانيو) .. وقد جلس بجواره **مسيو ((كاريه ليمادون))** ، وهو من طبقة ارفع مقاما وأعلى مرتبة ، وكان عضوا بالمجلس الأعلى ، وحاملا لوسام ((اللجيون دونير)) ، وقد ظل طوال عمر الامبراطورية رئيسا لحزب المعارضة .. **اما زوجته فكانت صغيرة السن مضيئة الوجه ، ويقال انها**

كانت سلوة ضباط حامية (روان) ، وقد جلست غارقة فى فرائها ، تنظر بأضطراب الى من حولها ..

أما جارهم **الكونت ((هيوبرى دو بريفيل))** ، فكان اسمه من أعرق الأسماء وأنبلها فى (نورمانديا) ، وهو أشيب الشعر ، فاره الطول ، يقلد فى ملبسه الملك «هنرى الرابع» .. وكان كذلك عضوا فى المجلس الأعلى .. وقد جلست بجانبه زوجته الكونتة ، فى ترفع ووقار .

وكان أولئك الستة الجالسون فى أقصى العربة ، يمثلون أشراف القوم ذوى المبدأ والدين .. وكانت السيدات الثلاث متجاورات ، **تتلوهن فى المقعد راهبتان تقلبان بين أصابعهما حبات مسبحتين ، وهما مستغرقتان فى الصلاة ..** وكانت احداهما كبيرة السن كثيرة التجاعيد ، والثانية رقيقة البنية ، جميلة الطلعة ، ناصعة البياض .

وكان يجلس أمام الراهبتين رجل وامرأة استرعيا أنظار الجميع .. أما الرجل ، فهو شخص يدعى **مسيو كورنيديه** .. وكان عدو الأرستقراطية الألد ، وقد أضاع ثروة طائلة ورثها عن أبيه ، ومن ثم أخذ ينتظر بفارغ الصبر أن تحل الجمهورية محل الأمبراطورية ، حتى ينال الوظيفة التى يصبو اليها منذ أمد بعيد !

وأما المرأة فكان لقبها **((بول دى سويف))** .. وكانت غانية غضة الغصن ، ملفوفة الأعطاف ، موردة الوجنتين ، ذات عينين سوداوين ، وفم جميل ، وشفتين قرمزيتين تغريان بالتقبيل . فما كاد يعرفها القوم ، حتى بدأت النسوة الشريفات يتهامسن بعبارات قاسية ، طرق سمعها منها كلمات الزنا والفضيحة والعار .. **فرفعت رأسها ونظرت اليهن فى جرأة واستخفاف !** .. وماعتم الحديث أن اتصل

بين النسوة الثلاث ، وقد قرب بينهن وجود هـذه المرأة ، فجعلهن صديقات حميمات .

أما الرجال الثلاثة ، فما رأوا « كورنيديه » ، حتى أخذوا فى فنون متشـعبة من الحديث ، متكلمين عن المال بلهجة الأغنياء الذين يحتقرون الفقر والفقراء .. فتحدث « الكونت دو بريفيل » عما كلفه غزو الألمان من خسائر فادحة ، وان لم تكن تؤثر فى ثروته الطائلة .. وراح مسيو «كاريه ليمادون» ـ وهو من أسـاطين صناعة القطن ـ يروى كيف احتاط للأمر ، وبعث بستمائة ألف من الفرنكات الى انجلترا لتكون هناك فى مأمن من أى سوء . وقال مسيو « لوازو » أنه باع كل ماكان يملك من نبيذ ردىء النوع الى الحكومة الفرنسية ، **وانه من ثم يداينها بمبلغ طائل ، يأمل أن يتقاضاه فى (الهافر) .**

وراحوا يديرون الحديث معا فى مودة وأخاء ، فبالرغم من أن لكل منهم طريقة فى الحياة ، فانهم كانوا يشـعرون بأنهم أخوان فى المال !

***

وكانت العربة ـ بينذاك ـ تسير ببطء شديد ، حتى أنهم ، وقد بلغت الساعة العاشرة صبـاحا ، لم يكونوا قد قطعوا اكثر من أربعة فراسخ . ومن ثم فقد بدأوا يقلقون ، لأنه كان من المفروض أن يتناولوا غداءهم فى مدينة (توت) ، وقد تبين لهم أنهم لن يستطيعوا بلوغها قبل المساء . وأخذ كل منهم يتطلع الى الخارج عسى أن يجد فندقا فى الطريق ، الا أن العـربة مالبثت أن انغرسـت فى كوم من الثلج ، فلم تسـتطع أن تواصل السـير الا بعد سـاعتين من العنـاء والجهد .

وشعروا بالجوع يفرى أحشاءهم ، وما من أحد فى الطريق

يجدون لديه شيئا من الطعام أو الشراب ، **فأن الجيش الفرنسى الجائع أتى على كل شىء وهو يفر أمام جحافل الألمان !**

وقال « لوازو » أنه يدفع ألف فرنك ثمنا لقطعة من لحم الخنزير . وقال الكونت أنه يشعر بجوع قاتل ، ولا يدرى كيف غفل عن أن يحضر طعاما معه . وكان مع « كورنيديه » زجاجة نبيذ ، فقدم منها للقوم ، فرفضوا فى فتور ، الا « لوازو » . فقد أخذ منها جرعة ثم ردها شاكرا . أما الراهبتان ، فقد خبأتا ايديهما فى ثنايا أردانهما الواسعة ، وجلستا صامتتين لاتأتيان حركة ، وقد غضتا من بصرهما . **وكانت « بول دى سويف » ـ أثناء كل ذلك ـ لاتفتا تنحنى بين وقت وآخر ، لتنظر شيئا يستره الثوب عند قدميها .**

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر ، حين وصلوا الى سهل فسيح لاتأتى على حدوده العين ، ولايقع فيه البصر على قرية او كوخ . وعند ذلك ، انحنت «بول دى سويف» الى الأمام ، وتناولت من تحت المقعد سلة كبيرة مغطاة ، وأخرجت منها طبقا من الخزف وكوبا من البلور ، ثم ربطة كبيرة بها دجاجتان كاملتان وفاكهة وحلوى ، وقد بدت تحت اللفافات أعناق أربع زجاجات من النبيذ .. فاقتطعت جناح دجاجة ، وأخذت تأكله برشاقة مع قطعة صغيرة من خبز نورمانديا الشهير .

ومن ثم أصبحت محط الأنظار . وأخذت رائحة الطعام تفوح فى جو العربة ، حتى امتلأت بها الخياشيم ، وجرى الريق متدفقا فى الأفواه . وهنا كان احتقار النسوة الشريفات لهذه المرأة الساقطة بالغا أشده ، حتى خيل اليهن أن يقتلنها أو يقذفن بها خارج العربة هى وكوبتها وسلتها ، وما تحتويه من طعام . الا أن « **لوازو** » مالبث أن قال وهو

يكاد يفترس الدجاجة بعينيه : « ما أبدع هذا !.. ان سيدتى أكثر حذرا منا جميعا ! »

فرفعت اليه رأسها قائلة : « هل يتفضل سيدى بمشاركتى الطعام ؟ » .. فحياها قائلا : « بكل سرور يا سيدتى ! » .

وألقى على الجميع نظرة ثم قال : **« انه لمن حسن الطالع - فى مثل هذا الوقت العصيب - أن يجد الانسان من يأسره باحسانه »** .

وبسط صحيفة كانت معه على ركبتيه ، وأخرج من جيبه مدية واقتطع فخذا من الدجاجة ، فوضعه بين أنيابه ، وأخذ يمضغه بتلذذ واطمئنان . وعند ذلك علت فى جو العربة تنهدات يأس عميق !

والتفتت بول دى سويف الى الراهبتين ، وسألتهما - بصوت متواضع النغمة ، رقيقها - أن تشاطراها الطعام ، فقبلتا على الفور .. **ودون أن ترفعا بصريهما بدأتا تأكلان مسرعتين ، بعد أن تمتمتا عبارات الشكر** . وكذلك لم يرفض كورنيديه دعوة جارته . وما لبث لوازو - وهو منهمك فى التهام الطعام - أن مال على زوجته وطلب اليها بصوت منخفض أن تحذو حذوه ، الا أنها قاومت طويلا ، حتى اعترتها فى النهاية رعدة شديدة من الجوع ، فأذعنت بالقبول !

واضطرب القوم حين رأوا الزجاجة الأولى من نبيذ (بوردو) يفض ختمها . ولم تكن ثمة غير كوبة واحدة ، فتداولها الجميع بعد غسلها كل مرة .

وآلم منظر هؤلاء القوم - وهم يأكلون ويشربون - الكونت والكونتة ومسيو كاريه ليمادون وزوجته وهم جياع .. **وفجأة ، شهقت مدام ليمادون شهقة عالية ، لفتت اليها أنظار الجميع ، وأصبح وجهها أبيض كالثلج ، وأغمضت عينيها وطأطأت رأسها ، ثم فقدت شعورها** .. فجن جنون زوجها ،

ودعا القوم لمعاونته، فارتبكوا جميعا .. الا أن كبرى الراهبتين أخذت رأس المريضة بين يديها ، وأفرغت في فمها جرعات من خمر « بول دي سويف » ، فما لبثت ان فتحت عينيها، وقالت انها الآن أحسن حالا . فطمأنتها الراهبة قائلة : « انك بخير . وانما هو الجوع الذى فعل ذلك ! » .

فارتبكت « بول دى سويف » وعلا وجهها احمرار الخجل، ونظرت الى الأربعة الذين لم يأكلوا قائلة : « يا الهى . هل يمكننى أن أقدم اليكم ـ أيها السادة ـ شيئا من الطعام ؟ » .. فترددوا جميعا ولاذوا بالصمت . الا أن الكونت لم يلبث أن التفت الى الفتاة الخجلة ، وقال بلهجة السيد العظيم : « اننا نقبل دعوتك مع الشكر يا سيدتى » .

وهكذا ، لم يمض قليل من الوقت حتى كانت السلة قد أفرغت من كل محتوياتها .

***

وما كان من الممكن أن يأكلوا من طعام الفتاة دون أن يجاذبوها أطراف الحديث ، فبدأوا يتكلمون معها متحفظين فى بادىء الأمر .. ثم لم يلبثوا أن تبسطوا معها فى القول . وكانت الكونتة رشيقة شيقة الحديث ، أما مدام لوازو فبقيت متحفظة .

وكانت الحرب بالطبع مدار حديثهم ، فتكلموا عن فظاعة الألمان ، وعن شجاعة الفرنسيين . وقصت «بول دى سويف» ـ فى حرارة وانفعال ـ كيف تركت مدينة (روان) قائلة : « كنت أعتقد ـ فى بادىء الأمر ـ أننى أستطيع البقـاء فى المدينة ، ولكننى حين رأيت أولئك البروسيين ، صارشعورى أقوى من عزيمتى ، وغلى دم الغضب فى عروقى، وبكيت حزنا وخجلا طول يومي .. حتي اذا جاء واحد منهم للاقامة عندي،

وثبت على عنقه ، وكدت أخنقه ، لولا أن حالوا بيني وبينه .. وكان محتما ـ بعد ذلك ـ أن أختفي ، فلما سنحت الفرصة اقتنصتها .. وها أنا ذى ! »

فهنأها القوم كثيرا ، وارتفع قدرها فى نظرهم . **وكان « كورنيديه » ينظر اليها وهى تتحدث ، وابتسامة السرور والاعجاب لا تفارق شفتيه .**

ثم جاء الليل ، وخيم الظلام ، واشتد البرد ، حتى بدأت « بول دى سويف » ترتعد ، فقدمت لها الكونتة مدفأتها التى ما برحت تغذيها بالفحم منذ الصباح .

وأشعل السائق مصابيح العربة ، فما كان يتراءى على ضوئها الا تلال الثلج المتتابعة ، حتى بدت أخيرا ـ على البعد ـ أضواء مدينة (توت) . وما هى الا لحظات ، حتى دخلوها ، وانتهى بهم السير الى « فندق المسافرين » .

ولم يكد باب العربة يفتح ، حتى سمع القوم صوتا بعث الرعب فى قلوبهم جميعا .. **وكان ذلك صوت ضابط المانى يقول لهم : « انزلوا جميعا ! »**

وبدأت الراهبتان بالنزول مذعنتين ، شأن من اعتاد الامتثال امام النوائب . ثم تبعهما الكونت والكونتة ، ثم « ليمادون » وزوجته ، وبعد ذلك مسيو لوازو وزوجته .. **وقد حيا « لوازو » الضابط فى تأدب ، فلم يرد عليه ، وانما نظر اليه فى صلف واحتقار .** ومع أن « بول دى سويف » و « كورنيديه » كانا أقرب الجماعة الى باب العربة ، فانهما نزلا آخر القوم ، وهما يبديان الكبرياء والأنفة أمام ذلك العدو . وقد اجتهدت « بول دى سويف » أن تحكم نفسها وتضبط عواطفها .

ودخلوا جميعا قاعة الفندق ، وراح الضابط يطلع على ما بأيديهم من الجوازات المؤشر عليها من القائد العام . حتى اذا استوثق من صحتها ، استدار منصرفا في عجرفة وجفاء .

فتنفس القوم الصعداء ، وطلبوا طعام العشـــاء .. ولكنهم ما لبثوا قليلا حتى أقبل صاحب الفندق وصاح منـاديا : « مدموازيل أليزابيث روسيه ! » .. **فارتعـدت بول دى سويف ، والتفتت اليه قائلة : « نعم يا سيدى »** .

فقال لها : « ان الضابط البروسى يريد محادثتك » .

وفكرت هنيهة ، ثم قالت : « ماذا يريد منى ؟ .. اننى لن أذهب اليه »

فالتفت الجميع حولها فى اهتمام ، وتقدم اليها الكونت قائلا : « انك مخطئة يا سيدتى ، فلربما تسبب عدم ذهابك فى متاعب عظيمة .. ليس لك وحدك ، بل لنا جميعا .. لاينبغى أبدا مقاومة الأقوياء ! »

وانضم الباقون الى الكونت ، وراحوا يرجونها أن تذهب ، ويحثونها على ذلك ، حتى أذعنت فى النهاية قائلة : «انما أذهب استجابة لرغبتكم فقط ! » .. فأخذت الكونتة يدها قائلةلها : « ونحن نشكرك على ذلك »

***

وخرجت .. وظلوا هم ينتظرونهـا فى قلق ، حتى عادت أخيرا وهى محتقنة الوجه ، تكاد تنفجر غيظا وحنقا ، وقـد راحت تدمدم : « ياله من نذل .. ياله من نذل ! »

وسألوها عن جلية الأمر ، فأبت أن تجيب ، فجلسوا حول المائدة ، وراحوا يأكلون ويثرثرون . حتى اذا فرغوا من عشائهم قاموا الى مضاجعهم ، وقد أخذ التعب منهم كل مأخذ .

ولما دخل « اوازو » غرفة نومه ، وآوت زوجته الى سريرها ، **راح يسترق النظر - خلال ثقب الباب - الى الغرفة المجاورة ، فرأى « بول دى سويف » فى رداء النوم تغادر غرفتهـا ..** حتى اذا عادت بعد قليل ، رأى كورنيديه يتبعها ، وهى تدفعه

بعنف عن حجرتها ، وقد راحا يتبادلان عبارات خافتة . ثم ما لبث أن ارتفع صوتهما .. اذ قال كورنيديه لها : « انك لحمقاء حقا .. فماذا يجديك هذا التمنع وما الداعى اليه ؟ » .. وأجابته : « أى عار تريد أن تدفعنى اليه ؟.. أهذا يجوز، وفى الدار أولئك الالمان الملاعين ؟ »

وعندئذ سكت كورنيديه ، وقد تملكه الحياء . ومال على يدها فقبلها ، ثم انفلت الى غرفته فى حذر ، وساد السكون الدار .

ولما كان القوم قد اتفقوا فيما بينهم ، على أن يتابعوا سفرهم فى الساعة الثامنة صباحا ، فقد اجتمعوا – قبيل الفجر – فى قاعة الطعام . ولكن العربة كانت قائمة فى فناء الفندق بلا خيل، وقد علتها طبقة من الثلج .. ولم يبد للسائق أثر ، فراحوا يبحثون عنه فى كل مكان ، حتى عثروا عليه أخيرا فى حانة البلدة . فقال له الكونت : « ألم نصدر أمرنا اليك باحضار العربة فى الساعة الثامنة ؟ » . فأجابه فى برود قائلا : « نعم . ولكن صدر لى أمر آخر بعدم احضارها ! »

وعاد الكونت يسأله : « ومن أصدر اليك هذا الأمر ؟ » . فقال : **« أصدره لى صاحب الفندق بأمر الضابط الالمانى ! »**

فعادوا حائرين ، وسألوا عن صاحب الفندق ، فأخبرتهم الخادم بأنه لا يستيقظ من نومه – بأى حال من الأحوال – قبل الساعة العاشرة .. فانتظروا مرغمين . وما دقت الساعة العاشرة ، حتى جاء صاحب الفندق . فسألوه عن جلية الأمر ، فأجابهم قائلا : «لقد قال لى الضابط الالمانى ألا أدعكم ترحلون الا بأمره ! »

فأبدوا رغبتهم فى مقابلة الضابط .. وأرسل اليه الكونت بطاقته ، وكتب عليها « ليمادون » اسمه وكل ألقابه . **فجاء جواب الضابط بانه يسمح لهذين السيدين بمقابلته ،**

ولكن بعد ان يتناول غداءه ، ولم يكن يفعل ذلك الا فى الساعة الواحدة ! .. فلما جاء ذلك الوقت ، أقبل خادم الضابط يدعوهما لمقابلة سيده ، فانضم لوازو اليهما ، وحاول ثلاثتهم أن يضموا اليهم كورنيديه ليشد أزرهم ، ولكنه قال بكبرياء أنه لا يريد أن تكون له أية علاقة بالألمان !

***

ومن ثم صعد الثلاثة الى غرفة الضابط ، وهنالك وجدوه مضطجعا على مقعد وثير ، وقد وضع قدميه على حافة المدفأة ، وراح يدخن فى قصبة طويلة من العاج . فلما اقتربوا منه ، نظر اليهم دون أن يقف لهم أو يحييهم ، قائلا فى غطرسة : « ماذا تريدون ؟ » .

فقال الكونت : « نريد السفر يا سيدى » .. واذا به يقول : **« كلا . لن تسافروا ! »**

فارتبكوا ، وقال الكونت : « اننى ألفت نظر سيدى ــ بكل احترام ــ الى أن القائد العام هو الذى صرح لنا بالذهاب الى مدينة (دييب) .. ولا أظن أننا أتينا عملا يغضبك » . فأجاب قائلا : « كل ما فى الأمر أننى لا أريد .. ويمكنكم الآن أن تنصرفوا » .

فانحنوا وخرجوا .. وقضوا بقية اليوم فى حيرة وغم ، دون أن يقدر لهم أن يفهموا سر هذه الرغبة الألمانية . وراحوا يتناقشون ويفترضون كل الفروض عن سبب استبقائهم هذا : فهل يريدون أسرهم ؟ .. هل يريدون فرض ضريبة عليهم ؟ .. هل يحكمون عليهم بغرامة فادحة ؟

حتى اذا جاء ميعاد العشاء ، وجلسوا حول المائدة ، أقبل صاحب الفندق وقال بصوت مرتفع : **« ان الضابط الألمانى يطلب**

من المدموازيل أليزابيث روسيه افادته عما اذا كانت ماتزال مصرة على رأيها الأخير ؟ »

فامتقع لون « بول دى سويف » ، وخنقهـا الغضب ، ثم صاحت آخر الأمر قائلة : « قل لهذا الوغد الألمـانى أننى لن أقبل مطلقا .. أسمعت ؟ .. مطلقا ! »

وخرج صاحب الفندق ، فاجتمع القوم حول « بول دى سويف » يسألونهـا ، ويرجونهـا أن توضح لهم الحقيقة . فقاومت أول الأمر ، ولكنها ما لبثت ـ أمام شدة رجائهم ـ أن قالت : **« انه يريد منى العار ! »**

فاشمأزوا جميعا .. وحطم كورنيديه كويته على المائدة ، وقال الكونت أن اولئك الألمان أوغاد لاخلاق لهم . وأبدت النسوة لبول دى سويف تعزيتهن ومواساتهن وملاطفتهن . اما الراهبتان ـ اللتان ما كان أحد ليراهما الا ساعة الطعام ـ فقد غضتا من بصريهما ، دون أن تنبسا بكلمة .

ولم يجلسوا الى الطعام الا بعد أن هـدأت ثائرتهم ، وكان حديثهم ـ بينذاك ـ مقتضبا ، وقد راحوا يفكرون . وصعدت السيدات مبكرات الى غرفهن، ثم تبعهن الرجال بعد قليل .. وقضى الجميع ليلتهم كاسفى البال ، مهمومين .. حتى اذا اقترب الفجر ، استيقظوا جميعا وقد صمموا على السفر فى ذلك اليوم . ولكنهم ـ مع الأسف ـ وجدوا الجياد ما زالت فى حظيرتها ، والسائق لا أثر له !

وبدت من القوم جفوة حادة نحو « بول دى سويف » ، فقد أعاد الليل اليهم عقولهم .. **وباتوا يحقدون الحقـد كله على هذه الفتاة ، لأنها لم تذهب ـ ولو فى الخفاء ـ لتقابل الضابط الألمانى ، وتنهى مسألة سفرهم !..** وما أهون هذا الأمر عليها ، وقد سبق أن أتته مرارا وتكرارا قبل اليوم !.. ولكن أحدا منهم لم يجرؤ على التصريح بهذه الأفكار ..

وكان « لوازو » أشد الجميع حنقا ، ولم يكف عن التساؤل عما اذا كانت هذه الفتاة ستقضي عليهم بالمكوث أكثر من ذلك فى هذه القرية .. الا أن الكونت ما فتىء أن قال - بلهجته المؤدبة - **ان من غير اللائق برجل أن يطلب الى امرأة مثل هذه التضحية .. فان مثل هذه الأمور تجىء من تلقاء نفسها !**

وكان حديث النساء - بينذاك - عن الملابس والأزياء ، ولكنهن كن قلقات متوترات . وعلى حين غرة ، ظهر الضابط الألمانى بقامته المديدة ، ومشيته العسكرية ، فانحنى للسيدات . ونظر باحتقار للرجال .. وأخذ القوم يتكلمون عنه وعن قوامه وملبسه ، فقالت مدام ليمادون **- وهى الخبيرة بالضباط (!) -** انه لابأس به ، وأسفت على أنه ليس فرنسيا ، لانه لو كان كذلك لأصبح ضابطا جميلا من ضباط فرقة الفرسان .

***

وانصرفوا الى حجراتهم .. ثم نزلوا فى الصباح التالى وقلوبهم مثقلة ، وقد تجنب النسوة « بول دى سويف » ، فلم يوجهن اليها كلمة واحدة .

وفى تلك الأثناء ، دقت أجراس الكنيسة ايذانا بتنصير طفل . وكانت لبول دى سويف طفلة عند مرضعة قروية من (ايفوتو) ، فلقيت فكرة ذلك الطفل - الذى يستعدون لتنصيره - عطفا شديدا لديها ، وودت أن ترى حفلة العماد فى الكنيسة ، فذهبت اليها .

وما أسرع ما نظر القوم بعضهم الى بعض بعد ذهابها ، وقاربوا من مجالسهم ، واتفقت كلمتهم على أن يحزموا أمرهم على عزم ما ، فرأى لوازو أن يقترحوا على الضابط **أن يبقى لديه بول دى سويف ما شاءت رغبته فيها ، ويأذن للباقين بالسفر !**

وفعلا كلفوا صاحب الفندق بأداء هذه المهمة . فذهب . ولكنه ما لبث أن عاد قائلا أن الضابط أبى أن يخاطبه فى الأمر ، وقال أنه يمنعهم جميعا من السفر ما لم تتحقق رغبته .

فانفجرت عند ذلك مدام لوازو قائلة : « اننا لا نريد أن نمكث هنا حتى نموت . **وما دامت تلك صنعة هذه الفتاة الحقيرة ومهنتها التى تحترفها مع الناس جميعا ، بلا تفريق، فليس لها حق فى الامتناع عن هذا دون ذاك** .. وانتم تعلمون جميعا أنها كانت فى (روان) زرعا حلالا لكل الخلق .. حتى الحوذية والمتسولين . ثم تجىء اليوم ـ هذه الفاجرة ـ وتدعى العفاف ؟!.. اننى أرى هذا الضابط قد أتم الله عليه أدبه ، فلله ولا شك زمن طويل ، حرم فيه النساء . **وها نحن ثلاث سيدات كان يمكنه أن يفضل احدانا على تلك الفتاة ، ولكنه قنع بها احتراما للسيدات المتزوجات !..** ففكروا فى الأمر . انه السيد هنا ، وما عليه الا أن يقول أنا أريد ، ليأخذنا عنوة بقوة جنوده ! »

واقشعرت السيدات الاخريات .. **ولمعت عينا مدام ليمادون ، وقد تخيلت الضابط يغتصبها** . واجتمع الرجال ـ بعد أن كانوا يتباحثون متفرقين ـ واقترح لوازو أن يسلموا تلك الفتاة موثقة اليدين الى الأعداء . ولكن الكونت ـ وهو سليل ثلاثة أجداد كلهم نبلاء ـ لم يوافق على هذا الرأى ، وارتأى من جانبه استعمال المهارة والحيلة ، بدل العنف ، قائلا : « ان علينا أن نجعلها تنهى الأمر طائعة ! ». وجلس الجميع يتآمرون .

والتصقت النساء كل منهن بالأخرى ، واشترك الجميع فى المناقشة. وراح كل يدلى برأيه .. وكانت النساء ـ خلال ذلك ـ يلقين مقذع الكلم وأبعده عن الحياء، بلهجة ظريفة وتعبيرات

مقبولة ، فلو أن غريبا دخل فى محادثتهن ، لما وعى شيئا مما كن يقلن !.. وكان الكونت يقول الفاحش من الكلام ، ولكن بمهارة تجعل القوم يبتسمون . وقد انتهى الجميع الى الاقتناع بالرأى الذى أبدته مدام لوازو ، وهو أنه « **مادامت هذه صنعتها مع كل الناس بلا تفريق ، فلا حق لها فى أن تمتنع عن هذا دون ذاك** » . أما الحسناء ، مدام ليمادون ، فكانت ترى انها — لو كانت فى مكان هذه الفتاة — لقبلت هذا الضابط الوسيم بلا جدال !

***

وهكذا راح كل منهم يستعد بفكرته وخطته ، وكأنهم يتاهبون لمهاجمة قلعة محاصرة . وتذرع الجميع بما كانوا يملكون من حيلة ودهاء للايقاع بالفتاة حين رجوعها .. حتى اذا دخلت عليهم بعد قليل ، صمتوا جميعا ، وخيم السكون على القاعة فى انتظار الموقعة القادمة ، ثم مالبثت الكونتة — وهى أمهر النسوة — ان قطعت حبل الصمت ، قائلة لها : « أكانت حفلة التنصير سارة ؟ »

وكانت بول دى سويف قد ظلت متأثرة بما رأت ، فقصت عليهم كل شيء ، ثم قالت : « انه لعمل طيب أن يصلى الانسان لربه احيانا ! »

واجتمعت النساء حولها ، ورحن يلاطفنها ليكتسبن ثقتها .. حتى اذا جاء وقت الغداء ، جلس الجميع حول المائدة ، وبداوا الحديث متكلمين عن الشرف ومعناه . وراحوا يضربون له الامثلة التاريخية ، بادئين بقصة كليوباترا ، وكيف امكنها بمهارتها النسائية ان تقهر اعظم القادة وتخضعهم لها .. ثم سردوا كل قصص **النساء اللاتى تغلبن على فاتحي بلادهن ، متخذات من اجسادهن سلاحا**

للقتال وسبيلا الي الحكم ، ومتذرعات بحسنهن وفتنتهن الي الانة القلوب الفليظة ، وبث الرحمة في النفوس القاسية .. وكم من شريفة ضحت بعفافها على مذبح الوطنية والاخلاص !

وكانت الراهبتان ــ خلال ذلك ــ صامتتين ، غارقتين فى أفكارهما .. في حين كانت « بول دي سويف » واجمة ، مسبلة العينين ، لا تنطق حرفا . وقد تركوها ــ طوال فترة بعد الظهر ــ تمعن الفكر والرأى . ولكنهم بدلا من ان يدعوها بالسيدة ــ كما كانوا يفعلون من قبل ــ بدأوا يقولون لها : « ياآنسة! » ، وكأنما أرادوا ان ينزلوها درجة من درجات الاحترام الذي رفعوها من قبل اليه ، وان يفهموها مركزها بينهم .

***

وما ان بدأ العشاء ، حتى دخل صاحب الفندق وكرر عبارته التىالقاها بالامس ، قائلا بصوتمرتفع : «أنالضابط الالمانى يسأل المدموازيل اليزابيث روسيه ، أما زالت مصرة على رأيها الاخير ؟ »

فأجابت بول دى سويف فى جفاء : « نعم ياسيدى ، اننى لم أغير رأيى »

فأسقط فى يد القوم ، وفاه لوازو بكلمات قاسية ..وراح كل منهم يبحث عن مثال جديد يضربه لبول دى سويف .

ولكن الكونتة رأت ان تجىء الفتاة من ناحية الدين ، فسألت كبرى الراهبتين عما فى تاريخ القديسين من جلائل الاعمال التى تعد فىنظر الناس جرائم كبرى ، ولكن الكنيسة اعتبرتها مغفورة لهم ، لانهم أتوها فى سبيل المجد السماوى ، أو فى سبيل سعادة الاجيال القادمة . وكان القوم يحسبون

الراهبة حيية خفرة ، ولكنها ما لبثت ان اندفعت فى القول بجرأة وجسارة ، وراحت تؤكد صحة هذا القول ، ساردة قصص ذبح « ابراهيم » لابنه « اسحق » ، وتضحية « استير » بشرفها لاسعاد شعبها .. **وختمت قولها بأنه ما من عمل شائن يستوجب غضب الله ، اذا كانت نتيجته محمودة مستحبة .**

وتعلقت الكونتة بكلام هذه الشريكة ، التى ما كانت تنتظر مساعدتها ،وسألتها قائلة : « اذن فأنت ترين يا أختاه أن الله يقبل كل الاعمال ، ويغفر كل الخطايا ، اذا كانت الغاية فى ذاتها فاضلة ؟ » .. فأجابتها الراهبة قائلة : « ومن يشك فى ذلك ياسيدتى ؟ .. أى عمل يستوجب اللوم ، خليق بأن يستوجب المدح اذا كان الباعث عليه شريفا ! »

ثم راحت تقص كيف أنها مستدعاة هى ورفيقتها للعناية بمرضى الحرب فى (الهافر) ، حيث مئات من الجنود مصابون بالجدرى ،وانها تتألم لاولئك المرضى الذين يموتون على مهل ، بينما هى محجوزة هنا بارادة ذلك الضابط الالمانى ، وربما كان فى استطاعتها ان تنقذ الكثيرين ، لاسيما انها ماهرة فى معالجة الجدرى على الخصوص ، لانها طالما اعتنت بالمصابين بهذا الداء فى حرب القرم ، وفى النمسا وايطاليا .

***

ولم ينطق احد بعدها بحرف ، اذ كان تأثير كلامها كبيرا .. حتى اذا انتهى العشاء ، صعدوا جميعا الى حجراتهم .. ولم يبارحوها فى الصباح التالى ، الا بعد ان علا النهار ، وارتفعت الشمس . فتناولوا أفطارهم فى هدوء ، وتركوا

للبذور التى بذروها بالامس الوقت الكافى لتنمو وتثمر .. فى نفس الغانية العاصية ! !

وبعد الظهر ، اقترحت الكونتة ان يمضوا للنزهة . فتناول الكونت — كما كان متفقا عليه بينهم — ذراع بول دى سويف ، وسار معها فى مؤخرة الجميع ، وأخذيحادثها بلهجته الرقيقة ، ويدعوها بأبنته العزيزة ، متنزلا من سامى مقامه الاجتماعى وشريف محتده . ثم مالبث أن طرق الموضوع دفعة واحدة ، قائلا لها : « والآن ياعزيزتى ، هل يرضيك أن نبقى هنا الى ماشاء الله معرضين لكل ما قد يحدث من مواقع حربية ، ومخاطر خفيه ؟ .. **وهل تفضلين ذلك على أن تأتى عملا عاديا طالما أتيته فى ماضى حياتك ، مثل كل امرأة من بنات حواء ؟ »**

فلم تجب الفتاة . ولكنه ما فتىء يقنعها ويغويها ، وقد جاء لها من طريق اللين والرقة ، ثم من طريق العقل والحكمة ، ثم من طريق العواطف والمشاعر .. وعرف كيف يبقى — طول هذا الحديث — حافظا لادبه ولباقته ، اذ كان رقيق الحاشية لطيف المعشر .. وراح يردد لها انهم سيبقون مدى حياتهم حافظين يدها شاكرين صنيعها .

الا أن « بول دى سويف » بقيت صامتة ، حتى اذا رجعوا الى الفندق ، صعدت الى حجرتها .. ولم تظهر بعد ذلك . فلما جاء ميعاد العشاء ، انتظروها على غير طائل . وما لبث صاحب الفندق أن أقبل — أخيرا — وقال: « ان مدموازيل روسيه متعبة قليلا ، ويمكنكم تناول العشاء بدونها »

فرفع الجميع اليه أبصارهم .. واقترب منه الكونت وسأله بصوت منخفض : « هل قضى الامر ؟ » .. فأجابه : « نعم »

ومن قبيل الأدب ، صمت الكونت ولم يقل شيئا لرفاقه، الا أنه أفهمهم الواقع بأشارة من رأسه . فتنهدوا جميعا تنهد من أزيح عن صدره عبء ثقيل ، وتملكتهم نشوة السرور ،فصاح لوازو: «أننى أقدم لكم جميعا الشمبانيا !». وما لبث أن أقبل صاحب الفندق حاملا أربع زجاجات منها ، فشربوا ، وطربوا ، وعلا الحديث ، وعم الحبور ، ورفع « لوازو » يده الى أعلا وصاح يقول : «سكوتا ! » .. فسكت الجميع . **ورفع عينيه الى سقف الغرفة ، وأرهف أذنيه ، ثم قال : «اطمئنوا ، فكل شىء يسير حسب المرام!»**

فانفجروا جميعا ضاحكين . وراحت النساء يشرن الى مايجرى من الأمر بمهارة فى القول .. ورفع لوازو قدحا من الشمبانيا فى يده ،قائلا : «اشربوا نخب أطلاق سراحنا!». فوقفوا جميعا ، وصفقوا له ..حتى الراهبتان اجابتا رجاء السيدات ، وجلستا تشربان مع القوم .. وعندما انتهوا من حفلهم البهيج ، قاموا وصعدوا الى حجراتهم . وقالت مدام لوازو لزوجها : **« ألم تلاحظ كيف كان ضحك مدام ليمادون مغتصبا طول الوقت ، اذ كانت الغيرة تنهش صدرها ؟ ..** فأنك لتعلم أن النساء يستوى لديهن الفرنسى والألمانى ، ما دام يرتدى الثوب العسكرى ! » .

***

وفى الصباح التالى ، أشرقت شمس الشتاء على الثلج فازداد لمعانا ، وشدت الخيل الى العربة ، ووقفت تنتظر عند باب الفندق .

وأعد القوم — وهم مغتبطون — عدتهم من الطعام لرحلتهم ، ولم يبق الا «بول دى سويف» ،فظلوا ينتظرونها حتى جاءت أخيرا ، وهى مضطربة تعلوها حمرة الخجل .

وتقدمت — فى استحياء — من رفاقها الذين اداروا عنها وجوههم ، كأنهم لم يروها . وأخذ الكونت بذراع امرأته بعيدا عنها ، فوقفت الفتاة مذهولة .. ثم استجمعت مابقى لها من قوة ، ومرت أمام مدام ليمادون محيية اياها بصوت منخفض ، فردت **هذه تحيتها بأيماءة من رأسها ، وهى ترمقها بنظرة المرأة الطاهرة التى لحقتها أهانة من عاهرة !..** وابتعد الجميع عنها كأنها تحمل بين ثيابها عدوى مرض خبيث ، واندفعوا نحو العربة .

وجاءت هى منفردة — فى المؤخرة — فاتخذت مجلسها فى سكون .

وبدأت العربة رحلتها ، وقد لزموا الصمت فى أول الأمر .. ولم تكن « بول دى سويف » تجرؤ على أن ترفع عينيها ، وهى شاعرة أنها مهينة محتقرة من الجميع . والتفتت الكونتة الى مدام ليمادون ، وقطعت حبل الصمت بالحديث معها .. وراح مسيو ليمادون يحادث الكونت . كما راح لوازو يلعب الورق مع زوجته .. وتناولت الراهبتان مسبحتيهما الطويلتين ، وأخذتا تتمتمان بالصلاة ، وهما ماتفتآن ترسمان علامة الصليب من وقت لآخر .. فى حين كان كورنيديه يفكر فى سكون .

***

وبعد مسيرة ساعتين ، جمع لوازو ورق اللعب ، وقال أنه يشعر بالجوع . فأخذت زوجته ربطة ملفوفة ، وأخرجت من ثناياها لحما مشويا ، وقطعت منه شرائح قدمتها له ، وراحت تأكل معه .

وقالت الكونتة : « ولم لا نأكل نحن أيضا ؟ » .. فوافقها الجميع،وأخرجوا ما أعدوه من طعام .. وحذت الراهبتان

حذوهم . **أما ((بول دى سويف)) ، فقد نسيت – فى عجلتها وارتباكها – أن تجيء معها بشيء من الطعام ، فجلست تنظر الى القوم وهم يأكلون غير مبالين بها .**

ومن ثم راحت ترتعد من فرط الغضب والغيظ من أولئك الأوغاد ، الذين ضحوا بها على مذبح منفعتهم ، ثم نبذوها أخيرا كما ينبذ الشيء الشائن المحتقر . ورأت أنها – من فرط تأثرها – تكاد أن تبكى ، فحاولت حبس دموعها ، وأجهدت نفسها فى ذلك ، كما يفعل الطفل ، ولكن دموعها غلبتها وترقرقت فى مآقيها ، ثم انحدرت على خديها بطيئة متمهلة ، ثم تتابعت مسرعة مسترسلة ..

وبقيت هكذا تبكى طول الوقت ، ولا أحد يلتفت اليها أو يعيرها أى اهتمام !

حوافز الحياة

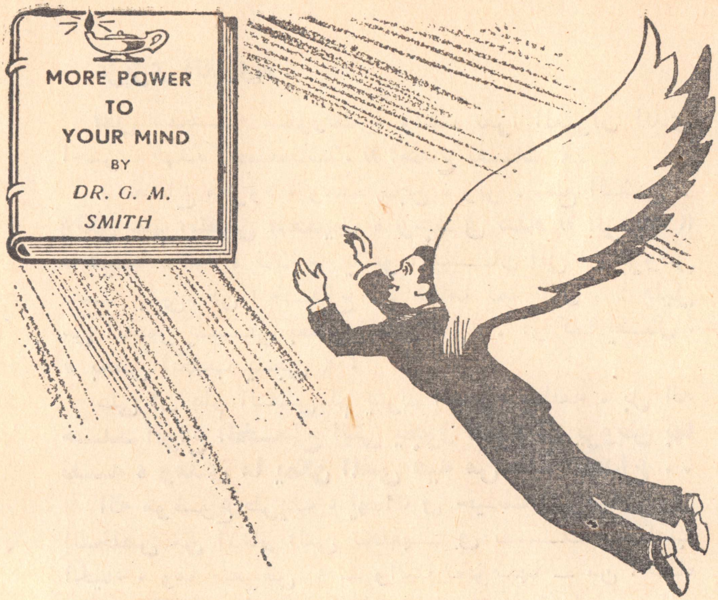


النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ..
فى هذا الباب قدمت لك فى الاعداد الماضية ، الكتب الآتيه على التوالى :

• كيف تصارح اولادك وبناتك بالحقائق الجنسية • طريق السعادة الزوجية • مركب النقص • كيف تقهر الخجل • كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة • فنون الحياة : فن الحب ، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الزعامة ، فن التفكير ، فن الاستمتاع بالشيخوخة • غزو السعادة • التحليل النفسى • الجنس الآخر • ابواب الحب المغلقة • فن الحب (لاوفيد) • الانتصار على الخوف • كيف تتجنب متاعب الاعصاب المرهقة • تاريخ الغزل • كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة • السلوك الجنسى عند الرجل • السلوك الجنسى عند المرأة • لاتخنق عقلك •

واليوم .. اقدم لك كتابا جديدا



علم النفس في خدمتك :

اخضع نفسك !

أطرف الأسرار التي يكشف عنها علم النفس ،
في ذلك العالم العجيب المتواري في أعماقك !

للعالم النفسي الأمريكي :
الدكتور ميلتون سميث

تلخيص : زكي شنوده المحامي

عزيزى القارىء :

لعل الدهشه ساورتك ، وانت تقرأ العنوان الذى اخترناه لهده الصفحات : **((اخدع نفسك))** !

فالخداع مكروه ، ومستهجن ، ولو .. مع النفس .
ولكن علم النفس الحديث ، وجد فى هذه ((الرذيله)) ناحيه نافعة ، فاذا به يدعو الانسان الى ان يروض نفسه بشىء من الخداع .. تماما كما يقال : ((قليل من الخمر يشفى بعض العلل)) ! .. او كما يقال : ((بعض الكذب ينجى)) !

على ان علم النفس لم يترك الدعوة مطلقة ، بل انه **حدد أنواع الخداع التى يجوز للمرء ان يروض بها نفسه ، ومدى ما يمكن المضى فيه من هذا الخداع ..**

انه موضوع طريف ، يهمك فى حياتك اليومية ، وفى التخلص من الآثار التى تخلفها فى نفسك متاعب الحياة ، وما تتعرض له — وأنت تخوضها — من اخطاء وزلات قد تجعلك ناقما على نفسك ، لائما لها ، الى درجة تعوق سيرك فى الطريق ..

فاقرأ ، لتتعلم كيف .. **تخدع نفسك !**

لماذا تميل النفس الى الخداع ؟

• **تلعب** النفس دورا هاما فى تكوين شخصياتنا ، وفى حياة كل منا . فهى معنا حيثما ذهبنا ، ولكنها — على الرغم من اتساع مدى نشاطها وقوة أثرها علينا — شديدة الخوف والحذر من النقد واللوم ، فهى من ثم تزاول كل عملها فى الخفاء !

وانها لحقيقة عجيبة ، أن القناع الذى تتوارى النفس خلفه ، **كثيرا ما يكون أثره فى أخفاء النفس عن ذاتها ، اشد من أثره فى اخفائها عن أعين الآخرين !** .. ولكن الواقع أن هذا ادعى الى تحقيق غرضها ، لأنها أكثر خوفا وحذرا من النقد واللوم اللذين يوجههما اليها الضمير الداخلى ، منها مما يوجه اليها من الخارج . وذلك بسبب الرغبة الكامنة فى أعماق النفس .. الرغبة فى أن تنظر الى ذاتها على الدوام بعين التقدير والأعتبار . لأن احترام النفس عامل جوهرى فى الأنسان ، وبغيره تتشوه النفس ، وتفقد اعتبارها . ومن ثم فهى تلجأ الى بعض الحيل كى تحافظ على اتزانها ، بل على ذات كيانها ، وتدفع عن نفسها الهجمات التى تشن عليها ، سواء من الداخل أو من الخارج . وهذا فى الغالب يتضمن قدرا كبيرا من خداع النفس .

لذلك ، فلا مغالاة فى القول بأن **الكبرياء ليست سوى وسيلة تضلل عقل الانسان وتعميه عما يرتكبه من آثام !** .. لأننا اذا استخدمنا عقولنا فى نفاذ وفى عمق ، أمكننا أن نكشف الحيل ووسائل الخداع التى تنتهجها النفس لتحتفظ بما تحب من تقدير لذاتها . وأهم هذه الحيل ، كثيرا ما يسمونها ب « العمليات الدفاعية » .

عندما تلتمس النفس لأعمالها مبررات

• **ومن** أكثر الحيل شيوعا ، تلك التى نحاول بها أن نحمى أنفسنا من النقد واللوم ، وهى المسماة ب « المطابقة العقلية » . الا أن هذه التسمية ليست دقيقة ، لأن الوسيلة هنا فى الواقع ليست عقلية ، **وانما هى مبنية على العاطفة أكثر منها على العقل** . ولذلك فالأفضل أن نسميها عملية «التماس العذر للنفس» ، أو «التبرير» ، لأنها ـ فى جوهرها

ـ تهدف لأنكار وقوع الخطأ وتبريره ، أكثر مما تهدف الى اعطاء الأسباب الحقيقية المعقولة لأفعالنا وأقوالنا .

وقديما ، حاول آدم وهو فى جنة عدن أن ينتحل العذر لخطيئته التى خالف بها ربه ـ حين أكل التفاحة ـ بأن قال أن حواء هى التى قضمتها القضمة الأولى . ومنذ ذلك الحين ، ما فتئت هذه السابقة تتكرر كل يوم ، حتى امتد اثرها الى كل نواحى الحياة .. **فالتلميذة فى المدرسة تهمل استذكار دروس الجبر ، لالشىء الا لأن «المعلم دميم الخلقة» !**

.. والفاشل فى حبه لايلبث ـ بعد الصدمة الأولى القاسية ـ أن يقول معزيا نفسه : « لاضير فى ذلك ، فأنها لم تكن رائعة الجمال .. ثم أن طبعها لايحتمل .. وعلى أى حال ، فمنذا الذى يود ان يربط نفسه بسليطة اللسان هذه طول عمره ؟ »

وبدون هذه القدرة على التبرير ، لايتسنى للميل الى الارجاء والمماطلة ان يغدو أكبر سارق للوقت ، فأنت لا تفتأ تقول عندما تفكر فى ارجاء أى عمل : «ان غدا لناظره قريب .. وهذا العمل ـ على أى حال ـ يحتاج الى فكر صاف وعقلية رائقة لا تتأتى الا بالنوم هذه الليلة .. وربما يحسن أن أقوم بنزهة أولا ، ومن ثم يمكننى أن أبدأ العمل فى نشاط ! » . وهكذا تظل تؤجل العمل يوما بعد يوم .

سر الميل الى نسيان الذكريات البغيضة

• **والتبريرات** لا تأتينا من الداخل دائما ، وأنما يأتينا بعضها من الخارج فى صورة رأى جماعى . وهذه فى العادة تخدم أغراضا عنصرية أو وطنية أو طبقية . بيد أن هذه الأغراض الجماعية كثيرا ما تكون مدعمة بكثير من الضجة وقليل من الفهم .

وفيما عدا هذه التبريرات المفروضة فرضا من الخارج ، بالدعاية والتلقين ، نجد ان التبريرات ليست ـ فى جملتها ـ سوى اكاذيب لا نصيب لها من الصحة . فهى ـ فى الغالب ـ صور محرفة لبواعثنا الحقيقية ، الناجمة عن مشاهداتنا وذكرياتنا . فأن فينا نزعة عامة لأن نرى بأجلى وضوح ، ونتذكر بقدر ما فى الأمكان ، تلك الأشياء التى ترتاح النفس اليها اكثر من غيرها . ومن ثم فاننا نتجاهل بقدر استطاعتنا ما يوجه الينا من لوم أو ذم ، ونهمل أو ننسى ذلك الجانب البغيض من مشاهداتنا وذكرياتنا .

والتبرير فى هذه الحالة ليس وسيلة معيبة ، لأنه انما يهدف الى غاية نافعة . فلو اننا عجزنا عن التخلص من أخطائنا الصغيرة وهفواتنا الطفيفة ، فقد يثقل على كاهلنا حمل الشعور المتراكم بالذنب والقصور ، حتى نغدو عاجزين حتما عن استخدام قدرتنا الايجابية . فى حين أننا بتغافلنا عن تلك الأمور التافهة ، نتيح لانفسنا فسحة من الوقت ونستبقى الدافع للعمل . فهذا النوع من التغافل انما هو حل من الحلول الضرورية للحياة .

انما يكمن الخطر فى أن تواتر اللجوء لعملية التبرير والأغراق فيها ، قد يجعل هذه العملية ـ على مرور الوقت ـ آلية . ومن ثم تصدر عن غير ادراك ولاشعور . فبعد أن تكون على بينة من أننا انما نخادع انفسنا ، اذا بنا ـ بعد طول الممارسة ـ نفقد الشعور غير المباشر بخطئنا ، فيقول الواحد منا : «نعم . لقد أخطأت . ولكن من الذى لايخطىء ؟» . وبذلك نقنع انفسنا بأن الخطأ لم يقع أبدا . وينقلب أنكارنا الى حقيقة نتبجح بها .

معاهدة معونة متبادلة .. لاصلاح النفس !

• **ويميل** المرضى بالأعصاب – أكثر من غيرهم – الى اللجوء لعملية التبرير هذه ، وغيرها من صور خداع النفس . وذلك لأن حاجتهم الى حماية النفس أكبر .

وأكثر أمثلة خداع النفس بروزا هى **الغرور** الذى يتسلط على ذى العقل المختل ، فيسد حاجته الملحة للدفاع عن نفسه .

والوسيلة التى نتجنب بها وقوعنا ضحية تبريراتنا ، هى **أن نعمد الى توجيه اللوم الى أنفسنا وتوبيخها من آن لآخر .** فان كنا عاجزين عن وعظ أنفسنا بالمزيج المناسب من الصرامة والرفق ، فقد يكون من الوسائل المفيدة لنا أن نعقد مع أحد أصدقائنا أو أفراد عائلتنا **«معاهدة معونة متبادلة»**، يكون غرضها « التعاون على التحكم فى عمليات التبرير ، وانتهاج وسائل دفاعية أخرى » .

وقد يكون ضروريا لمعالجة بعض صور الخداع ، السكوت عنها بضعة أيام ، حتى يتاح للنفس المتورطة فيها أن تنتفع بالأثر الملطف الذى يحدثه مرور الوقت . كما يحسن فحص **« الباعث »** الى التبرير ، أو الحاجة الدافعة اليه . ونحن على ثقة من أنه فى كل مرة تفشل النفس فى تحقيق حاجة من حاجاتها ، يتولد الدافع الى خداع النفس !

الذكريات المكبوتة لا تنمحى

• **ومن** أقوى الحيل أثرا ، تلك التى تستخدمها نفوسنا أحيانا للدفاع عن نفسها ضد كل ما يهدد احترام الذات ، وهى وسيلة **« الكبت »** .

والكبت – فى صورته المتطرفة – يدخل فى باب الوسائل

المقصود بها تجنب التبرير ، ولكنه ـ فى صورته المعتدلة ـ قد يساعد على التبرير وغيره من وسائل الدفاع .

ونحن حين نكبت ذكرى حادث ما ، فانها لا تنمحى نهائيا، وانما تكمن فى الوعى .. وقد تبقى هنالك وعرة المنال ، فلا تطفو فى الذاكرة لسنوات عديدة ، أو ربما للأبد . والكبت التام ـ لو حدث ـ يكون نتيجة صدمة عنيفة ، تتضمن ـ فى العادة ـ مشهدا مخزيا ، أو على الاقل تهديدا شديدا لاحترامنا لأنفسنا . وليست كل الصدمات ـ لحسن الحظ ـ تستتبع الكبت . **ولكن لو أدى الكبت الى تحصن الذكرى فى أعماق الوعى ، بحيث تصبح صعبة المنال ، فان الكبت فى هذه الحالة يغدو ذا عواقب خطيرة** ، اذ يؤثر تأثيرا ملحوظا على عواطفنا وتصرفاتنا زمنا طويلا .

ومثال ذلك ان القلق الذى يبدو ان لا علة له ، والذى لا يرتبط فى الظاهر بأى موضوع أو حادث ، قد يكون منبعثا ـ أحيانا ـ عن .. الكبت ! وبعض الاحلام المتكررة الوقوع قد ترجع الى الكبت كذلك . فالمصاب بالاضطراب العصبى، الذى يندفع الى الشجار بغير وعى ، ثم لا يتذكر ـ بعد أن يرتد اليه وعيه ـ حوادث المعركة التى خاضها ، يظل عرضة لاحلام الشجار بصورة عنيفة مزعجة .

اكتشاف الشىء المكبوت ليس سهلا

• **ومع** أن «فرويد» اعتبر «الكبت» هو الوسيلة الاولى والأساسية من وسائل الدفاع ، الا أنه ليس من السهل أن نقره على هذا الراى . لأن الدليل على وجود « الكبت » لا يمكن التوصل اليه مباشرة . واذا كانت عملية التبرير تحدث كل يوم ، ويمكننا ملاحظتها مباشرة وقت حدوثها ،

الا أننا لا نملك ملاحظة الكبت الا بعد حدوث الحادث بفترة من الزمن .. طالت أو قصرت !

ومن الأدلة على ان الكبت ذو أثر على الشخص ، اننا نتذكر الحوادث التى تحصنت وراء الوعى زمنا طويلا ، فيتبع ذلك تغيير تام فى سلوكنا .. ومن الادلة كذلك ، مقاومة الشخص للتذكر ، حين تقترب حوادث معينة من لوحة ذاكرته !

وثمة حالتان من حالات التنويم المغناطيسى مرتا بى فى عيادتى ، توضحان هذا المعنى ، وسأشرحهما بشىء من الاسهاب .

الكبت قد يؤدي الى النسيان والخوف

• **الحالة الأولى :** شاب فى التاسعة عشرة من عمره ، طالب فى الجامعة ، خارق الذكاء ، يسمى « لارى » .. كان يشكو من أمرين . أولهما **عجزه عن تذكر أى شىء عن والده الذى مات وهو فى الخامسة من عمره ..** والأمر الثانى ، خوف فظيع يفاجئه كلما وجد وحده فى الظلام . وهذه الحالة مشوقة بوجه خاص ، لأن الحوادث الهامة وقعت فيها قبل أن يبلغ صاحبها العام الثالث من عمره بقليل . **وقد عرفنا من مصادر أخرى انوالده قضى السنتين الاخيرتين منحياته فى مستشفى الامراض العقلية !**

وخلال جلسة التنويم المغناطيسي الاولى ، تذكر «لارى» غرفة كان يلعب فيها وهو صغير ، وقد وصفها بتفصيل كبير : فالسقف موشى بالزخارف ، وثمة مقعد عالى الظهر ، وزهور فى النافذة ، وباب كبير يؤدي الى ردهة طويلة مظلمة .. وبينما هو يلعب على الارض ، رأى رجلا أطول قامة من أمه ، ذا شعر أسود ، وأنف معقوف ، ونظارات على عينيه ، وقد

استطاع ان يراه فى أوضاع مختلفة : فهو تارة ينحنى على الطفل ــ الذى هو « لارى » ــ فى سريره ، وتارة أخرى يلعب معه ، بلعبة على شكل قرد يتسلق حبلا ، وهكذا .. **فلما أيقظنا لارى من نومه ، كان مقتنعا بان هذا هو والده ، وقد شعر بالارتياح ، كما لو كان قد تحرر من قوة معادية لا يدركها !**

وخلال جلسة التنويم الثانية ، تذكر حادثة يبدو من المعقول اعتبارها السبب فى خوفه العنيف من الظلام . فقد رأى نفسه فى الحجرة ــ التى وصفها فى الجلسة الأولى ــ يعبث بلعبة على شكل قطار . وكان والده جالسا على المقعد العالى الظهر ، يقرأ صحيفة فى يده . وفجأة ، ألقى والده الصحيفة فى عنف ، وانتصب واقفا وقد التوت عضلات وجهه بصورة مفزعة ، ثم راح يضرب الارض بقدمه ، ويصرخ ، ويلوح بذراعيه . فزحف الطفل على قدميه وراح يجرى فى الردهة باحثا عن أمه .

وفى منتصف الردهة المظلمة ، استدار فرأى ذلك الرجل ــ الذى يعرفه على انه أبوه ، والذى أصبح الآن مختلفا جدا ــ يتقدم نحوه وعيناه جاحظتان ..

واذ كان لارى يصف هذا المشهد ، تقلصت عضلاته ، وطفر العرق من جبهته ، وقد تولاه رعب عظيم ، حتى أنه لم يستطع تناول الطعام الا بعد انتهاء الجلسة بثلاث أو أربع ساعات . وفى المساء ، ازداد خوفه من الظلام الى درجة مروعة .

شىء اكثر من الألم والخوف ..

• **ومن ثم** فقد اضحت الرابطة بين الظلام والخوف واضحة الآن . وبقى أن نعرف : **لماذا كبت هذا الحادث ؟**

ما من شك فى أن الطفل الصغير صدم صدمة قاسية ، ومن

الطبيعي أن يصد عن التفكير فى الحوادث المؤلمة . ولكن هذه الحالة تتضمن أكثر من مجرد الصد عن تذكر الماضي المؤلم ، كما يدل على ذلك فقدان الذاكرة التام الذى أصاب الشاب بالنسبة لوالده . **فان الباعث للكبت العميق يكون عادة أكثر من الألم والخوف .**

وهذا ما اتضح خلال الجلسة الثالثة والاخيرة ، ففى هذه الجلسة . تذكر « لارى » حادثة جديدة ، تدلنا على هذا الباعث . ففى اليوم التالى للمطاردة الرهيبة فى الردهة المظلمة ، جاءت والدة الطفل اليه فى غرفة نومه ، ووقفت تشير بأصبعها اشارة حازمة ، تنطوى على تهديد ، وهى تقول له : « اياك أن تقول لأحد على الاطلاق !.. أفاهم أنت ؟ » .

ولا شك أن رد الفعل الذى أصاب الام حين رأت أول أعراض جنون زوجها ، كان أمرا طبيعيا ومفهوما . ولكن ما فعلته مع الطفل كان بعيدا عن العقل ، **اذ أدت بتصرفها هذا الى أن أدخلت شعورا بالخزى فى عقله ، وقطعت السبيل عليه للتعبير عن خوفه .**

ولا يمكننا أن نحدد الوقت الذى حدث فيه الكبت . ولكن يبدو أنه حدث فى الحال ، ثم استمر حين أصرت الأم على رفض الاجابة على أسئلة « لارى » عن والده ، أو اطلاعه على صورته . وحتى خلال فترة العلاج ، التزمت الأم الصمت التام عندما كان ابنها يسأل عن أبيه !

ان هذه الحالة تتضمن أننا كشفت عنه الذكريات المفصلة لصاحبها ـ تحت تأثير التنويم المغناطيسى ـ عن والده والمشاهد الخاصة به .. وقد كانت هذه الذكريات بعيدة عن متناوله عدة سنوات .. **وقد اتضح أنه بعد ثلاثة أسابيع من تذكره المسلك المفزع لأبيه ، اختفى من نفسه الخوف من الظلام اختفاء تاما .** وأعقب ذلك تحسن كبير فى المظهر العام

للشاب ، بعد أن تخلص من الاحساس بما فيه من شذوذ . فأصبح يتمتع بقدر اكبر من الثقة بالنفس والرضاء عن الحياة . ويبدو أن الكبت ما كان ليحدث — فى هذه الحالة — لو أن الام عالجت الموقف بقدر أكبر من الحكمة والعقل .

الخوف من مواجهة الجمهور

• **وفى الحالة الثانية :** نرى مثالا طريفا لمقاومة تذكر موضوع مكبوت . وتلك حالة شابة فى العشرين من عمرها تدعى « أميلى » ، كانت تعانى من حالة رعب من مدة لا تتذكرها ، فتقول : « اننى احس — حين اريد الكلام أمام جمع من الناس — **كان يدا حقيقية تضغط على حلقى ، فلا يصدر عنه صوت ! »**

وقد تتبعنا هذا الرعب الشديد من الكلام أمام الناس ، الى حادث وقع منذ ثلاثة عشر عاما ، بعد بضعة أشهر من أنتقال أميلى من فيينا الى بولندا . ورغم انها كانت فى السابعة من عمرها ، وقد وصلت حديثا من بلد أجنبى ، فانها أبدت رغبتها فى ألقاء مقطوعة من الشعر أمام عدد كبير من الحاضرين فى قاعة الأحتفالات بالمدرسة .

وحين ذكرت هذه الحقيقة لأول مرة — فى حالة اليقظة — انكرت أنها خافت . ولكن — تحت التنويم المغناطيسى — اتضح أنها غير صادقة . فخلال الجلسة الأولى ، تذكرت مضمون الشعر فى جملته ، ولكنها عجزت عن أن تتذكر كلمة واحدة من كلماته البولندية ، **بل عجزت عن أن تتذكر العنوان الذى استطاعت ان تتذكره فى حالة اليقظة ، قبل أسبوعين .**

ويدل هذا على أنها تحت التنويم المغناطيسى تذكرت — بالتفصيل الكافى — الحادثة المزعجة التى تسبب لها التزام

حالة المقاومة ازاء الجانب المؤلم من الذكرى .. لأنها – فى غيرها من المناطق – كانت اثناء التنويم المغناطيسى ، اقدر على التذكر منها فى اليقظة . اذ تذكرت – مثلا – الأسماء البولندية لمعلماتها ، ومربيتها ، والكلب الصغير الذى كان فى الحديقة .. ووصفت أشكالهم وصفا دقيقا .

تتذكر الشعر وهى نائمة ..

• **وفى الجلسة التالية** – بعد مرور أسبوع – كانت مقاومة التذكر لا يمكن أن تخطئها الملاحظة . فحين سئلت « أميلى » – فى حالة اليقظة ، قبل تنويمها – لم تستطع أن تتذكر معنى الشعر الذى ألقته ، أو أن تتذكر أين ألقته ، وكل ما كانت تعرفه أنها تدربت على القائه مع مربيتها ، فى حجرة المدرسة البولندية .

فلما وقعت تحت التنويم المغناطيسى ، راحت فى مبدأ الأمر تقرأ الشعر قائلة : « ماريانا ذات الشعر الذهبى ، تعقصه من الخلف بدبوسين يشبهان قوسين . أنها .. » . **ثم مالبثت أن صاحت قائلة : « أنا لا اريد أن اقول الشعر .. الناس كثيرون .. أريد أن انساه ! »**

وحين استيقظت من هذه الجلسة قالت : « لقد راح قلبى يدق بسرعة عظيمة .. ان كل شىء قد غلفه الظلام » .

وفى الجلسة الأخيرة ، استمرت مقاومة التذكر ، ولكنها بدأت تتراخى فى النهاية شيئا ما . فلما قلنا لأميلى – اثناء خضوعها للتنويم – أنها الآن مرة أخرى فى حجرة الدرس البولندية ، وسألناها عما ترى ، بدأت تصف الحجرة فى شىء من التفصيل . ثم قالت : « المعلمة الجميلة .. لقد كانت تعلمنا الأدب البولندى ، والهجاء ، والقواعد ، والمعانى

.. وفى الأسبوعين الأخيرين ، علمتنا الشعر .. كتبته على السبورة ونقلناه » .

حديث مع .. نائمة !

• **ثم** دار الحوار التالى بينى وبين اميلى ، التى كانت تقاوم عملية التذكر مقاومة ظاهرة :

ـ هل يمكنك رؤية الشعر على السبورة ؟

ـ كلا . لقد كان هذا منذ أسبوعين .

ـ ومن الذى يقرأ الشعر ؟

ـ تقرأه الفتاة التى تلينى بمقعدين ، ثم الفتاة التى تجلس أمامى مباشرة .

ـ هل قرأت أنت الشعر ؟

ـ كلا .. لقد دق الجرس قبل ان يحين دورى .

ـ وماذا حدث فى اليوم التالى ؟

ـ كنت الاولى فى القراءة .. وكنت فى قراءته مسرعة .

ـ وهل قرأته فى مكان آخر ؟

ـ كان المفروض أن أقرأه فى قاعة الحفلات .

ـ أنت الآن فى قاعة الحفلات . فما الذى يحدث ؟

ـ ارتقيت المسرح .. وكان هناك سكون . هذا كل ما يمكنننى أن أتذكره .

ـ هل تتذكرين نزولك عن المسرح ؟

ـ كلا .. الشىء التالى الذى اتذكره هو اننى استقللت سيارة ، مع أبى وأمى ، الى المنزل .

ـ أنت الآن فى السيارة .. فماذا يحدث ؟

وعند هذا اندمجت أميلى أكثر من ذى قبل ، فى حالة الطفولة التى تتذكرها . اذ بدأت تتكلم بالألمانية ، وهى اللغة التى يحرص عليها والدها فى المنزل . واستطردت تقول :

ـ قال والدى : « لقد كنت فخورا بك .. لقد أبدى الحاضرون اعجابهم ! » .. وفى البيت شربت شيئا ، ولكننى لم أنم نوما هادئا ، فقد حلمت بالناس فى كل مكان .

انتهى عهد الخوف !

• **وهكذا** ، فما من شك فى أن ألقاء الشعر أمام عدد كبير من الحاضرين ، كان تجربة بالغة الأزعاج للطفلة الصغيرة الأجنبية .. ولقد كانت فى طفولتها الأولى تجارب أخرى مزعجة ، تتضمن ألما جسديا وخوفا .. وهى عمليات جراحية فى الأذن واللوزتين ، أجريت لها بين سن الرابعة والسادسة . ولكنها لم تكبت ذكرى هذه التجارب ، بل كان يمكنها فى حالة اليقظة أن تتذكر حتى درجة حرارتها فى ذلك الحين ، ولون الأغطية التى كانت ملفوفة فيها حين فحصت أذنيها بالأشعة السينية .. **فلماذا لم تكبت هذه التجارب ، بينما كبتت حادث ألقاء الشعر كبتا واضحا ؟**

يحتمل أنها كانت مرهقة بوطأة الشعور بالرهبة ، حين ألقت الشعر أمام الجمهور .. كما يحتمل أنها كانت خائفة من أن يسخر الجمهور من لهجتها الأجنبية .

ومع أنه لم يمكن فحص حالة أميلى فحصا كاملا ، لأنها تزوجت بعد الجلسة الأخيرة بقليل ، فان ثمة دليلا على أن نبش الموضوع المكبوت كان وسيلة مدهشة للشفاء .. فقد عانت قلقا شديدا من فكرة ظهورها أمام جمع كبير من الناس فى حفلة زواجها ، بيد أنها قالت بعد الحفلة : « لم أكن خائفة على الأطلاق .. ولم يحدث من قبل ـ كما حدث فى هذه المرة ـ أن خفت عنى وطأة الشعور بالخوف ، أو الاضطراب العصبى » .

الكبت الجزئى حماية من الشعور بالاستياء

• ولابد هنا من كلمة أحتياط بصدد السرعة التى استجابت فيها هاتان الحالتان للتنويم المغناطيسى : **فليس التنويم المغناطيسى فى الحقيقة علاجا سريعا لكل الأضطرابات العصبية .**

ولنلاحظ - أولا - أنه ليس ثمة سوى عدد محدود من الناس يمكن تنويمهم تنويما مغناطيسيا .. وثانيا ، أن الأضطراب العاطفى - فى حالتى لارى واميلى - كان محصورا فى نواح معينة ، يمكن تتبعها وردها الى حوادث الطفولة البعيدة .

فالأكثر وقوعا أن يكون الأضطراب ناشئا عن حالة طويلة الأمد ، لازمت الشخص فى المحيط - الذى يعيش فيه - زمنا ما ، كافتقاد الحنان فى فترة الطفولة . أما الحالتان السالفتان فقد قدمناهما ، لا لأنهما نموذجان لما هو شائع ، ولكن لأنهما توضحان بجلاء وسيلة الكبت .

وكون الكبت التام يمكن اكتشافه فى بعض الأشخاص ، **ليس معناه أن هذا يمكن حدوثه بالنسبة للجميع كما يزعم بعض أصحاب النظريات** .. لأن أغلب الناس يعجزون عن الكبت التام ، ولا يكون الكبت لديهم الا جزئيا . والكبت الجزئى - كالتبريرات التى نجربها عن غير وعى - قد يكون ذا أثر نافع فى العلاج النفسانى . فهو يحمينا من حدة الشعور بالأستياء من نقائصنا ، ومن ثم يتيح لصفاتنا النافعة فرصة العمل المنتج . غير أن الخطر كل الخطر فى أساءة استعمال وسيلة الكبت ، بالاغراق فيها .

ترويض النفس على تقبل الماضى

• **وهناك** ـ بالتاكيد ـ مواقف يكون الضغط العاطفى فيها عنيفا جدا لدرجة أن انعدام الوعى التام فيها يغدو وسيلة نافعة فى العلاج . **فالأغماء ـ مثلا ـ رد فعل تقدمه الطبيعة للحماية من الألم الحاد والخوف الشديد** . الا أنه لوحدث أن استمرت الحالة مدة من الزمن فقد تنقلب الفائدة الى ضرر . فقد تظهر علائم القلق أو غيره من أعراض التوتر . وبقدر ما يطول أمد الكبت ، يصعب اكتشاف العلة ، ومن ثم يغدو الشفاء مستبعدا .

ولكن ، لو أمكن نبش الموضوع المكبوت ، واخراجه من مكمنه ، سهل التوصل الى العلاج ، وذلك باستعراض الماضى من نقطة مأمونة .. كما حدث فى حالتى لارى وأميلى .

واستعادة الماضى وحدها ، لاتؤدى الا الى أيقاظ الأثر المخيف أو المشين الذى وقع فى الأصل . وانما اعادة الفحص وأعادة التقدير هى التى تعين على أجراء عملية العلاج الأيجابى . فعلى النفس أن تتعلم أن تقبل ماضيها ـ الذى كثيرا ما يتبين انه ليس سيئا بالصورة التى كان يبدو بها فى حينه ـ وأن تصحح وضعه فى سجل حياتها .

وأحيانا ، لا يمكن استعادة الماضى الا بمجهود كبير ، لأن أثر الأحداث فيه قد يكون عنيفا جدا . وحينئذ ينبغى استدراج الموضوع المكبوت بالتدريج ، حتى تتهيأ له قوة الأحتمال اللازمة .

صداقة الطفل لوالديه وقاية له !

• **لذلك** فأن علاج الكبت الشديد يجب أن يكون بواسطة أختصاصى محنك . الا أن فى استطاعتنا جميعا أن نلعب

دورا فى ايقاف أثر الكبت ، أو تخفيف خطر تفاقم هذا الاثر فى أطفالنا ، **بأن نعمل على الا نربى فى نفوسهم شعورا قبيحا بالخزى والأثم** . كما يمكننا أن نشجعهم على أن يشركونا فى متاعبهم ، وأن يناقشوا معنا مشاكلهم فى حرية وفى غير حرج . فلو أننا توصلنا لأن نجعل أطفالنا يعاملوننا كأصدقاء ، فأن ذلك يتيح لنا علاج الأمر فى سهولة ويسر .

ويمكننا — بهذا الصدد — أن نضع ثلاثة مبادىء قائمة على أصول « التكتيكات » العسكرية ، وهى : **الأنسحاب الأستراتيجى ، والأنتفاع بالحلفاء ، والهجوم باعتباره أفضل وسائل الدفاع** . فحيثما يكون العدو متفوقا فى قطاع ما ، يتحتم الانسحاب مؤقتا . ولكننا — بعد أن نستنفد الوقت الكافى لأراحة قواتنا والأتصال بحلفائنا — يجب أن نعاود الهجوم ، قبل أن يغدو الأنسحاب هو السبيل الوحيد أمامنا .

ومن المهم الحصول على الراحة الجسدية قبل أن نتصدى لمعالجة مشاكلنا الكبرى . ويحسن كثيرا أن نشرك معنا فى ذلك صديقا مخلصا . فأن الكبت يقل خطره اذا نحن أفضينا الى الغير بموضوعه بمجرد وقوعه ، ولو لم يكن لدى الغير مقترحات تساعدنا .

عندما نلقى اخطاءنا على الغير ..

• واذا نحن نجحنا فى منع النفس عن اللجوء للكبت التام كوسيلة للدفاع عن ذاتها ، ونجحنا فى كشف ما تلجأ اليه من عمليات التبرير ، فليس معنى ذلك أنها تبقى مجردة من وسائل الدفاع ، بل يبقى لها من هذه الوسائل الكثير ، كالحيلة الدفاعية المعروفة بعملية « **القاء وزر الخطأ على الغير** » ، أو « **التملص** » . ومؤداه أننا نضيق ببعض أخطائنا

وبواعثنا - التى لا نتمكن من قبولها فى نطاق كياننا - فنطرحها على الآخرين ، وندينهم بها .. ومن ثم ، ننكر وجودها فى أنفسنا ، وتستشعر الراحة والرضا فى أن نتهم بها غيرنا. وهذا هو المعنى الذى يتضمنه قول لاروشسفوكو : **«لو أننا كنا بلا أخطاء ، لما وجدنا مسرة فى النظر الى أخطاء الآخرين» .**

وفى هذا النوع من التحايل ، الذى ننسب فيه بواعثنا الى الآخرين ، يمكن أن تكون هذه البواعث سيئة أو حسنة. الا أن « فرويد » يطلق هذا الأصطلاح على حالة نسبة البواعث السيئة وحدها للغير . وبهذا المعنى وحده يمكن الكلام عن هذه الوسيلة باعتبارها عملية دفاعية ، لأن قليلين منا أولئك الذين يحدوهم باعث قوى للدفاع عن انفسهم ضد الشعور بما يتحلون به من صفات عالية .

وفى استطاعتنا أن نجد أمثلة لعملية التملص هذه فى كل مكان : فاذا اصطدم أثنان من المشاة - عند مفترق الطرق - صاح كل منهما فى الآخر قائلا : «ألا تنظر أمامك ؟» . واذا اصطدمت سيارتان ، أتهم سائق كل منهما الآخر بالطيش والنزق .. والزوج الذى ما يفتأ يتشاجر مع زوجته على الدوام لعدم تنظيفها البيت ، نادرا ما يعنى هو بتنظيف ادراج مكتبه . والكاتب المتمسك بالاخلاق ، الذى يحرر المقالات فى ذم الكتب الأباحية ، لا يلبث هو أن يقتنى هذه الكتب ويقرأها فى الخفاء !

عملية « التملص » تحتاج الى تنظيم ..

• **والتملص** البسيط ، مثله مثل التبرير المعتدل والكبت الجزئى . فهو يخدم غرضا نافعا ، اذ يحفظنا من الأنهيار تحت عبء الشعور الدائم بنقائصنا وصفاتنا المشينة . الا

ان الخطر يكمن - هنا كذلك - فى الأفراط فى اللجوء الى هذه الحيلة الوقائية . **فان التغلغل المستمر من أخطائنا ونقائصنا لايلبث - بعد وقت ما - أن يفصل فصلا تاما بيننا وبين الحقيقة .**

ففى مستشفيات الأمراض العقلية ، نجد أن التملص المستمر من الأخطاء والعيوب يساهم بقدر كبير فى تكوين جنون الأضطهاد . واذا كان التملص يصل الى أقصى مداه فى حالات الجنون ، فليس معنى ذلك أنه هو - وغيره من العمليات الدفاعية - سبب الجنون . وأنما هذه العمليات فى الغالب من أعراضه ، وليست من أسبابه .

ومع ذلك ينبغى أن نحذر من الأفراط فى اللجوء الى هذه الحيل التى تهدف الى خداع النفس . **فماذا يمكن أن نتخذ من الاحتياطات لنمنع عمليات التملص من ان تفصلنا عن الحقيقة ؟**

ان الوسيلة المؤكدة لذلك هى - كما فى حالة التبرير - المعرفة التامة لما نفعله ، والسبب الذى نفعله من أجله . ومما يفيدنا فى ذلك ، ان نستعرض - من وقت لآخر - عمليات التملص التى نلجأ اليها . فاذا وجدنا أنفسنا عاجزين عن الوقوف عند حد معين فى اللجوء الى التملص ، قد يفيدنا - هنا مرة أخرى - ان نلوذ ب **« معاهدة المعونة المتبادلة »** مع بعض الاصدقاء العقلاء ، لتنظيم عملية الدفاع .

والى جانب الاهتمام بحماية انفسنا من الافراط فى اللجوء الى التملص ، **علينا كذلك مسئولية حماية اطفالنا من تكوين عادة ممارسة هذا النوع من خداع النفس .** ومن ثم فان علينا - فى معاملتنا للاطفال - ان نعتنى عناية خاصة بالامتناع عن التساهل من جهة ، وعن التأديب القاسى من جهة أخرى .

الهرب الى المستقبل مفيد !

• **بقيت** حيلة أخرى تستعملها النفس لحماية ذاتها من رياح الحقيقة القاسية ، **وتلك هى اللجوء الى أحلام اليقظة، او الخيال ، أو التخيل ..** على أن هذه الحيلة تختلف — من وجهة ما — عن التبرير والكبت والتملص . فهذه العمليات الثلاث جميعا سلبية أو دفاعية ، أما التخيل فيمكن أن يكون ايجابيا كذلك ، اذ يمكن ان يساعد — ليس فقط على منع تحقير الذات — وانما كذلك على تعظيمها ، وعلى الارتفاع بها فوق المستوى الذى يوحيه الشعور بالنقص او بالخطأ .

ويحتمل أن يكون الخيال أكثر فائدة من تلك الحيل السلبية الثلاث، الا أنه قد يكون فى بعض الحالات بليغ الضرر كالكبت العميق .

(ويمكن أن تجد مزيدا من التفصيل ، فى ملخص كتاب « لا تخنق عقلك » الذى نشر فى العدد ٩٤ من « كتابى »)

والخيال يتراوح بين الخيال الساذج للاطفال ، والخيال المبدع للفنان والكاتب والمهندس والعالم ، والأوهام الهستيرية للمريض بالشيزوفرانيا أو الفصام العقلى .

والعاب الأطفال التخيلية لا ضرر فى معظمها . وكذلك لا ضرر فى احلام اليقظة الرومانتيكية ، التى تشغل الكبار اذا لم تصل بهم الى اعتزال عالم الحقيقة .

وقد تكون للخيال قيمة علاجية : فالحلم بالمراعى الخضراء يلهمنا الصبر على الكدح فى أرض الحاضر القاحلة . كما قد يفيد الخيال فى التخفيف من أثر العداوة ، فتلميذ المدرسة الذى القى به طفل أكبر منه على الارض ، يجد الراحة فى ان يتخيل نفسه جاثما على صدر غريمه فى انتصار ، والمعجبون يحيطون به ويحيونه .. وهذا الخيال يخفف من توتر أعصابه .

والخيال – على العموم – يساعدنا على الهروب من ملل الحياة ، اذا لم يصل الى أبعد من زخرفة آمال للمستقبل . **ولا شك فى أن الهرب الى المستقبل اقل خطرا من الانسحاب الى الماضى** . لأن الماضى لا يمكن اعادته ، أما المستقبل فقد تتحقق بعض آمالنا فيه !

المسألة .. مسألة توازن !

• **والخطر** فى كل هذه الميول الهروبية ، أن تغدو عوضا دائما عن الحقيقة ، وخاصة اذا كان الضغط الناجم عن خيبة آمالنا قويا ومستمرا . **فحينئذ يزداد تعرض الشخص لأن يكون خياليا وغير واقعى** . وهذا ما يحدث – أكثر ما يحدث – بين المسجونين . وغالبا ما تكون أحلام المحكوم عليهم بمدد قصيرة ، قريبة الى الواقع والامكان ، فى حين تنصرف أحلام المحكوم عليهم بمدد طويلة الى تخيل قيام ثورة عالمية ، أو كارثة تؤدى الى انتهاء العالم .. ويظهرون هم فى هذه الاحلام فى دور الزعماء أو المنقذين .

انها على الدوام مسألة توازن : فاذا استعمل المرء هذه الوسيلة باعتدال ، أمكن أن تسدى اليه معونة كبرى .. واذا هو – على العكس – أفرط فيها ، قد تصيبه بضرر عظيم . ان من المقبول ان ننظر الى الحقيقة خلال منظار وردى . **ولكننا لا نكسب شيئا من أن نعمى انفسنا . فلكى نتمتع بالحياة وننتفع بها فى ذات الوقت ، ينبغى ان نتعلم كيف نسيطر على هذه الحيل التى تخدع النفس ، لنحميها ولنتحكم فيها .**

حدث ذات يوم



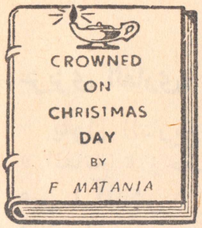
من قصص التاريخ ومآسيه

عزيزى القارىء :

فى هـذا البـاب ، قرأت معى فى الاعـداد السابقة : فضيحة ((كارولين)) ملكة انجلترا ، عشيقة نابليون (مارى فالفسكا) ، امرأة وملك (مـدام دى مانتنون) ، ((تيبـريوس)) قيصر رومـا ، لوكريشيـا بورجيـا ، نيرون : الطاغية السفاح ، نيدى هاملتون ، مـارى انطـوانيت ، مصرع القيصرية فى روسيـا ، بولين بونابرت ـ ملكة الغـواية ـ مأساة ملك بافاريا ، غرام الاميرة اليزابيث تيودور ، ديزيريه ـ خطيبة نابليون ـ اوليمبيا والدة الاسكندر ، بيرينيـس ملكة فلسطين ، تيودورا الراقصة الامبراطورة ، ((سانوهى)) او (المصرى) ، كريستين ملكة السـويد ، رمسيس الثـانى ، مرجريت فهمى ، مـارى ستيوارت ، والمرأة التى كان لابتسـامتها فضل توحيـد فرنسا ..

واليوم ، اقدم لك حلقة جديدة من سلسلة ((قصص الحب فى سياسة العالم)) ..

الحب في سياسة العالم:



معاً.. إلى المجد!

قصة الفتاة التي دفعت شاباً جسوراً إلى
غزو إنجلترا، وتغيير تاريخ التاج الانجليزي

للمؤرخ الفنان: "ف. ماتانيا"



تلخيص: محمد بدر الدين خليل

عزيزى القارىء :

يقول التاريخ السياسى والعسكرى ، ان وليم « الفاتح » زحف من ساحل (نورماندى) الفرنسى ، عبر (المانش) ، ففزا الجزيرة البريطانية . واعتلى عرشها ..

ولكن تاريخ الحب يقول ان « وليم » لم يكن **« فاتحا »** ، بل كان **« منتقما »** .. أما « الفاتح » الحقيقى ، أو – على الاصح – المحفز الذى دفع الى فتح انجلترا ، فكان .. **امرأة !! .. فتاة حسناء ، كانت من اجمل بنات قومها ، و – فى الوقت ذاته – من أكثرهن كبرياء ، واعتزازا بنفسها ، واختيالا بقدرها .. تلك هى « ماتيلدا » أميرة (الفلاندر) !**

لم تقرأ عنها ؟ .. ولا سمعت ؟! .. انها أنانية الرجال ، فان الذين كتبوا التاريخ رجال فى الفالب ..

ولكن « ماتيلدا » الحسناء المزهوة ، هى صاحبة الفضل فى فتح انجلترا ، وفى تفيير تاريخ هذه الرقعة الصفيرة من الارض ، الطافية على سطح الماء ، غير بعيد من الساحل الشمالى الفربى لأوربا ..

مهلا !! .. ان الوقائع ثابتة ، ولكنها متوارية بين سطور التاريخ .. واليك هى ، كما كتبها المؤرخ والفنان المعاصر **« ف . ماتانيا »** .. وما أحسبك بحاجة الى ان أقدم لك « ماتانيا » ، فقد سبق ان حملت اليك صفحات « كتابى » روائع من انتاج قلمه وريشته معا ..

اميران تنعقد عليهما آمال شعبين

• **التاريخ** ملىء بأولئك الحكام الذين كان طموحهم يصبو الى الغزو والفتح لا لشيء الا من أجل المجد والغنائم .. اما الدوق « وليم » ، فكان حافزه الاول الى الفتح هو : **الحب .. والانتقام !**

ففى اواسط القرن الحادى عشر من الميلاد ، كانت مدينتا (ليل) و (روان) الفرنسيتان – اللتان تبعد كل منهما عن الاخرى بحوالى ٢٣٠ كيلو مترا – عاصمتين لامارتين من الامارات الضئيلة التى كانت فرنسا قد انقسمت اليها بعد وحدة .. **اما (ليل) ، فكانت عاصمة (الفلاندر) .. واما (روان) ، فكانت عاصمة (نورماندى) ..**

وكانت الامارتان من أكثر الامارات والدويلات تألقا وازدهارا .. وفى كل منهما ، كانت ثمة شخصية متألقة ، تتطلع اليها انظار شعبها فى رجاء واكبار : **((ماتيلدا)) ، ابنة ((بلدين)) الخامس ، فى (الفلاندر) .. والدوق ((وليم))، ابن ((روبرت)) الثالث ، فى (نورماندى) .**

ولم يكن أحد من الشابين قد لمح الآخر .. ومع ذلك ، فان فكرة زواجهما كانت أملا داعب رؤوس شعبيهما ، وسرى الى تفكير « بلدوين » و « وليم » نفسه ، فارتاحت نفس كل منهما اليه وحبذه ..

اهانة تمس جرحا حساسا

• **واذ** نضجت الفكرة ، وانقلبت الى اجراءات واتصالات، بغية تحقيقها ، كانت « ماتيلدا » هى العقبة الوحيدة التى قامت فى سبيلها .. وكانت عقبة كؤودا حقا . فقد رفضت « ماتيلدا » الزواج من الدوق « وليم » رفضا باتا ، **اذ كانت**

عواطفها تميل نحو شاب من نبلاء « السكسون » يدعى « بريترى » .. كان أشقر ، وسيما ، جمع كل مايميز فارس الاحلام الذى يراود خيال كل عذراء ..

ومع ان « بريترى » لم يبادل « ماتيلدا » عاطفتها ، الا ان الاميرة الشابة ظلت متعلقة به ، متشبثة بالأمل فى انه لن يلبث — على مر الأيام — ان يميل اليها ، أو ينصاع لسحرها .. ومن ثم آثرت الصبر . ورفضت الزواج من « وليم » حين جاء رسول من لديه يطلب يدها .

ولكن الامر لم يقتصر على الرفض .. فقد كان « وليم » خير بعل يرتجى للأميرة الشابة ، ومن ثم دهش جميع المحيطين بها لهذا الرفض .. حتى الذين كانوا يعرفون قصة حبها، لم يتمالكوا انفسهم من العجب لاعراضها عن أمير شاب ، شجاع ، محبوب من قومه ، فى سبيل نبيل مغمور ، لم يقدر عواطفها حق قدرها ، ولم يبادلها الحب !

وكان من الطبيعى ان يلح عليها أولئك القوم بالنصح واللوم .. أن أباها — الذى لم يكن يرى من هو أجدر بها من « وليم » ، والذى كان يقدر عواقب ارتباط امارته بامارة نورماندى — راح يراجعها ويناقشها .. وفى ضيقها بهذه الالحاحات ، نطقت « ماتيلدا » بعبارات ما كانت تليق بأميرة مثلها !

سر مولد الدوق وليم

• وكانت عباراتها قاسية ، فى الحق .. بل انها انطوت على اهانات مقذعة للدوق وليم بالذات !

فقد كان « وليم » ثمرة علاقة غير شرعية بين «روبرت» وفتاة فقيرة من الشعب ، كانت ابنة صباغ .. وفى غمرة الفقر ، كثيرا ما يزيغ البصر جمال أخاذ .. وقد كان جمال

« آرليتا » ــ وهو اسم ابنة الصباغ ــ من هذا النوع الذى يبهر البصر والقلب معا ..

وما كان فى وسع « روبرت » ان يتزوج من ابنة الصباغ، لمكانته ، ولتقاليد منصبه كأمير وحاكم ..

وما كان فى طوقه ــ كذلك ــ ان يتنكر للعاطفة التى استبدت بفؤاده ، وان يغمض عينيه عن بريق الفتنة ..

وفى الخفاء ، راح يروى قلبه وجسده .. ويرضى عواطفه ونزواته .. **فاذا علاقته بآرليتا الحسناء تثمر ولدا يظفر بمظاهر الصحة ، وينعم بكثير من الجمال** .. وكما استولت « آرليتا » على قلبه وعقله ، استولى « وليم » الصغير على كل العواطف الفريزية التى تحركها الطبيعة فى الانسان حين يرى نتاجا منه ، يشهد بفحولته ، ويحمل ــ فى الوقت ذاته ــ رسالة بقاء ذريته وسلالته ..

ومن ثم فان ((روبرت)) لم يهمل ((وليم)) ، بل عنى به، ونشأه على كل ما ينشأ عليه الأمراء ، ودربه على كل فنون الحكم والحرب ، حتى صار ــ فى النهاية ــ فارسا لا يبارى .. ثم اورثه امارته .

وكانت هذه القصة « الحساسة » ، هى التى تناولها لسان « ماتيلدا » عندما استبد بها الغيظ والضيق !

انتقام فريد فى نوعه

• **وعاد** رسول « وليم » الى (روان) يحمل اليه نبأ الرفض ، متلطفا أيما تلطف فى ابلاغه .. ولكن الامير الشاب لم يلبث ان سمع بالعبارات التى انطلق بها لسان «ماتيلدا»، فاذا بكرامته تثور ،واذا غضبه ينطلق جامحا لايعرف حدودا .. اذ ان النظام والثقافة اللذين نشأ عليهما ، لم يفلحا فى



الاميرة ((ماتيلدا))
بريشة ((ماتانيا))

أن يمحوا تماما ــ من نفسه ــ غرائز الفطرة التى بثتها الطبيعة فى هذه النفس ..

وما كان لينتظر منه ــ وهو الامير الشاب ، ذو المكانة ــ أن يبتلع اهانة كهذه تمس منبته ، وتخز أدق نقطة حساسة فى حياته ..

وصحيح أنه ــ عندما اكتسب خبرة الحياة وعرك أحداثها ــ تعلم كيف يعالج هذه العقدة النفسية بفلسفة عملية ، الا أنه عند ماتلقى اهانة الاميرة الرعناء ، كان بعد شابا ، تجرى الدماء حامية متدافعة فى عروقه ، فتثير انفعالاته فى حدة لا قبل له بمقاومتها ..

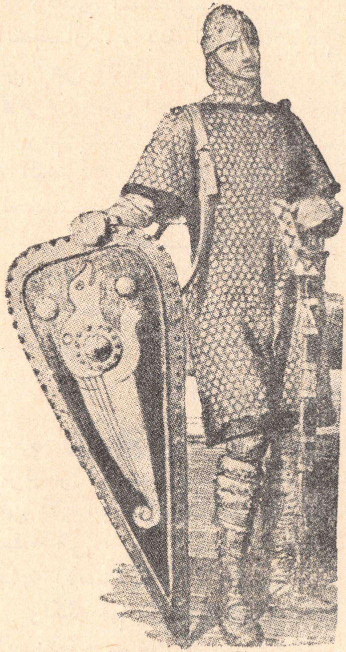
وامتدت يده ــ بمجرد سماعه الاهانة ــ الى سيفه ..ثم تخاذلت بالسيف ثانية، حين تذكر ان الاهانة انبعثت من فتاة ، وليس من شيم الفارس الاصيل ان يحارب انثى .. **ولكن مجرد كونها**

انثى ، كان يضاعف من وقدة الاهانة ولذعها .. وما كان ((وليم)) ليهنأ بالحياة مالم ينتقم !

وراح يفكر .. وأمعن فى التفكير طويلا ، ثم أقدم على عمل خلد فى التاريخ بحروف لا تمحى .. اذ ان أحدا لم يسبقه ، ولا تبعه أحد الى مثل هذا العمل !

ستة من الفرسان الغرباء

• **وفى** ذات يوم ، أقبل على مشارف مدينة (ليل) ستة من الفرسان ، أوقفوا جيادهم أمام ((خان)) من تلك البيوت التى كانت معدة فى ذلك الحين ليستريح فيها المسافرون ، فيطعموا ويشربوا ، ريثما تستريح خيولهم ويغسل الطين والغبار عن سيقانها .. أو يناموا اذا كان الليل قد هبط ، ولاسبيل الى استئناف الرحيل .



الدوق وليم
كما رسمه ((ماتانيا))

ونادى المسافرون صاحب «الخان» ، متظاهرين بأنهم من التجار .. بيد أن مظاهرهم وحركاتهم ، كانت تشى بأنهم من أهل النظام والحرب .. **ونم مظهر أصغرهم ، ولهجته الآمرة ، على أنه رئيسهم ، وصاحب الكلمة فيهم .**

ولم يشأ الستة أن يستريحوا ، بعد أن سألوا صاحب « الخان » عن قصر أمير (الفلاندر) ، واستدرجوه الى الحديث عن الحراسة المفروضة على القصر .. بل سرعان ماقفزوا الى صهوات خيلهم ، وانطلقوا خلال الطرق الضيقة ، حتى اذا اجتازوا ساحة السوق ، عرجوا على شارع ضيق على مقربة من القصر .. فترجل أربعة منهم ، بينما واصل الاثنان الآخران تقدمهما .

« أنا وليم .. ابن الحرام » !

• **واذ بلغ** الاثنان القصر ، ترجل احدهما ــ وكان الرئيس الشاب ــ وأسلم زمام جواده الى زميله ، وتقدم الى الابواب ، فتبادل حديثا موجزا مع الحراس ، بادروا بعده الى اخلاء سبيله ، فدلف الى فناء القصر ، ومنه الى قاعة الاستقبال .

ولكنه لم يتوقف هناك ، بل نحى الخدم ــ الذين خفوا لاستقباله ــ عن طريقه ، ومضى قدما .. وقبل ان يفيقوا من دهشتهم ، وينتبهوا الى مافى تصرف هذا الغريب من تحد ، كان الشاب قد بلغ البهو المفضى الى الجناح الخاص بالأميرة « ماتيلدا » .. وفى سرعة عجيبة ، وصل الى بابها ، ففتحه !

وعرفها لأول وهلة ، اذ كان قد حفظ أوصافها عن ظهر قلب ، ورسم لها فى خياله صورة على هدى هذه الاوصاف .. وبهره جمالها ، ولكن صوتها رده الى ماكان قد اعتزمه ، حين صاحت فيه :

ـ من انت ؟ .. وكيف تدخل دون اذن ؟ وماذا تريد ؟

ووقف لحظة ، ثم سار ببطء متعمد ، مقتربا منها .. وببطء أكثر ، قال وقد وقف امامها :

ـ انا وليم ، دوق نورماندى .. وليم ، **ابن الحرام !**

وانطلقت الكلمتان الاخيرتان من بين اسنانه التى انطبقت فى نوبة من الغيظ العارم .

تصمد للصاعقة فى ثبات

• **وقبل** ان تفيق « ماتيلدا » من ذهولها ، امتدت يده كالبرق الخاطف ، فأمسكت بضفيرتى الشعر اللتين كانتا مهدلتين على صدرها .

ولف « وليم » الضفيرتين حول قبضته التى التصقت بذقنها ، ثم شد الفتاة اليه ، حتى ان انفاسه الساخنة راحت تلفح وجهها ..

وقال وهو يهزها كأنها قصبة من الغاب : « اتحسبين ان لك ان تهينينى دون حساب لمجرد انك امراة ؟ .. اتحسبين ان قرابة اسرتك لملك فرنسا ، ولأسرات مالكة اخرى ، تحميك من نقمتى ، فأقدمت على ان تلدغينى بلسانك السام ، ايتها الافعى ! »

وكان يضغط على كل كلمة ، وهو يهز الفتاة بعنف ، غير مشفق عليها .. **واذ تمالكت « ماتيلدا » نفسها ـ بعد ان انجابت المفاجاة ـ راحت تناضل لكى تتخلص من قبضته ، وقد منعتها كبرياؤها من البكاء أو الصراخ** .. ولكن قبضة « وليم » كانت من حديد ، لاسبيل للفكاك منها .. وكانت الوصيفات ـ اللاتى تصادف وجودهن عند مقدمه ـ من الدهشة بحيث سمرن فى اماكنهن ، ومن الرعب بحيث شلت عقولهن ، وجمدت السنتهن فى افواههن .. كانت

المفاجأة غريبة ، وغير مرتقبة ، وسريعة كوميض الصاعقة المنقضة !

عجز عن اجبارها على الركوع

• **ودفع** « وليم » غريمته ، محاولا ان يجبرها على ان تركع امامه ، وهو يصيح مرعدا : «اركعى ، واطلبى الصفح ! .. اركعى ! » . **ولكن كبرياء ((ماتيلدا)) كان أشد وأصلب مما توقع ، فقد أبت الفتاة ان تنصاع لأمره فى عناد .** وأخذت تتلوى فى حركات قوية ، محاولة ان تقاوم دفعات يده ، وان تتجنب الركوع الذى يريدها عليه .. وهى – طيلة كل هذا – صامتة ، بادية الشمم والاعتداد .

ويئس « وليم » – أخيرا – من اجبار هذه العنيدة ، فلم يلبث ان طوح بها الى الارض ، غير مشفق ، ثم غادر الغرفة بخطى واسعة ، ثابتة .. وقد انزاح عن صدره جبل ثقيل .. جبل الغيظ من اجتراء الفتاة ، والغضب لكرامته ولمنبته !

ولم يكن أحد قد فطن الى ماحدث فى مخدع الاميرة ، سوى وصيفاتها .. وقبل ان يتخلصن من جمود الذعر ، فتدب الحياة فى اطرافهن ورؤوسهن والسنتهن .. وقبل ان يعين ما اصاب أميرتهن ، وأن تنشط عقولهن فتوحى الى حلوقهن بالصراخ – على الأقل – كان وليم «المنتقم» قد طوى البهو ، واجتاز قاعة الاجتماعات ، وبلغ الابواب الخارجية للقصر ، حيث كان زميله فى انتظاره ، ممسكا بعنان جواده ..

وقفز ((وليم)) الى ظهر الجواد ، وسرعان ما كان فى طريقه الى حيث كان الرفاق الاربعةالآخرون ، الذين كانواقد اعتلوا جيادهم – هم الآخرون – بمجرد ان سمعوا وقع الحوافر ..

ومرق الفرسان الستة مغادرين المدينة ، وكأنهم أطياف لاتمت الى عالم البشر بصلة ..

مسافر تتقاذفه المشاعر الحائرة

• **وقطعوا** نصف المسافة التى كانت تفصلهم عن حدود (نورماندى) ، قبل ان يكون احد من مطارديهم قد خف وراءهم ..

وكان « وليم » ـ فى انطلاقه ـ نهبا لطائفة من المشاعر المتضاربة .. **كان يشعر بشىء من الرضى ، اذ ادب الفتاة الرعناء بطريقة لم يجسر على انتهاجها رجل قبله .. وكان حانقا لأنها غلبته بكبريائها ، وأبت ان تركع أمامه كما كان يرجو ..** لقد تعرضت لعنف لا قبل لأنثى بأن تحتمله ، ولقد آلمها ـ ولابد ـ أشد ايلام ، ومع ذلك فانها لم تصرخ .. ولو على الرغم منها ! .. بل انها كانت على استعداد لأن تتحمل اضعاف ما تحملت ، دون ان تركع !

ولم يتمالك نفسه من ان يهتف فى سريرته : « يالها من انثى رائعة ! » .. هذه الكبرياء العارمة ، الصلبة .. وهذا الجسد القوى ، اللين ، المرن .. وتلكما العينان اللتان كانتا تصليانه سهاما حادة من الغضب والتحدى ! .. لو ان هذه الفتاة اوتيت قوة رجل وخشونته ، لكانت محاربة تأتى من البلاء مايشبه الاساطير !

وغاظه انه لم يكن يتمالك نفسه من الاعجاب بها .. وغاظه اكثر انه شعر بأن حملته التأديبية قد اخفقت لأنه عجز عن ان يجبر الفتاة على ان تجثو امامه .. **عجز عن ان ينزل بها الهوان والصغار اللذين كان يشعر انهما وحدهما الكفيلان بأن يطفئا نار الجرح الذى أصاب كرامته اذ عرضت الفتاة بمولده !**

وزاد غيظه تأججا ، انه لم يصادف أى عناء ، ولم يخض اية مخاطر ، فى سبيل الوصول الى غريمته ، كما كان يتوقع .. كان يحلم بأن تعترضه الصعاب قبل ان يصل الى مخدعها .. وكان يرجو ان يجد ـ فى خوض هذه الصعاب ـ مايشعره بعظم العمل الذى أداه للانتقام لكرامته .. ثم ، كان يرجو ان يجد أمامه ـ بعد اجتياز المخاطر ـ فتاة مذعورة ، ترتمى على قدميه ، وتصرخ فى رعب ، ثم تلتمس منه الرحمة والصفح .. فاذا به يجد ارادة صلبة وجلدا متينا ، ونظرات تفيض ازدراء ، وجسدا كأنه سيف من أجود أنواع الفولاذ ، فهو يلتوى دون أن ينكسر !

جيشان يتناوشان على الحدود

• **وهكذا** ، كان «وليم» يزداد ـ فى كل فرسخ يطويه ـ اقتناعا بأنه وجد فى «ماتيلدا» صنوا .. وجد فيها الند الذى يماثله تماما ، اللهم الا فى الجنس .. وجد فيها نصفه الآخر !

وفى تلك الاثناء ، كان نبأ ماجرى قد انتشر فى ارجاء قصر « بلدوين » ، فقامت قائمة الامارة ، وارسلت الحملات فى كل اتجاه للحاق بالمعتدى والعودة به ، حيا أو ميتا .. وعندما عادت الحملات خائبة ، لم يعرف غضب «بلدوين» حدودا !

اما « ماتيلدا » ، فقد التزمت صمتا غريبا ، غامضا ، ازاء ماجرى .. وراحت تراقب ، فى غير احتفال ، الاجراءات التى كان أبوها يتخذها للثأر ..

واوفد جيش الى حدود (نورماندى) .. وخف اليه جيش من الامارة .. ولكن الجيشين لم يلتحما ، بل كانت بعض فصائل من كل منهما تغير على حدود الآخر ، فتنهب القرى ، او تشعل النيران فى الحقول ، او تندمج فى مناوشات قصيرة مع فصائل من الجانب الآخر ..

ودامت هذه الحال فترة ، حتى اشتد توتر اعصاب جنود الفريقين ، وبدأوا يفقدون جلدهم .. **فلا هم خاضوا حربا ترضى نفوسهم والحمية التى دبت فيها ، ولا هم انصرفوا عن الحرب ..** كانوا اشبه بشخص لم يبرح به الجوع ،



ولم يشأ الفرسان ان يستريحوا ، بعد ان سألوا صاحب ((الخان)) عن قصر الامير ..

(الرسم من ريشة الفنان ماتانيا)

ولكنه سيق الى مائدة حفلت بألوان من الطعام حركت شهيته وأسالت لعابه ، ثم .. حجز عن المائدة ، فلا هو انصرف عنها ، ولا هو استطاع اليها وصولا !

مفاجأة عندما تم الصلح

• **واذ** استفحل تذمر الجنود ، لم ير المسئولون فى الامارتين بدا من وضع نهاية لهذا الموقف .. وجرت الاتصالات بين الفريقين ، فلم يلبثا ان اتفقا على ان يجتمع مندوبون عن كل منهما ، لوضع معاهدة للصلح بينهما .

وجرت الأمور سهلة..وتم وضع المعاهدة ، فلم يلبث ان وقعها الاميران وختماها بخاتميهما . ثم اجتمع المندوبون ليتبادلوا الوثائق . وما ان تم ذلك ، حتى فض أحد مندوبى (نورماندى) رسالة كان يحملها ، وطلب من الجميع ان يصغوا اليه .

ووسط الوجوم الذى ساد الجميع ـ اذ لم يكن أحد يرتقب ان يكون ثمة شىء آخر بعد تبادل الوثائق ـ شرع المندوب فى قراءة بيان من الدوق وليم النورماندى ، يعرب فيه عن **رغبته فى ان يوقع عقد صداقة دائمة بين الدويلتين، مجددا تقدمه بعرض الزواج من الاميرة ((ماتيلدا)) !**

وتلفت مندوبو كل فريق ، بعضهم الى بعض ، غير مصدقين ماسمعوا ، وكلهم يعرفون ماجرى بين الشابين ، وما كان من تواقح ((ماتيلدا)) ، ومن عنف عقاب «وليم» .. مما لم يكن يرتقب بعده سوى ان تظل العداوة بينهما ما عاشا .

وودوا ان يجدوا فى هذا العرض الجديد مادة للسرور والابتهاج ، **ولكنهم سرعان ما اوجسوا خيفة من ان يقابل بالرفض ، فيعكر هذا صفو الصلح .. وقد يودى به !**

بيد ان احدا لم يكن يملك البت فى الامر .. فلم يكن ثمة

بد من ان يحمل مندوبو (الفلاندر) بيـان الدوق وليم الى اميرهم .

هكذا الحب .. دائما !

• **وقرا** « بلدوين » البيان على ابنتـه بصوت يتهدج بانفعالات جمعت بين الغضب والانفة والتوجس.. فهو بعد لم يكن قد نسى ان « وليم » اجترأ على حرمة امارته وقصره ، وانه تجاسر على ان يعنف مع «ماتيلدا» . وقد توقع ان تثور ثائرة « ماتيلدا » ، وان يكون رفضها ـ فى هذه المرة ـ أشد فظاظة منه فى المرة السـابقة ، فتـدور حرب هوجـاء بين الامارتين ، لاتبقى ولاتذر .. ولكن ، شد ما كانت دهشتـه عندما رأى الامر يتطور الى عكس ماكان يخشى !.. **فقداشرق وجه الاميرة الحسناء ، وأجابت ، وهى تتمالك نفسها : « قل للدوق وليم ـ يا أبت ـ انه يسرنى ان اصبح زوجة له » !**

وبهت « بلدوين » .. بل انه ترنح من قوة المفـاجأة .. وقبل ان يجـد وقتا ليتمالك نفسه ، فيسأل ابنته عما اذا كانت فى كامل وعيها وقواهـا العقلية ، اذا بهـا تطوق عنقه بذراعيها ، وتنهـال عليه بالقبلات ، ثم تسـارع الى مغادرة الحجرة قبل ان يتمالك انفاسه المتهدجة !

وراح «بلدوين» يفكر فى الامر ، وهو محير البال من تصرف ابنته .. ولكنه لم يلبث ان قال فى نفسه : **« ما اشبه الحب بالمشعوذ ، الذى لايكف عن القيـام بحيل والعاب جديدة ، دون ان ينضب معينه ! »** .. ولم يجد أفضل من ان يروض نفسه على الامر الواقع . وما ان استقر على هـذا الرأى ، حتى تولاه ما يتولى الأهل من رغبة فى احـاطة ابنتهم بكل تكريم وكل ترفيـه ، اذا ما آن الأوان لتزويجهـا .. فلما عقدت اتفاقية الزواج ، وهب « بلدوين » ابنته من الارض والمال والمجوهرات ، مالا يتصوره عقل !

.. واقيمت الافراح !

• **وعينت** قلعة (أو) مكانا لعقد القران .. وكانت قلعة يعتز بها «وليم» ، اذ انه استولى عليها من الكونت « او » ـ فى تلك الفترة ـ بعد صراع عنيف ، وحصار طويل قاس .. وكان « الكونت » سجينا فى القلعة عندما سار اليها العروسان ..

وكان « وليم » اسبق العروسين الى الوصول .. وما لبثت « ماتيلدا » ان اقبلت ، يصحبها ابواها ، وحاشية من النبلاء والنبيلات .. وفى أيام قلائل تحولت القلعة من بؤرة للبؤس والجوع ، الى مكان بديع الرواء ، جميل الزينة ، متألق الاضواء ، حافل بمظاهر الثراء والرفاهية ، وبالموائد المحملة بأطايب الاطعمة .

ولقد صان المؤرخون ـ عبر الاجيال ـ الكلمات التى اجابت بها «ماتيلدا» ، عندما سألها والدها ضاحكا ، وسط الافراح الصاخبة ، عن السر فى أنها رفضت خطبة وليم ـ فى بادىء الامر ـ فى ازدراء وقحة. فقد قالت الحسناء الجريئة : **« لاننى لم اكن قد عرفته ـ اذا ذاك ـ كما اعرفه الآن .. اذ لابد ان الدوق رجل عالى الشجاعة ، موفور الجرأة ، والا ماتجاسر على ان ينفذ الى ، وان يضربنى فى قصر أبى ! »**

وكان هذا الرد أبلغ اعتذار محا الماضى ، أمام نبلاء واشراف الدولتين .. وانتشى « وليم » طربا وسعادة ، حتى انه ـ وقد ثمل بفرحته ـ أصدر عفوا عن غريمه الكونت « او » ، ورد اليه قلعته واراضيه ، فقدر الكونت كرمه وسماحته وشهامته ، وصار ـ من ذلك الحين ـ من أخلص اعوانه ، وأوفى اتباعه ..



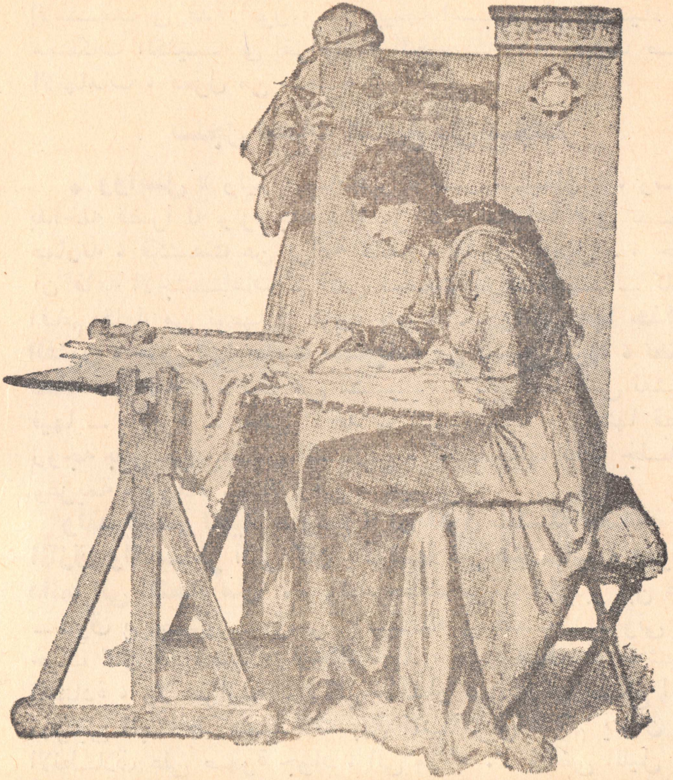
ودفع غريمته ، محاولا ان يجبرها على ان تركع امامه
(المنظر من رسم الفنان ماتانيا)

مشكلات ومؤامرات .. فى انتظار « العريس » !

• **وانتقلت** «ماتيلدا» ـ بعد افراح ومهرجانات صاخبة ـ الى مقر دوقية نورماندى ، لتحتل مقعد «دوقة» الامارة ، الذى ظل خاليا قبلها ثلاثين عاما .. فاستقبلها الشعب بحفاوة وتكريم عظيمين .

على ان كثيرا من المشكلات كان فى انتظار الدوق ، فلم تكد انفعالات الفرح تنجاب عنه ، حتى وجد ان من واجبه ان يتفرغ لمهام دويلته .. **فان (نورماندى) لم تكن يوما فى موقف اكثر حرجا من الموقف الذى كانت فيه اذ ذاك ..** كانت محوطة ـ من جميع الجهات ـ بجيران طامعين ، يصبون فى شوق الى ان يتقاسموا أرضها الخصبة . وكانت المؤامرات تحاك ضد الدوق .. حتى داخل حدوده . بل ان اسقف (روان) نفسه ناصب الدوق العداء ، وحاول بكل ما أوتى من دهاء ان يحول دون اتمام زواجه من « ماتيلدا » . **فلما آبت محاولاته بالفشل ، لم يتورع عن ان يصدر قرارا بحرمان العروسين الشابين من الكنيسة !**

وكاد «وليم» ان يجن غيظا ، فلجأ الى « البابا » ، الذى تكرم بالغاء قرار الحرمان ، على شرط .. ان يبنيا ديرا فى (كاين) ، ومستشفى للعميان ، وان يرصدا اموالا للنفقات كل من المؤسستين . وقد شرعا ـ فورا ـ فى انفاذ هذا الشرط ، فسرعان ما ارتفعت جدران دير القديس ستيفان ، فى (كاين) ..ولكن «موجيه» ـ وهو الاسقف الذى ناصبهما العداء ـ لم يكف عن مكائده ..لا ، ولا قعد « وليم » عن الانتقام منه ، فما عرف التاريخ أن أحدا خاصم « وليم » ونجا من انتقامه ! .. وسرعان ما وجهت الاتهامات الى



خذقت الأميرة فن النسيج المزين بالصور .. وقد سجلت
بعض أحداث التاريخ على سجادة لاتزال باقية ..
(من رسم الفنان ماتانيا)

الاسقف فى عدة امور ، كان بينها استخدام أشياء من ممتلكات الكنيسة فى أغراضه الخاصة .. وثبتت صحة الاتهامات ، فعزل من منصبه !

تسجل احداث التاريخ على سجادة

• **وواصل** « وليم » بناء دير « سان ستيفان » ، وشيد بداخله قصرا له ولزوجته ، اشتركت « ماتيلدا » فى تصميم عمارته ، فكشفت عن براعة فائقة ، وذوق جميل .. حتى ان قاعة الاجتماعات – التى صممت بارشاداتها – كانت افخم قاعة من نوعها فى اوربا بأسرها.. **والحق انها حذقت الفنون ، حتى انها خلفت سجادة من نسيج يديها ، تعتبر تحفة تاريخية** .. تلك هى سجادة « بايو » ، التى نقشت فيها – بالابرة – بعض الاحداث التاريخية ، وبينها قصة زوجة بطل من ابطال التاريخ ، كانت مثلها ذات جلد ، وعزيمة ، ووفاء .. الا وهى « بنيلوبى » !

ولقد قدر لحياة « وليم » ان تكون سلسلة متتابعة من المآزق والمخاطر التى كان يخوضها غير هياب ، ويوفق دائما الى النجاة منها .. ولقد حدث مرة ، ان دبر ابن عمه – دوق بيرجندى – مؤامرة لاغتياله فى قلعة (فالونى) ، حيث كان قد ذهب فى رحلة صيد ، غير مصطحب حاشيته المعتادة ، ولا حراسه . ولكن الاقدار شاءت ان يسمع أحد مهرجى البلاط همسات بين المتآمرين ، فلم يتوان عن الانطلاق على صهوة جواد ، الى مولاه .. وقضى الليل كله منطلقا ، حتى بلغ القلعة ، فظل يدق بابها بمقبض سوطه ، حتى استيقظ الدوق فى النهاية .. فاستمهل الطارق – اذ عرفه – ريثما يرتدى ثيابه ، ولكن هذا لم يشأ ان يمهله .

وهكذا ، امتطى « وليم » جواده – وهو بثياب النوم –

وانطلق من القلعة .. وما كان هذا لينجيه ، لولا ان العناية الالهيــة ألهمته ــ عندما خارت قوى جواده ، بعــد رحيل طويل ــ ان يترك الجواد على حافة الطريق ، ويســعى على قدميه .. **ثم آثرته بنعمة اخرى ، فساقت اليه ــ فى الوقت المناسب ــ جوادا هائما ، امتطاه ..** وهكـذا نجا بما يشبه المعجزات ، أو مايشــبه ــ على الاقل ــ المصــادفات التى يبتدعها خيال الروائيين !

ملك انجلترا يعده بتوريثه عرشه

• **وفى** سنة ١٠٥١ ، زار «وليم» انجلترا ، ضيفاعلى ابن عمه الملك ادوارد ، الذى يلقبه التاريخ ب «المعترف» . وقد تآلف ابنــا العمومة ايما تآلف ، حتى ان **« وليم » لم يبرح انجلترا ، الا وقــد ظفر بعهــد من ابن عمه ان يورثه عرش انجلترا من بعده ..**

وانقضت ســنوات ، وادوارد وفى لوعـده ، وليس من احداث تقف فى طريق وليم الى عرش انجلترا ــ اذا ماحان الحين ــ اللهم الا مؤامرة كان « هارولد » ــ شــقيق زوجة ادوارد ــ يدبرها فى الخفاء ..

ولم يفطن «وليم» الى هذه المؤامرة الا فى سنة ١٠٦٥ ..

وكان « هارولد » قد أبحر الى (نورماندى) ــ قبل ذلك بعــام وبعض عام ــ فى قارب صيد صغــير ، فاذا عاصفــة تصادفه ، فتدفعه الى اراضى ايرل « بونثيو » ، حيث ألقى القبض عليه ، واودع الســجن .. وما ان ســمع « وليم » بالأمر ، حتى طلب اطلاق سراحه . فلما قيل له ان لابد من فدية فادحة ، كرر الامر .. وشــعر ايرل « بونثيو » ان من الخير له ان لايرفض لوليم امرا .

واستقبل وليم وماتيلدا الأسير بترحاب بالغ وحفاوة ..

وذهبا فى توددهما اليه الى أقصى مدى ، حتى لقد وعداه بأن يزوجاه احدى بناتهما .. وكانت بعد فى السابعة من عمرها !

وفى خلال هذه الضيافة ، أفضى «وليم» الى «هارولد» بما عاهده عليه « ادوارد » ، من ان يورثه عرش انجلترا .. **وبلغ من دهاء « هارولد » ، انه اقسم اغلظ الايمان على ان يعاون « وليم » على تحقيق هذه الغاية ، وتبوؤ العرش الانجليزى** .. حتى اذا عاد الى انجلترا ، وجد «أدوارد» فى حالة تداع جسمى وعقلى ، وقد تداعت معه شؤون الحكم والدولة ، حتى ان القوانين لم تعد تلقى احتراما كافيا ..

وقبل ان ينقضى عام على عودة « هارولد » الى انجلترا ، مات « ادوارد » ..

« وليم » يستعد لغزو انجلترا

• ومع نبأ وفاة « ادوارد » ، سمع « وليم » نبأ مبادرة « هارولد » الى تولى الحكم ، وتسنم العرش .. **ولقد روى الذين كانوا حضورا فى مجلس « وليم » ـ حين بلغه ذلك ـ انه اهتاج الى درجة تقرب من الجنون** ، فلم ينفك عن العبث بأربطة وشاحه ، فى حركات انفعالية ، ثم أملى رسالة موجهة الى «هارولد» .. رسالة قاسية ، مقذعة ، ذكره فيها بعهده وايمانه ، ورماه بالخيانة والغدر .

ولقد سجل المؤرخون تفصيلات تلك الفترة العاصفة ، والجهود التى بذلت لتهدئة غضب « وليم » ، والمناقشات الطويلة التى راح يعقدها مع اعوانه ومستشاريه ، والتى **انتهت باصراره على الذهاب الى انجلترا ، ليخلع التاج عن رأس « هارولد » بقوة السلاح .**

وكأنما كانت الطبيعة فى صفه ، فأوحت الى الناس

بظواهر كانوا يعتقدون انها ايذان بتغير الحاكم .. ومن هذه الظواهر ان نجما مذنبا لاح فى سماء انجلترا.. **وقد سجلت « ماتيلدا » هذه الظاهرة وسواها ، فى سجادة « بايو » التى نسجتها بيديها !**

وأبدى « وليم » فى الأشهر السبعة التالية لموت «ادوارد»، نشاطا وبراعة فى اعداد عدة الغزو ، ورسم الخطط ، وتنظيم القوات .. فحشد ثلاثة آلاف مركب ، وستين ألف جندى مسلحين أيما تسلح ، ومدربين أدق تدريب ، وقد نصب عليهم قادة من النبلاء ذوى السمعة والشجاعة .

سفينة من تصميم « ماتيلدا »

• **وعندما** تم اعداد كل شىء ، أقيم حفل عظيم ، أعلن فيه تعيين « ماتيلدا » وصية على امارة (نورماندى) ، وعين ابن وليم الأكبر منها ـ وكان عمره ١٣ سنة ـ رئيسا عسكريا أعلى للامارة . وأدت «ماتيلدا» والآلاف من زوجات المحاربين الصلوات ، وتوجهن الى الله بالدعاء ، حتى يعود اليهن أبطالهن مظفرين .

ولكن ريحا غير مواتية ، اضطرت الحملة الى تأجيل موعد سفرها ، فتشاءم المحاربون .. **وما كان أعجب أن يستهين هؤلاء الرجال بأشد الأخطار ، ثم يتطيرون لأبسط ظاهرة من ظواهر الطبيعة** .. وكان تشبثهم بالمعتقدات الخرافية مصدر متاعب لوليم ، الذى راح يبذل كل حيلة فى وسعه لكى يطمئن خواطرهم ، ويبدد هواجسهم ، ويوجههم وفقا لما أراد ورسم .

وبينما كان « وليم » فى سفينته « سان فاليرى » القابعة بالقرب من الساحل ـ تحيط بها بقية سفن الحملة ـ فى انتظار ريح مواتية ، فوجىء بمرأى سفينة فخمة تدنو من

الاسطول ، وهى مسلحة أتم تسليح ، ومزدانة أبهى زينة .. وعندما أنعم البصر فيها ، رأى فى مقدمتها تمثالا دقيق الصنع ـ من البرونز اللامع ـ لابنه الاصغر ، وقد أمسك باحدى يديه بوقا من أبواق الحرب ، وباليد الأخرى قوسا .

وازدادت دهشة ((وليم)) حين تبين ((ماتيلدا)) على ظهر السفينة ، وان بدد ظهورها هواجسه وتريبه .. كانت الزوجة الوفية قد جاءت تجدد مواثيق الحب والولاء لزوجها وبطلها ، وتقدم له هذه السفينة التى أمرت بصنعها ـ فى خفية منه ـ لتكون مقرا لائقا للقيادة ، وقد وضعت تصميمها بنفسها ، ووفرت فيها كل أسباب الراحة ومظاهر العظمة التى تليق بزوجها !

القدر يتدخل لينتصر ((وليم))

• **وانطلقت** الهتافات من كافة السفن ، كأنها هزيم الرعد القاصف ، تحيى هذا الوفاء .. وكأنما كان لكل هذه المظاهرة فعل السحر ، فاذا الريح تغير اتجاهها فجأة ، وتصبح مواتية للاسطول .. وأيقن القوم ان « ماتيلدا » قد جلبت معها رضاء الله ..

وما لبثت سفينة القيادة الجديدة ـ التى أطلق عليها اسم « مورا » ـ أن نشرت قلاعها الجميلة ، وانسابت فى جلال على صفحة الماء ، وفى مقدمتها الدوق وليم ، يقف ملوحا لزوجته الوفية . **وسرعان ما تحركت فى اثرها ثلاثة آلاف سفينة قوية ، متينة ، تكاد الحمية التى ذكت فى نفوس شاغليها أن تبعث فيها حياة طافرة متوثبة .**

وليس هنا مجال تفصيل حملة «وليم» ـ دوق نورماندى

ــ وهبوطه أرض انجلترا ، وكيف أنه تعثر حين وطأت قدماه الارض ، فوقع ، واذا التشاؤم يستبد بجنوده ، حتى أضطر الى أن يكون خشننا فى طرد الخرافات عن عقولهم ، وحتى أنه وقف يلوح بقبضتيه ، ويؤكد لهم ان انجلترا أصبحت فى هاتين القبضتين .. ثم كانت معركة (هاستنجز) التى أثبت فيها « هارولد » مهارة عسكرية فائقـــة ، حتى ان « وليم » فقد نصف رجاله تماما ، قبل ان يقدر لسهم ان يصيب من « هارولد » مقتلا ، فيهوى فى ساحة الوغى ..

يستوثق من رضاء الشعب اولا !

• **وانهارت** عزائم الانجليز بموت « هارولد » ، حتى ان « وليم » لم يجد عناء يذكر فى الوصول الى لندن .. وهناك، لم يجد الامراء والنبلاء ورجال الكنيسة بدا من ان يقدموا اليه تاج البلاد ..

ومن حق «وليم» أن نسجل له أنه أبى ان يتقبل التاج ، **الا بعد أن تلقى تأكيدات وثيقة بأن الشعب كان راغبا فى أن ينصبه حاكما عليه** .. وسرعان ما اتخذت العدة لاقامةحفلات التتويج ..

وشهد شهر ديسمبر من عام ١٥٦٦ ، ثلاثة تيارات من النشاط فى لندن : قيام حكومة جـديدة ، ذات مشروعات ضخمة لاقرار العدالة والامن .. واقامة قلاع جديدة ، مما يسر عملا لعدد كبير من الناس ، وطامن مخاوف « وليم » من شعبه الجديد .. والتأهب للاحتفال بعيد الميلاد ــ فى ذلك العام ــ كما لم يحتفل به من قبل ..

واختيرت كنيسة « ويستمنستر آبى » لتكون مسرح

الاحتفال بالتتويج ، لأول مرة فى تاريخها .. ومع اقتراب موعد التتويج ، أخذت الخلافات السياسية تتلاشى ، وارتسمت الابتسامات الودية ـ بدلا من التجهم ـ على وجوه الجنود النورمانديين ، الذين لم يكونوا قد تعلموا بعد لسان القوم .. وقابل الانجليز ابتساماتهم بمثلها ، وان ظلوا عاجزين عن فهم لغتهم .. وكانت الابتسامات ـ كشأنها دائما ـ أبلغ من كل لغة !

اسقفان يتوليان تتويجه !

• **ويؤكد** بعض المؤرخين أن الاحتفال بالتتويج أقيم فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٠٦٦ .. ويؤكد بعض آخر انه انما أقيم فى ٢٦ ديسمبر . وسواء صدق هؤلاء أو اولئك ، فان الذى يعنينا هو ان الطرق المؤدية الى كنيسة « ويستمنستر » ازدحمت منذ الصباح المبكر ـ فى يوم التتويج ـ كما لم تزدحم فى أى يوم من قبل .. وامتلأت نوافذ الدور القائمة على جوانبها وسطوحها بالناس ، الذين أقبلوا ليشهدوا موكب الملك ..

وكان الموكب غاية فى الأبهة والفخامة ، ترفرف فوقه الاعلام الفرنسية والانجليزية .. **وبين هالة من نبلاء الفريقين ، كان « وليم » يعتلى صهوة جواد أصيل . وأينما بدا ، كان القوم يندفعون الى التصفيق والهتاف ..**

وعندما ترجل ـ أخيرا ـ أمام الكنيسة ، سرت همسات الاعجاب فى كافة ارجائها .. وسار « وليم » فى وقار مهيب وسط نبلاء انجلترا ونورماندى ، حتى بلغ المذبح ، حيث كان

أسقف يورك في انتظاره .. وما لبث الاسقف ان سال علية الانجليز ان كانوا يقبلون « وليم » ملكا عليهم ، فكان جوابهم هتافا مدويا .. ثم توجه أسقف (كوتانس) النورماندى الى علية القوم من النورمانديين بالسؤال ذاته ، فكان جوابهم ـ هم الآخرون ـ هتافا مدويا ..

((ماتيلدا)) فى قلبه وخاطره !

• ودعى «وليم» ـ بعد ذلك ـ الى أن يردد القسم والعهد التقليديين ، ففعل بصوت ثابت .. ثم أضاف من لدنه وعدا بأن يرعى المساواة التامة بين الانجليز والنورمانديين .

ووضع ـ بعد ذلك ـ الطيلسان الملكى حول كتفيه .

وكانت عينا « وليم » ـ فى تلك الاثناء ـ تتأملان التاج الذى استقر على وسادة مخملية ، وقد راح يستعرض فى ذهنه الاحداث التى انقضت حتى ذلك اليوم .. سنوات الانتظار ، والخيانة ، والتأهب للحرب ، والقتال ..

وفى فؤاده، كانت ثمة حسرة تخالط خفقات الفرح.. حسرة مبعثها افتقاده ((ماتيلدا)) الزوجة التى كان حبه لها ، ثم رغبته فى أن يثبت انه جدير بها ، سببا فى دفعه الى خوض الأخطار .. والتى كان حبها له منبع الطموح الذى انتهى به الى التطلع الى مملكة الانجليز .. والتى كان تشجيعها خير محفز له على الصمود فى قتال «هارولد» حتى يكون الانتصار خير ما يتوج اولى رحلات سفينتها الفخمة « مورا » ..

وعندما مس التاج حافة جبينه ، تمثل بعين الخيال حبيبته ـ التى كانت على الجانب الآخر من ((المانش)) تصون له امارته (نورماندى) ـ وقد تألق وجهها بالبشر والابتسام

.. وفى لمحة خاطفة ، تراءى له منظرها ، وقد شد شعرها حول عنقها ، وراح يهزها بعنف مهتاج ، فى لقائهما الأول ..

وهتف فى أعماقه : « اعتقد انني قد كفرت عن وحشيتى .. وهذا التاج خير هدية للحبيبة ماتيلدا ! » .. ولم تعد اذناه تصغيان للأسقف ، اذ مضى قلبه يردد : **« ماتيلدا .. ماتيلدا .. ماتيلدا ! »**

وظلت نبضات قلبه تسرى فى التاريخ ، أشبه بموجات اللاسلكى اذ تسرى فى الاثير ، تحكى أروع وفاء من بطل الى المرأة التى كانت سببا فى أن استهان بكل خطر ، ليكسب لها عرشا وتاجا !

وقدر للحب الذى أذكته « ماتيلدا » فى قلب « وليم » ، أن يكون سببا فى غزو انجلترا ، وتغيير تاريخها وتاريخ التاج فيها !





من حياة الشعوب

عزيزى القارىء :

اللون الذى اخترناه لك ـ فى هذه المرة ـ يتناول تقاليد الزواج وعاداته بين قبائل لم تنتظم بعد فى ركب المدنية ، تعيش فى جنوب الكرة الارضية ، شمالى استراليا .. هى قبائل « البابو » ، التى تقطن (غينيا الجديدة) .. الجزيرة الشبيهة بسلحفاة الماء !

ومؤلف موضوع **« الزواج لدى قبائل البابو »** Mariage Chez Les Papous ـ الذى نقدمه لك فى الصفحات التالية ـ وأحد من رجال الدين الذين هجروا أوطانهم ليعيشوا فى بقاع نائية كغينيا الجديدة .. ذلك هو **« أندريه ديبرا »** ، الذى ولد فى عام ١٩٠٢ ، وتلقى تعليمه بكلية « سان بول » وارسالية القلب المقدس ، وعقد العزم ـ منذ طفولته ـ على أن يكون مبشرا فى غينيا الجديدة .

وكان لأندريه ديبرا ما أراد .. اذ سافر الى هناك فى عام ١٩٢٩ ، وأقام فى الجزء الجنوبى الشرقى لغينيا الجديدة ، حيث تقطن قبائل « البابو » ، فى مناطق وعرة تتخللها الجبال والمرتفعات .

ولديبرا عدد من المؤلفات تناول فيها حياة الاهالى فى تلك البقاع النائية ، كما أنه سجل بنفسه عددا من الاشرطة الاذاعية .. الى جوار هوايته للتصوير السينمائى التى ساعدته فى نقل لوحات عن هذا العالم القصى .

زائر تحت جنح الظلام

• **الساعة** الرابعة صباحا .. الجو حار خانق ، بينما انا اتقلب فى فراشى داخل « ناموسية » لا غنى عنها فى هذه

المناطق .. وفجأة ، نفذت الى اذنى حركة ما لبثت أن أطارت النوم من عينى تماما .. ولمحت هيئة آدمى انفلت من الظلمة المحيطة بى ، فصحت فيه قائلا :

ـ من أنت ؟.. انطق اسمك كى أتبينه .

ـ اسمى أوابارو .. لدى شيء أود أن أذكره لك يا أبى .

وعندئذ خامرنى شعور بالارتياح اذ عرفت الزائر المتسلل فى الظلام .. ودعوت الفتى الى الجلوس ، فجلس القرفصاء على الارض .

فاض به الهوى .. وهى مشغولة بسواه !

• ومع أننى لم أكن أتبين صورته تماما ، الا أن صوته ما لبث ان شق السكون والظلام المحيطين بنا ، قائلا :

ـ انك تعرفها .. ماريا ابنة باوبوا . ان حبى لها يكاد يقضى على !

كنت أعرف قصة حبهما ، اذ أن الفتى كان على صلة وثيقة بى ـ منذ أن عمدته فى الكنيسة ـ كما أنه كان فى الوقت نفسه أحد أفراد جوقة الموسيقيين بالكنيسة .

وكانت « ماريا » ـ هى الأخرى ـ احدى « بناتى » .. بيد أننى كنت أعرف أن فتى آخر سيطر على قلبها ، بحيث لم يدع فيه زاوية لأوابارو الذى كان فقيرا . ومع ذلك فقد تركته يروى ـ فى جمل قصيرة تتخللها فترات من الصمت ـ قصة حبه الضائع ، الذى لا أمل فيه ..

وانبلج الفجر ، فمضى الفتى لحاله ، وقد جاش قلبه بالأمل ، وتوقع أن أتدخل فى موضوع حبه .. لكننى حرصت تماما على عدم التدخل فى هذه المسألة العاطفية ، اذ لا ارغام فى مسائل الحب !

كان « أندريا اوابارو » شابا فى الثلاثين من عمره ، وهى سن تقدرها قبائل البابو ، وتعدها ذريعة لاحترام صاحبها. **ورغم انه كان وفيا لحبه الأول ، الا انه راح — فى الوقت نفسه — يبحث عن امرأة أخرى !** .. فكان يحرص — فى كل صباح — على تمشيط شعره الغزير المجعد ، بمشط من الخشب ذى أسنان طويلة كأسنان المذراة ، وعلى طلاء وجهه برسوم بديعة مختلفة الألوان .. ثم يشد بطنه بحزام عريض من قشر الجوز ، فيبدو كالزنبار !

كما أنه كان يزين شعره بريش أحمر لامع . أما عنقه وصدره ، فكان يتدلى منهما عقود صفت من المحار وأسنان الكلاب ، بينما كان يحيط فخذيه وساقيه بأساور وأربطة من الألياف وأوراق الشجر المختلفة الألوان !

الحب بدل من طبيعته !

• **وهكذا** مضى فى اقامة مهرجان حول نفسه، وفى استلفات الانظار اليه .. **فلم يكن يفعل شيئا سوى أن يتنزه، ويرقص، ويغنى ، كما تقضى التقاليد التى تتحكم فيمن يبحث عن امرأة !**

وعندما ايقن « أندريا » من فشل غرامه، تغيرت شخصيته تماما ، فتحول الفتى الطيب القلب ، الذى كان يخدم الكنيسة بصوته وغنائه ، الى شخص آخر يكمن فى أعماقه لص هائج .. وهكذا يفعل الحب بالمحب الفاشل ، حتى فى القبائل البدائية التى لا تزال تعيش على الفطرة !

أما ماريا ، فقد تزوجت بمن اصطفاه قلبها .. وطبيعى أنها لم تكن سعيدة تماما ، الا أنها انجبت ثلاثة أطفال كفلوا لها نصيبا من الهناء على الأقل .

مفاوضات الزواج تبدأ قبل مولد العريسان !

• **ومنذ** بضع سنوات ، كانت حرية اختيار الفتاة لزوجها أمرا لا يمكن التفكير فيه ، بل كان على الفتاة أن ترضخ لارادة واختيار والديها . كما لم يكن من حق الفتى ان يحدث نفسه او يمنيها بالاقتران بفتاة غير التى كانت محلا لمفاوضات ومناقشات طويلة بين اسرتها وأسرة خطيبها المفروض عليها .. وهى مفاوضات ومناقشات قد تبدأ قبل أن يولد الفتى والفتاة ، أحيانا !

غير أن هذه الأوضاع قد تغيرت عقب دخول المسيحية الى هذه البقاع . ومع ذلك بقيت تقاليد الزواج المتوارثة كما هى ، لم تكد تتغير فى شىء عما كانت عليه قبل اعتناقهم الدين المسيحى .

وسكان غينيا الجديدة يكونون مجتمعا صغيرا غير عادى ، ذا خصائص شعبية معينة ، وتقاليد وملامح خاصة . وهم يشكلون — فى معظمهم — قبائل « البابو » ، غير ان تقاليدهم وعاداتهم تختلف باختلاف أماكن توطنهم . ففى حالة الزواج — مثلا — نجد بعض العشائر تستخدم الوشم بالنسبة للفتاة التى تكون فى سن الزواج .. لكن درجة هذا الوشم تتفاوت من عشيرة الى أخرى ، فتقل فى هذه وتزيد فى تلك .. وقد تصل الى درجة تغطية الجسم كله بشبكة كاملة من الوشم ..

يشترى عروسا لابنه بتبرعات العشيرة

• **ولنتناول** الآن حالة نموذجية ، وهى حالة **الزواج بالطلب** لدى هذه القبائل . فهذا تقليد من التقاليد التى لاتزال سائدة ، وله اجراءات وعادات عجيبة حقا .

ففي ذات يوم ، دعا أحد أفراد عشيرة « تسميريا » — واسمه واروبى — كبار رجال أسرته للتشاور معهم فى أمر زواج ابنه . وجلس الجميع يصغون لحديث الرجل الذى قال :

— لقد بلغ ولدى « أوبارا » سن الزواج . **وها أنتم جميعا ترون كيف أصبح فتى جميلا يبحث عن امرأة . وتعرفون أن لأخينا « ايرى ايرينا » ابنة فى سن الزواج ، هى « نايمى »**. وهى فتاة قوية ، مجدة ، ستلد أطفالا على قدر من الجمال . وسوف يزيد عدد الآكلين لدينا ، وكذلك سيكون لنا خلف فاضل . **وانى لأرغب فى أن أشتريها لأقدمها لولدى !..** وصحيح اننى امتلك ثروة ، الا انها ليست كافية . ومن ثم فعليكم ان تهبونى شيئا من ثروتكم !

وما لبثت القرابة وصلة الدم ان انصاعتا للطلب ، دون نقاش كبير ..

وفى اليوم التالى ، توجه « واروبى » الى « ايرى ايرينا » فى صحبة عدد من أفراد اسرته ، محملين بالثروة ، التى قدروها ثمنا للفتاة الصغيرة !

وما أن بلغ الركب دار « العروس » المرتقبة ، حتى جلس الجميع — دون أن ينبسوا بكلمة — فى شرفة مصنوعة من الغاب ، تمتد فى مواجهة الدار .. وفى مظاهرة من الفرح ، شرعوا يفكون اطراف ثوب فاخر ، صنع على هيئة نصف القمر ، تحليه قواقع واصداف وريش طيور ، وقد امتلأ بالهدايا والهبات المختلفة .

مساومة بين والدى العروسين

• **وجلسوا** فى وقار على راس ما أحضروه معهم ، وهم ساكتون ، لا يثرثرون .. ولم يمض وقت طويل ، حتى خرج



فتاتان من قبائل ((البابو)) تحليان جيديهما بقلادتين من القواقع ، فوقهما عقود من أسنان الكلاب ٠ وعلى رأسيهما حلية من الاصداف

جميع أفراد أسرة « نايمى » ـ فيما عدا « نايمى » نفسها ـ لمعاينة الهدايا المعروضة !

واستعرض « أيرى ايرينا » الهدايا ، وقدر قيمتها ـ فى باله ـ وقاسها بالقيمة التى كان يقدرها لابنته، وهو صامت.. ثم لم يلبث ان انسحب مع أهله من المكان ، اشارة الى أن الهدايا لا تليق بالفادة المنشودة !

على أن « ايرينا » عاد ثانية الى الضيوف ، وحده ـ فى هذه المرة ـ وجلس اليهم .. وما لبث أن صارحهم ـ فى بساطة ، وغير تردد ـ بأن الثمن المقدم ، أقل بكثير مما تستحق ابنته ، فهى لا تقدر بثمن ! .. **وكانت هذه اشارة لواروبى ، كى يضاعف العرض . فأخرج ـ من حقائب مصنوعة من لحاء الشجر ـ مجموعة أخرى من الهدايا ، أضافها الى تلك المعروضة أمامه ..**

ومرة أخرى ، انسحب والد « نايمى » ، وعاد الى كوخه صامتا ، فكان هذا دليلا على رفضه .. ومرة أخرى ـ كذلك ـ أخرج « واروبى » من حقائبه مزيدا من الهدايا ، أضافه الى ما كان معروضا .. وكان « ايرينا » يشهد ما يجرى من عند بابه ، فعاد من جديد .. وتأمل الزيادة ، ثم انسحب مرة ثالثة ..

الهدايا للاهل والاقارب البعيدين !

• **عملية** شاقة ، مملة !.. ولكن التقاليد جرت بها . فيظل والد العروس فى انسحاب واقبال ، طالما ظل والد الخطيب راغبا فى اضافة مزيد من الهدايا ، حتى يقنع والد العروس فى النهاية بالثمن المعروض، **فيتقدم ويتناول كل هدية على حدة ، يفحصها ، ويتحسسها ثم يرتبها جميعا ، ويتأملها بعين الرضى** .. ولا يلبث أن يتناول حبة من جوز

«الفوفيل» ـ الذى يكثر فى تلك البقاع ـ فيعالجها بأسنانه حتى تنشطر الى نصفين . وعندئذ يقدم نصفها الى والد الخطيب .. **اشارة الى أن الارتباط قد تم بين الوالدين ، وانهما قد تعاهدا على زواج ابنيهما !**

وتلى ذلك حالة من الابتهاج والفرح تعم أفراد الأسرتين، فيقومون بمضغ اللادن ، والتدخين ، وتحديد تاريخ تقريبى لحفل الزفاف . ثم يحصون عدد المدعوين ، ويرتبون اجراءات مأدبة الزفاف . وفى النهاية يعدون كلمات التقريظ والمدح للخطيبين ، وهى كلمات تعد بعناية ثم تدفن فى أرض كل من قريتى الخطيبين !

واذ يرحل أهل « العريس » ، يبادر والد العروس بجمع الغنيمة ، ويستعد للرحيل ، كى يطوف على أقاربه البعيدين، فيوزع عليهم ما جمعه من هدايا وهبات .. **ذلك لأن العادة جرت على ألا يكون له ـ أو لأحد من أفراد أسرته وخاصة العروس ـ حق فى هذه الهدايا !**

وتمر شهور طويلة يكون فيها الاتصال مستمرا بين أهل العروسين بشأن اجراءات الزفاف ، كما يتم فى أثنائها تبادل الخضر والخنازير بين الاسرتين .. بينما يتظاهر الخطيبان طوال هذه الفترة بأنهما لا يعرفان شيئا عما يدور حولهما من احاديث وجدل !

الزفاف يبدأ ب .. غزوة وثورة !

• **واخيرا** يحل يوم الزفاف .. ففى الصباح الباكر ، يقوم أفراد أسرة الزوج وأصدقائها ومعارفها بحملة **«يغزون»** فيها دار العروس ، وهم يمضغون حبات « الفوفيل » ، ويتناقشون ويثرثرون بصوت خفيض .. حتى اذا بلغوا

الدار، أحدقوا بها. وسرعان ماتصدز اليهم أوامر «العريس»، فيهاجمون الدارفى حركات خاطفة ،وهم يعوون ويتصايحون!

وعندئذ تفر العروس ، وتهرع الى خارج الدار خائفة مذعورة ،تشق طريقها بمشقة حتى تصل الى أجمة مجاورة، حيث تقبع وحيدة .. وبعد فترة من الزمن ، تعود الى القرية متسللة فى الخفاء ، الى مقربة من الدار .

كل ذلك والصمت والسكون مطبقان على المكان من حولها .. وماهى الا لحظات ، حتى تأخذ الفتاة فى الصياح، وهى تضرب الارض بقدميها ، وتشق طريقها بين الناس ، موزعة عليهم اللكمات ، و « العض » بأسنانها ، والخدش بأظافرها !

وهنا يأتى دور الأم ، اذ تصرخ صراخا يصم الآذان . ثم تستل عصا غليظة تضرب بها جذوع أشجار جوز الهند التى تظلل القرية ، **وتتنقل بها أيضا من فوق جدران الدور** الى الأرض الرملية ، صارخة مولولة ، **ملقية أقذع السباب واللعنات على هؤلاء الذين جاءوا لخطف ابنتها !** .. ولكن ماذا تستطيع امرأة مسكينة أن تفعل أمام كثرة عددهم وقوتهم ؟.. انها تضطر الى التوقف ، فتلقى سلاحها ، ثم تسقط منهارة وسط ميدان القرية الرئيسى ، وتضرب رأسها وصدرها ، ثم لاتلبث أن ترفع وجهها المبلل بالدموع ،وتصرخ قائلة :

« أواه يابنيتى الصغيرة ! .. لقد انتزعك هؤلاء الوحوش .. انتزعوكى من أمك ! أواه ، كيف ستصيرين بدونى ؟ .. وانا ، ماذا سأفعل بدونك ؟ .. انك على قسط وافر من الجمال ، كما أنك تجيدين عملك ، فمن التى ستقوم باقتلاع حشائش الحديقة ، ومن التى ستتولى تنظيف واجهة

المنزل ، ومن التى ستعنى بأخواتك الاصغر سنا ؟ .. آه يا فتاتى ، فلتشهدى بكائى ، ولتسمعى نحيبى .. عودى الى امك المسكينة ! »

ومن الضرورى ان يتم اداء هذا المشهد فى اتقان كاف ، سواء من جانب الفتاة أو من جانب أمها ، التى تستعين بمجموعة من صويحبات الفتاة ليقمن بدور الكورس وترديد كلماتها التى تقطر حزنا وأسفا على فراق ابنتها !

اقراط من أذناب الخنازير للعروس

• واذ يتم هذا المشهد ،تستريح الأم ومن معها من نسوة وفتيات ـ وهن يلتقطن أنفاسهن بمشقة ـ فوق شرفة دار العروس ، التى تكون قد خلت من سكانها ، فيما عدا الفتاة الصغيرة المختبئة بالداخل .

ويزحف الليل وئيدا ، فلا يلبث « الحراس » الذين يطوقون الدار أن يتركوا مراكزهم خلسة ،واحدا وراء آخر .. **واذ ذاك تحل محلهم نساء أسرة العروس ، اللاتى يسرعن بالالتفاف حول الفتاة لاتمام زينتها** . فيجلسن فى دائرة حولها ، ويشرعن فى طلاء جسدها بزيت جوز الهند ، الذى يكسب بشرتها لمعانا ساطعا يبرز معه أثر الوشم .

وما ان يفرغن من ذلك، حتى يلبسنها عددا من «الجونلات» الخفيفة ،ثم يتبعنها بأخرى كبيرة ذات خيوط زاهية الالوان. أما شعرها ،فيصفف على شكل حزمة من خضر «السلاطة»، ويتوج بتاج من الزهور والريش ! .

ويأتى دور العنق ، فيحطنه بأكاليل طويلة من القواقع الصغيرة ، وعقود من أسنان الكلاب ، تنتهى بهلال من الصدف . ويعلقن فى أذنيها أقراطا من أذناب الخنازير ،

واخرى رقيقة من قشور السلاحف واوراق الاشجار الزاهية الالوان . ويغطين ذراعيها بأساور من القواقع !

والدا العروس ينصحانها بعدم الفرار

• **وعندما** تنتهى هذه العملية ، تحضر أم الفتاة ووالدها لمشاهدتها ، ويتناول كل منهما وجهها فيضغطه بوجهه ، ويتحدثان اليها حديثا موجزا يتمشى مع المناسبة .. مثل :

« هكذا تتركيننا يا ابنتنا ! لا تحزنى ، فقد رتبنا أمورنا . ان زوجك صغير السن ، جميل وقوى ، ولدى والديه ثروة . وستصبحين سعيدة الى جواره .. **اياك أن تتشاجرى معه ، أو تحاولى الاعتداء عليه .. اعملى فى حديقته ، ورتبى شؤونه ، وانجبى له أطفالا !** .. أما نحن الشيخان الفقيران فلا نبغى منك شيئا سوى أن تهبينا قطعة صغيرة من لحم الخنزير أو الكنغر والبطاطس وحب الفوفيل ، عندما تتهيأ لك فرصة الحصول عليها !

« والآن ، علينا أن نرسلك الى زوجك .. فلا تحاولى الفرار ! »

وما ان تسمع الفتاة هذه الخطبة الموجزة ، حتى تجيب عليها بالنواح والدموع . ثم يقوم مرافقوها بمعاونتها على الوقوف والنزول الى ميدان القرية ، حيث ينظم الاهالى موكب الزفاف .. وليس لأمها ان ترافقها الى الموكب ، بل تبقى بالكوخ ، وهى لاتكف عن الصياح والولولة !

وفى تلك الاثناء ، يكون « العريس » جالسا مع رفاقه فى وقار ، مستظلين بأشجار غابة قريبة . لكنهم ما يكادون يلمحون الموكب قادما ، حتى يخفوا لاستقباله فى صمت ، متقدمين فى خطوات بطيئة مهيبة .

معركة وهمية قبل الزفاف

• وفجاة تنبعث ضجة عجيبة . اذ تنشق الأرض — فى كل انحاء القرية — عن أفراد أسرة العروس ، رجالا ونساء . فيخرجون مسلحين بهراوات ورماح من ورق ، ومشاعل تحدث فرقعة متقطعة . ويشقون طريقهم متخللين الموكب ، محدثين صراخا مفزعا . ولا يلبثون أن يلتحموا بأفراد أسرة « العريس » ، فتجرى بينهم معركة وهمية يسودها



العروس تجلس مع شقيقة تصغرها، فى انتظار عريسها، ليلة الزفاف .. وقد ثقبت أنفها ، وأنفذت فيه اسطوانة من الصدف !

الهرج والصياح ، ويتشبث كل من الفريقين بما يخصه فى الزواج .. فهذا ينوه بقيمة « العريس » ، وذاك يعلى من شأن العروس !

وكما تنبعث الضجة فجأة ، تموت فجأة كذلك .. اذ سرعان ما تنتهى المظاهرة ، بعد أن يكون كل من الفريقين قد أدى دوره على أكمل وجه . ثم يعودون الى أعمالهم فى هدوء ، كأنما لم يحدث شىء . أما النساء ، فانهن لايبرحن المكان .

وما أن يصل الموكبان ـ موكب العريس وموكب العروس ـ الى أطراف القرية ، حتى تخف النسوة الى الفتاة الصغيرة ، فيحطن بها ، ويعانقنها وهن يبكين .. **وتتقدم اليها العجائز فيسدين لها النصح ، ويقدمن لها خلاصة تجاربهن فى الحياة الزوجية الطويلة التى مارسنها !**

وتعقبهن الشابات المتزوجات ، فيدلين للعروس بارشاداتهن وتليهن صاحباتها وزميلات طفولتها ، فيتقدمن اليها باكيات ، كأنهن يشيعنها الى المقر الاخير ، اذ يرددن : « وا أسفاه ! والهفتاه ! .. أيتها الصديقة الصغيرة المسكينة ، اهكذا فقدناك ؟ .. وداعا ! انك لن ترقصى معنا ، ولن تغنى ، ولن تضحكى بعد الآن ، فكل شىء قد انتهى .. وداعا ! »

وتمضى الأسرتان : كل فى طريقها . فتقوم أسرة العروس بنصف دورة حول القرية ، ثم تعود الى دورها .. **بينما تمضى اسرة « العريس » الى قريتها بما حمله أفرادها من غنائم ـ ممثلة فى العروس ـ وما تلقوه من ضربات فوق رؤوسهم أثناء المعركة .**

ثم يصعدون بالفتاة الصغيرة الى شرفة منزل « العريس » ، حيث تجلس هناك القرفصاء ، لتتلقى التهانىء من القرويات

اللاتى يتزاحمن اسفل الشرفة ،وهن ينظرن اليها ،ويهنئنها بصوت مرتفع ، بينما يتبادلن التعليق عليها ونقدها بصوت خفيض !

عملية تعذيب للعريس

• أما الخطيب فانه يهرع — وقت وصول الموكب — الى « بيت القرية » ، وهو المأوى العام للعزاب ، حيث يلحق به زملاؤه ، فينهالون عليه بصفعاتهم وتشهيرهم . ثم يجرونه الى الشرفة ، فيطلون جسده بزيت الجوز ، ويحلقون شعر رأسه ، ويفتنون فى تزيينه ، وهو صامت لايتحرك ، كأنما قد حكم عليه بالموت !

وما ان تتم عملية تزيين الخطيب ، حتى يقوم أصدقاؤه بدفعه نحو بيت أبيه ، حيث يلزمونه بالجلوس بجانب خطيبته . وعندئذ يرتفع الصياح من كل جانب : « لقد تزوج ابن — — ، بابنة — — ! .. هو .. ها .. ها ! »

ولابد للعريس من ان يرد على هذا الهتاف بهتاف مناسب ، وبهذا يعتبر عقد الزواج معترفا به !

ولو اننا نظرنا الى الفتاة وهى تجلس بجوار فتاها ، لوجدناها قد تجمدت فى جلستها التى تشبه جلسة تمثال بوذا .. فهى تتجاهل تماما وجود فتاها ، وهذا بدوره يدير ظهره لها ، متجها الى أصدقائه ، مشتركا معهم فى ضحكهم ولهوهم ، وهو لا يكف عن التهام حبات الفوفيل أو التدخين .

واذ يكتهل الليل ، ويغلب النعاس القوم شيئا فشيئا ، ينهض الزوج تاركا زوجته ، ليمضى — دون أن ينبس بكلمة أو أن يلقى بنظرة على زوجته — الى بيت القرية مع رفاقه ، **حيث يقضى هناك ليلة زواجه الأولى وحيدا !**

أما الزوجة الصغيرة، فانها تعود الى دارها.. دار والدى الزوج !

التقاليد تسمح بالنهب والسرقة !

• **وما** ان يبزغ نهار اليوم التالى ، حتى تفاجأ قرية « العريس » بغزو مفاجىء ! .. فمن حق أسرة العروس — طبقا للتقاليد — انتغزو دوراسرة صهرها، **حيث يجوزلها ان تسرق ،وتنهب ، وتدمر ،كيفما شاء لها .. دون أن يتعرض لها أحد !**

والواقع ان الغزاة لايعتدون الا على اموال أقارب صهرهم الشاب وحدهم . وطبيعى أن يتطلب ذلك مهارة كبيرة .. فهم يمرون على الدور يفتشونها ، ويحملون منها ما يروق لهم ، ويحطمون — أو يتظاهرون بأنهم يحطمون — الاوانى الفخارية التى لم يتح لأهل الدور فرصة لاخفائها ، ممايعد انتصارا للغزاة المهاجمين . **وبقدر ما يكون التخريب والنهب شاملا للدور وما تحتويه ، وما يحيط بها من أشجار فواكه وحقول خضر ، تكون الغزوة ناجحة موفقة !**

أما اصحاب هذه الدور التى خربت ، فانهم لايبدون أدنى مقاومة او امتعاض ، فليس من حقهم أن يفعلوا شيئا من هذا أو ذاك ، وانما لهم الحق — بعد ذلك — فى الثأر ،حين تتزوج فتاة من قريتهم بفتى من الأسرة الفازية !

عهدالعزوبة ينتهى بتمزيق حزام العريس

• **وتبدأ** — بعد ذلك — مرحلة أخرى ، حين لا يبقىأمام الاسرة الفازية ما يستحق التحطيم والتخريب . اذ يتوجه افرادها الى « منزل القرية » ، حيث يقبضون على الزوج الشاب ، **ويمزقون علانية حزامه الكبير المصنوع منالقشور،**

دلالة على انه قد ودع عهد « البحث عن امرأة » ، الذى يشير اليه كل من يرتدى مثل هذا الحزام !

أما أهل «العريس» ، فانهم ـ بدورهم ـ يتعقبون الزوجة الصغيرة ، التى تكون قد رحلت مع أهلها ، ويرغمونها على العودة الى زوجها ، حيث يجلسان سويا ـ مثلما جلسا فى الليلة السابقة ـ دون أن ينظر أحدهما الى الآخر . ثم ينفصلان فى المساء : فيذهب كل منهما للنوم بمفرده !

وفى اليوم التالى ـ الثالث بعد الزواج ـ يصفو الجو فجأة . فيجلس الزوجان المتنافران جنبا الى جنب ، فى هذه المرة .. ولا يلبث البشر ان يطفى على وجه الزوجة ، فتنفرج أساريرها ، وتبدو سعيدة . **ثم تستدير ناحية زوجها متبسمة ، وتقدم له حبات « الفوفيل » ، وسنابل « التانبول » .. وهو نبات ينمو فى تلك الجهات ويستخدم كغذاء** . أما فتاها فانه يصير أكثر منها جراة ورغبة فى مشاركتها السعادة ، اذ يمضغ اللادن ، ويبتسم ، وينظر اليها ، ويسر فى أذنيها بعض كلمات الحب من مثل : « ان الريح تهب فى الاتجاه الطيب .. سيكون الشاطىء عامرا بسرطان البحر (أبو جلنبو) ! .. وستكون البطاطا جميلة ، كما أن الخنازير تنمو وتنضج ! »

وبهذه التقاليد والعادات ، يكون الجو قد تهيأ للحياة الزوجية كى تبدأ ، ولا يعود طرفاها يشغلان بال أحد . ومع ذلك ، فخلال شهر أو شهرين ـ عقب الزواج ـ **لا يجوز للزوجين ان يجتمعا معا الا فى أثناء النهار ، حيث يشغلان وقتهما باللعب واللهو بين الاغصان المتشابكة الكثيفة ..** وعندئذ ينفسح المجال أمامهما ، وتتكشف الاسرار رويدا رويدا . ثم يحل المساء فتعود الزوجة الى التزين ، وتقوم

بالتنزه فى القرية مستعرضة جمالها ودلالهـا ، وقد تزور والديها أو والدى زوجها .. كل ذلك يتم فى شهر العسل !

فترة اختبار بين الزوجين

• **والواقع** انه لا يعتبر « شـهر عسل » بالمعنى المألوف ، وانما الاصح انه فترة اختبار . فللفتاة ـ اذا لم تجد زوجها صالحا مناسـبا بعد هذه الفترة ـ ان تشـكو حالها الى والديها . وتكون النتيجة أن يطالب الوالدان أسرة «العريس» بمزيد من الهدايا والهبات !.. فاذا لم تسر الأمور كماتشتهى الابنة ، **فانهما يسـتردانها ، ثم يعيدان لأسرة زوجهـا كل ماحصلا عليه منها ، دون غضب أو ضجيج ، كأنما لم يحدث شىء قط !**

اما اذا مر شهر العسـل بسلام ، فيتحتم على الزوج ان يبنى لنفسـه كوخا لعش الزوجية . ثم يحتفل القوم بهذه المناسبة ، فتقيم اسرة «العروس» مأدبة حافلة بشتى ألوان الأطعمة . ويتولى الأب جمع الخنازير السـمينة والخضر والهـدايا . حتى اذا فرغ من اعـداد ترتيبات المأدبة ، فانه يبعث الى والد « العريس » بعنقود من حب « الفوفيل » ، يكون بمثابة بطاقة الدعوة !

وفى اليوم المحدد للمأدبة ، ينتقل اهل «العريس» ومعارفه الى دار الـداعى ، مصطحبين من الهـدايا ما يلحقونه بما قدموه من قبل .

وعند تقديم الهدايا الاخيرة ، ينهض والد « العريس » ، فيلقى خطـابا يحمله فضائل صهره ، ويشـيد فيه بعظمة أسرته الباسلة ، وخاصة ابنته التى صارت زوجة لابنه !

ولا يلبث والد العروس ان يرد شاكرا له حسن تقديره ، بكلمات يغلفها بالكثير من التواضع الذى يعد فى مثل هـذه

المناسبات نوعا من البلاغة ! .. ثم ينادى أقاربه الأقربين ، فيوزع عليهم ما جاء به أهل « العريس » من هدايا .. وهنا **نذكر أن التوزيع الاول للهدايا التى قدمت قبل الزواج كان من حظ الاقارب البعيدين فقط !**

وهكذا نجد مبادىء نظام تعاونى بديع ، من وحى الفطرة .. فالعشيرة تكتتب فيما بينها بنفقات زواج ابنها .. وأهل العروس يتقبلون الهدايا ليوزعوها على الاقربين من أهلهم .

اما مادبة الطعام ، فليست فى الحقيقة مادبة بمعنى الكلمة . ذلك لأن الخنازير والخضر تقسم نيئة الى أجزاء — ويتولى ذلك والد العروس بنفسه — ثم يوزعها على الحاضرين وسط موجة طاغية من الحماس والتهليل .

اما الزوج ، فمن حقه ان يحصل على خنزير كامل ، على أن يوزع نحو ثلثيه على الاقارب والاصدقاء ، ممن ساهموا باكتتاباتهم فى الثروة التى اتاحت له شراء زوجته !

وما أن يتم التوزيع على الحاضرين ، حتى تبتعد كل أسرة ، وتنتحى بأفرادها جانبا ، حيث تطهو ماغنمت وفق رغبتها ومزاجها .

.. وهكذا تنتهى احتفالات الزواج الصاخبة فى بلاد (الرورو) ، ويستعد الناس مرة أخرى لزواج جديد ، بعد أن فتحوا ابواب المستقبل أمام العروسين الصغيرين .

الجريمة.. والعقاب



المحاكمات الكبرى

في الماضي والحاضر

عزيزى القارىء ..

قدمت لك فى الاعداد السابقة من كتابى طائفة من القضايا والمحاكمات الهامة ، هى على التوالى : محاكمة ((جورجيت هودو)) ملكة الجمال الباريسية .. فمحاكمة السفاحين ((بيرك)) و ((هير)) .. ثم محاكمة فيلسوف اليونان العظيم ((سقراط)) .. ومحاكمة ((آن بولين)) ملكة انجلترا فى عهد هنرى الثامن ، فمحاكمة ((دريفوس)) .. ومحاكمة ((ستافسكى)) .. ثم محاكمة ((مرجريت فهمى)) .. ومحاكمة ملك انجلترا ((شارل الاول)) واعدامه .. ومحاكمة قاتل راسبوتين .. ثم محاكمة ملك فرنسا لويس السادس عشر .. ومحاكمة قاتل عشيق زوجته (من محاكمات اثينا القديمة) ثم حلقات من كتاب ((نساء ومآس فى ساحة العدالة)) ، و ((القاتل الذى حاز عطف الجماهير)) .

وفى هذا العدد اقدم لك احدى القضايا المعاصرة ، التى اثارت جدلا قانونيا ..

محاكمات أثارت
ضجة فى تاريخ
القضاء المعاصر

FAMOUS
CRIMINAL
CASES
BY
R FURNEAUX

القاتل الصغير!

للباحث المدقق:
"ر. فورنو"



تلخيص: رمسيس شكرى

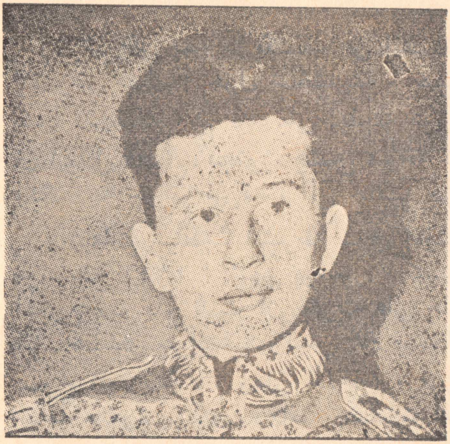
عزيزى القارىء :

فى الشهر الماضى ، وقع حادث هو الأول من نوعه فى تاريخ العدالة عندنا .. فقد أفلت مدان من الاعدام فى اللحظة الاخيرة ـ والاخيرة بكل معنى الكلمة ـ **بعد أن التف حبل المشنقة حول عنقه ، ولم تبق سوى دفعة بسيطة لاتستغرق من الزمن ثانية ..**

وليس هنا مجال بحث ما اذا كان هذا المدان مجرما حقا ، أو ان ثمة ظروفا تكالبت على حبك شباك الادانة حوله .. وليس هنا ـ ايضا ـ مجال التنبؤ بما اذا كان سيقدر له ان يفلت من الاعدام ، او انه سيساق مرة أخرى الى المشنقة ..

انما اذكر حادثه ، لأن الحلقة التى ستقرأ ملخصها فى الصفحات التالية ـ من هذه السلسلة التى قدمت لك فى العدد الماضى اولى حلقاتها ـ تدور حول **شخص كان من المؤكد أن القضاء سيدفعه للاعدام ، ثم تغلبت الظروف ، فاذا به ينجو من الموت ..** وبطل هذه الحلقة ، ليس كبطل حادث القاهرة .. فهو قاتل فعلا ، وهو قد ارتكب اكثر من جريمة قتل ، وفى ابشع الظروف ـ اذ كان يعتدى جنسيا على ضحاياه قبل قتلهم ـ ثم انه اعترف .. اعترف بكل **شىء ...**

ولكن محاميه أثار نقطة حساسة ، هى ان موكله مصاب بـ « نقص فى قواه العقلية » .. وأثارت هذه النقطة ـ بدورها ـ جدلا فى الدوائر القانونية : **الى أى مدى يشفع « نقص القوى العقلية » للمجرم ؟** .. وتشبث بطل هذه القضية بأنه كان « ثملا » بعد افراطه فى احتساء الخمر » ،



مايكل دوجلاس دودال .. القاتل الصغير ..
كانت كل الظروف تدينه .. ومع انه افلت من الاعدام الا ان القاضى امر بان يظل سجينا ليأمن المجتمع شره !

بل كل جريمة .. واثارت هذه النقطة - ايضا - جدلا فى الدوائر القانونية : **الى أى مدى يكون السكر مبررا لفقدان السكران كل شعور بالمسئولية عن اعماله ؟**

ولقد رأى المحلفون ان يبرئوا ساحة المجرم بالنسبة للقتل .. ولم يكن امام القاضى سوى ان يخضع لرايهم ، ولكنه لم يكن مرتاح الضمير الى اطلاق سراح مجرم كهذا ، وتركه حرا فى المجتمع ، فأصر على ان يصدر « حكما يمكن السلطات من احتجازك بين اسوار عالية ، الى ان يقتنعوا تماما بأنك قد أصبحت فى حالة تسمح لك بالتجول - مرة اخرى - فى حرية ، بين اخوانك من بنى البشر » .

الا ترى معى ان هذا الكلام الذى وجهه القاضى للمتهم ، اشد قسوة من حبل المشنقة ؟ ..

علامات دائرية صغيرة !

• **لم يكن** ثمة ما يكشف عن **القاتل** .. كانت ظلمات الغموض مدلهمة حول شخصيته ، يصارعها شعاع واهن من ضوء الحقيقة ، لم تبد على ذبذبته سوى فكرة واحدة ، هى **ان القاتل مصاب بجنون جنسى** ، وانه كان يسطو على المنازل، فكانت له جرائم سرقة ، الى جانب جرائم القتل !

ونشطت سلطات الشرطة ــ فى انجلترا ــ فى ذلك الشهر من سنة ١٩٥٩ ، شهر نوفمبر ، لتبديد هذا الغموض عن المجرم .. فلم تلبث ان عثرت على حذاءين خلفهما وراءه بعد احدى جرائمه ــ ولبس بدلا منهما حذاءين وجدهما فى مسرح الجريمة .. وعلى حذاءيه ، كان الحرفان الأولان من اسمه منقوشين ... وكانت بصمات أصابعه مطبوعة .

ومن هذه الآثار ، على ضآلتها ، استطاع المحققون ان يهتدوا الى ان طريدهم يدعى « ميك » . ولكن .. كم من « ميك » فى انجلترا ؟!

ثم عثرت الشرطة على ضحية جديدة .. امراة مخنوقة بجوربها ، فى مسكنها بحى (فولهام) بلندن ، بعد اعتداء وحشى منكر .. وعلى جسدها ، كانت ثمة **علامات دائرية صغيرة** .

وتشبث مفتش الشرطة « بيتر فيبمارت » ــ بحى (تشيلسى) ــ بهذه الدوائر ، وقد أيقن من أنها الخيط الكفيل بأن يهدى خطواته .. اذ تبادرت الى ذاكرته وقائع جريمة مماثلة ، ارتكبت فى ليلة عيد الميلاد من العام السابق .. فقد وجدت « فيرونيكا موراى » ــ وهى من بائعات الهوى ــ قتيلة فى مسكنها بحى (كيلبورن) .. **وكان جسدها**

يحمل ذات العلامات الدائرية .. على ان المفاجأة الكبرى تمثلت فى ان البصمات التى وجدت فى مسرح الجريمة ، كانت مماثلة لتلك التى وجدت الى جوار قتيلة حى (فولهام) .. وكل منهما تطابق بصمات الشخصية الغامضة .. « ميك » !

« ولاعة » ترشد الى القاتل !

• **وادرك** رجال شرطة لندن انهم يواجهون مجنونا خطيرا، قد يمضى فى ارتكاب جرائمة دون رادع ..

وبمعاودة البحث فى آخر مسرح لجرائم « ميك » ، عثر المحققون على « ولاعة » غريبة الشكل ، نقش عليهـا اسم « شركة خليج تكساس لاستخراج الكبريت » . واستعانت السلطات ـ عند هذا الحد ـ بالصحف ، فمـا ان نشرت صـورة « الولاعة » ، حتى تعرف عليهـا حارس محطـة

(بيربرايت) .. وظهر انها كانت ملكا لشاب فى التاسعة عشرة من عمره ، من افراد فرقة حرس (ويلز) ، يدعى : **«مايكل دوجلاس دودال » ..**

« مايكل » ؟!.. « ميك » ؟!.. ترى هل قدر للحقيقة ان تتجلى ؟

وتشط رجال الشرطة فى تحرياتهم ، فتبين أن « دودال » كان يكثر من التردد على لندن لقضاء عطلات آخر الاسبوع .. **ثم بدت بارقة من امل جدى ، حين ظهر انه كان متغيبا عن مقر وحدته ، فى الوقت الذى قتلت فيه « فيرونيكا » .**

والقى القبض على « دودال » .. وفى يناير سنة ١٩٦٠ ، قدم الى المحاكمة امام القاضى « دونوفان » ، بمحكمة « اولد بيلى » .. ومثل الاتهام مستر « اليستير مورتون » . أما الدفاع ، فتولاه المحامى « دزموند ترانر » .. وكانت القضية الاولى هى .. مصرع « فيروتيكا » .

وعمد المحامى الى الدفع بأن موكله «غير مذنب» فى الادعاء المقام عليه ، متعللا بضعف قواه العقلية ، الذى كان كفيلا ـ لو اقتنع به المحلفون ـ بأن يخفف من وقع جريمته، فيحولها من جريمة « القتل العمد مع سبق الاصرار والترصد » الى جريمة « ضرب أفضى الى موت » !

ينسى نفسه عندما يفرط فى الشراب

• **وبدات** المحاكمة بأن خاطب « مستر مورتون » ـ ممثل الاتهام ـ المحلفين قائلا : « عليكم أن توجهوا أنظاركم ـ فى هذه الجريمة البالغة الشناعة ـ الى الحقائق المجردة فقط .. لقد عثر على « مس موراى » عارية تماما الا من (بلوفر) يغطى رأسها ، **وعلى جسدها خدوش وعلامات دائرية صغيرة، قرر الطبيب الشرعى أنها حدثت بعد وفاتها** .. وفوق عينها اليسرى ستة جروح، وبالجمجمة شروخ كانت السبب المباشر فى الوفاة ، أحدثت بآلة ضخمة . كما ظهرت آثار تمزيق فى أعضاء أخرى من جسدها . فلما عثر رجال الشرطة على جثتها ـ بعد وفاتها بأربعة او خمسة ايام ـ عثروا بجوار فراشها على جرس ضخم ، يزن ستة ارطال ، ملوث بالدماء ، كما تمكنوا من كشف بصمات واضحة على كوب ماء .

« فلما اقتيد « دودال » الى مركز الشرطة ، استجوبه كبير المفتشين « أكوت » ، فاعترف بقوله : **« لقد كان الجميع يناصبوننى العداء .. اننى لا اقدم على مثل هذه الافعال الا عندما افقد الوعى من الشراب** .. ومنذ فترة غير قصيرة أدركت خطورة حالتى ، فرغبت فى استشارة أحد الاطباء .. وانا الآن سعيد بالقبض على ! .. وسأدلى اليكم بكل مايخطر على ذهنى من تفاصيل وبيانات :

« ذات ليلة ، منذ عام مضى ـ وقبل عيد ميلاد عام ١٩٥٨

بقليل ـ افرطت فى الشراب ، فى احدى حانات حى (الويست اندا) ، حتى ثملت تماما . وما لبثت أن التقطت احدى البغايا ، فى ميدان (الطرف الأغر) . واستقللنا سيارة اجرة الى مسكنها فى حى (كيلبورن) ، وما أن قضيت منها وطرى حتى استغرقت فى النوم .

« وفى الصباح ، ثار بيننا جدل وشجار ـ لا اذكر سببه ـ وجهت الفانية الى خلاله سبابا بذيئا ، واطلقت على لقب «ابن زنا حقير» . فلم اتمالك نفسى وقذفتها بأصيص زهر . واذ ذاك تقدمت نحوى ولطمتنى بشىء ما على مؤخرة عنقى ، ثم انشبت أظافرها فى انفى وعينى . فلم اشعر الا وقد اندفعت نحوها ، ثم القيت بها ارضا ، ورحت انهال ضربا ـ دون وعى ـ على وجهها وراسها . وبعد قليل ، اخذت زجاجة (ويسكى) وتسللت خارج مسكنها ، فى طريقى الى نادى (الجوكى) حيث استغرقت فى سبات عميق !

« ولما استيقظت من النوم ـ صباح اليوم التالى ـ وجدت بقعا من الدم تلوث يدى وملابسى .. فما أن عدت الى المعسكر حتى غسلت ملابسى كى ازيل عنها بقع الدم ، وقد شملتنى الحيرة بصدد مصدر تلك البقع . غير أننى ما لبثت أن قرأت ـ بعد يومين ـ فى احدى الصحف ، ان بغيا وجدت قتيلة فى حى (كيلبورن) ، فادركت على الفور اننى قتلتها ! »

يغتصب عجوزا .. فى الخامسة والستين !

• ثم اعترف دودال أيضا بقيامه بالسطو على ثلاثة منازل فى حى (تشيلسى) ، ومنزل من منازل الدعارة فى طريق (فولهام) ، وفندق فى شارع (بوند) . وقد ذكر ـ فى هذا الصدد ـ أنه تسلل الى مسكن وسرق منه زوجا من الأحذية ،

تاركا خلفه الحذاءين اللذين كان يرتديهما، واللذين كانا يحملان الحرفين الأولين من اسمه . **كما اعترف باعتدائه على امرأة فى الخامسة والستين من عمرها !..** اذ رفضت الرضوخ لرغبته ، فما لبث أن انقض عليها واغتصبها عنوة ، ثم انهال عليها بمحرك النار حتى قضت نحبها !!

ووصف طريقة قتله « فيرونيكا موراى » بقوله : « لقد مزقت ملابسها .. وفى أثناء الصراع الذى نشب بيننا ، لففت جوربا حول عنقها . فلما سكن جسدها ـ أخيرا ـ استوليت على النقود التى وجدتها بمسكنها ، وعلى زجاجة من الويسكى .. »

ثم أردف قائلا : « لقد قمت بكثير من « المهمات » غيرها ، ولكننى لا أذكر ـ الآن ـ أين وقعت بالضبط ! »

يعانى من .. مركب النقص

• **وبرر** « دودال » ارتكابه تلك الجرائم ـ التى كانت تشمل الكثير من حوادث القتل والسطو على المنازل ـ بأن زملاءه فى الجيش **كانوا ينظرون اليه نظرتهم الى شخص غير مكتمل الرجولة ، ومن ثم حاول أن يثبت لهم خطأ اعتقادهم فيه ..**

ومن قوله فى هذا الشأن : « ان زملائى يغذون فى الشعور بأننى شخص تافه .. لذلك كنت أفرط فى الشراب ، الذى كان يبث فى نفسى الاحساس بالأهمية !.. غير أننى مالبثت ان أدمنت الشراب بحيث لم أطق له بعادا . وعندما أثمل ، كنت أفعل كل ما يعن لى من نزوات ، ولا أحفل بنوع النساء اللاتى أصاحبهن !

« اننى مسرور الآن للقبض على ، وقد تحسنت حالتى النفسية كثيرا .. لقد شرحت لكم حالى والسبب الذى

ارتكبت من أجله هذه الجرائم . ولقد رغبت - منذ شهرين - فى أن أستشير أحد الأطباء ، علّه يجد لى علاجا ، غير أننى خشيت ألا يصدقنى ! »

يميل للتخريب .. منذ صغره !

• **وما ان** انتهى ممثل الاتهام من سرد وقائع الدعوى ، حتى استدعى الطبيب الشرعى ليدلى بشهادته ، فقال ان الاصابات التى وجدت بجسد القتيلة ، أحدثت بها بعد وفاتها . ثم أجاب على سؤال وجهه اليه ممثل الاتهام ، بقوله أن **العلامات الدائرية الصغيرة التى ظهرت على جسدها ، تشير الى وقوع اعتداء جنسى شاذ عليها !**

وبعد ذلك جاء دور ممثل الدفاع ، الذى كان عليه ان يثبت للمحلفين ان « دودال » كان يعانى نقصا عقليا ، جرده من الشعور بالمسئولية عن أعماله تجاه الآخرين .

ولكى يثبت ذلك ، استدعى شاهدة كانت تعرف القاتل فى طفولته ، هى « مارجريت كومبر » ، احدى عضوات مجلس المنطقة لرعاية الطفولة . وقدمت الشاهدة لهيئة المحكمة الملف الخاص بالمتهم فى المجلس ، والذى أثبت أن **حالته كانت تعد من الحالات المستعصية التى لا يرجى لها شفاء .** وقد وصفته احدى مدرساته بقولها انه كان : « جامحا .. لا سبيل للسيطرة عليه .. ميالا للتخريب ! » . ومما قالته الشاهدة ان شقيق « دودال » روى لها أنه أصيب بنوبة هستيرية - فى احدى المرات - فحاول أن يشعل النار فى منزله .

ثم جاء دور زملائه فى الجيش ، فاستدعى الشاويش « بيتر نورمان كلوتوارثى » بفرقة حرس (ويلز) ، المعسكرة

فى (بيترايت) لاداء شهادته . فقال انه كان احد المدعوين فى الحفلة التى اقامها « دودال » فى أحد الفنادق فى (جليفورد) ، بمناسبة عيد ميلاده الثامن عشر ، حيث جرع قدحين كبيرين من «الجين». واذ ذاك سأله القاضى : « ألم تشعر أن واجبك كان يحتم عليك أن توقفه ؟.. **ألا تعتقد أنه من الضار لفتى فى الثامنة عشرة ان يتناول هذا القدر من الخمر** ؟.. ألم تشعر بأية مسئولية نحوه ؟ » ، فأجاب « كلوتوارثى » بقوله : « كلا .. ما دام خارج المعسكر !»

وتلاه الأومباشى « رونالد هوبكنز » ، الذى عزز شهادة زميله عن كمية الخمر التى احتساها القاتل . وعندئذ سأله ممثل الاتهام « مستر مورتون » : « وهل خرج سائرا على قدميه ؟» .. فأجاب بقوله : « كلا ، بل حملناه الى الخارج! » .. ثم أردف ان دودال شرب قدحى « الجين » فى ساعتين !

ــ وماذا فعلتم به فى الخارج ؟

ــ وضعناه فى سيارة حتى المعسكر .

ــ وهل خرج فى « الطابور » ، صباح اليوم التالى ؟

ــ كلا .. لقد اصطحبته فى جولة على الأقدام !

واذ ذاك سأله القاضى : « هل ما زلت مصراً على القول أنه شرب كوبين من الجين ، خلال تلك الفترة القصيرة من الزمن ؟ » ، فأجاب : **((نعم))**

قائد الفصيلة .. كان يعرف !

• **واستدعى** للشهادة قائد الفصيلة الأولى لحرس ويلز ، فقال انه كان يعلم ــ منذ زمن طويل ــ ان «دودال» مصاب بانحراف ، وبما يمكن ان يطلق عليه « جنون العظمة » .. غير أنه يعتقد ان **هذا الجنون كان وليد كونه قصير القامة ،**

ضئيل الجسم ، واهن البنية ، ضعيف الشخصية . لذلك كان يحاول دائما أن يترك أثرا فى نفوس الآخرين ، لينظروا اليه نظرتهم الى شخص مهم !

واذ ذاك سأله القاضى : « لقد استمعنا الى ما أدلى به بعض الجنود ، وقد قالوا ان المتهم شرب كوبين كبيرين من الجين .. **فهل كنت على علم بذلك ؟ »**

ـ اعتقد ان ذلك حدث فى حفلة عيد ميلاده .

ـ لقد قال شاويش بفرقة حرس (ويلز) انه لم ير من واجبه ان يوقف حدثا فى الثامنة عشرة من عمره عن الاسترسال فى الشراب . **ماذا تعتقد انه كان يتعين عليه ان يفعله فى هذه الحالة ؟**

ـ لقد كان واجبه يحتم عليه ان يمنعه ، ما دام يعتقد انه قد أفرط فيه .

ـ الا توافقنى على أن شرب ذلك القدر من الخمر ، يعتبر افراطا ، من فتى لا يتجاوز ذلك العمر ؟.. **هل كنت تعلم ان الشاويش وقف مكتوف اليدين ولم يفعل شيئا لايقافه ؟**

واذ أكد الضابط انه لم يكن يعرف ، سأله القاضى : **«وهل كنت تقف مكتوف اليدين ، لو كنت مكانه ؟ »** .. فكان جوابه : « كلا »

كاد يشنق نفسه لجبنه !

• **وجلس** ـ بعد ذلك ـ كبير أطباء سجن (بريكستون)، على منصة الشهود . فقال ان **« دودال » كان مصابا بخلل فى قواه العقلية ، ناشىء عن عقدة نفسية ، جعلته لا يتلاءم مع المجتمع الذى يعيش فيه .** وكان من مظاهر ذلك انه تعرض للعقاب اربع مرات لتغيبه عن المعسكر دون اذن . وقبل أربع

سنوات ، وجه اليه شاويش فرقته تعنيفا قاسيا .. ولأنه **جبن عن مواجهة الحياة ، حاول ان يشنق نفسه .**

واستطرد الطبيب يقول ان « دودال » أفضى اليه – فى بداية اشرافه على حالته – بأنه اعتاد التردد على لندن فى كل عطلة آخر الاسبوع، ليجرع زجاجتين من المشروبات الروحية. وعندما ألقى القبض عليه ، ابدى ارتياحا بالغا ، اذ رأى فى سجنه انقاذا له من الادمان على الخمر .. وذكر الطبيب ان « دودال » كان يصف جرائمه بكامل دقائقها وتفاصيلها ، الا أنه **لم يستطع أن يلقى ضوءا بشأن العلامات الدائرية التى وجدت بجسد ((مس موراى)) والمرأة التى اعتدى عليها فى حى (فولهام) !**

وختم الطبيب شهادته بقوله : « اعتقد ان اصابته بفقد الذاكرة – بخصوص أحداث معينة – حقيقية وليست ادعاء أو تظاهرا .. لقد كان يعانى من الاعتقاد بأن الجميع ينظرون اليه بازدراء وعدم مراعاة ، مما ينطبق على من يصاب بخلل عقلى ناشىء عن مركب النقص » .

واذ ذاك سأله ممثل الاتهام عما اذا كان فى استطاعة فتى فى الثامنة عشرة من عمره ، ان يحتسى ملء زجاجة من الجين خلال ساعتين ، فرد بالايجاب ، وان استدرك قائلا ان ذلك يحدث أسوأ العواقب، وانه يشك فى ان «دودال» فعل ذلك!.. وأجاب على سؤال وجهه اليه القاضى ، قائلا ان الفتى كان يعانى خللا فى قواه العقلية ، جعله يتصرف – حتى فى حالة تمتعه بكامل وعيه – تصرفات غير طبيعية . وان هذا الشذوذ العقلى هو السبب فى تعطل احساسه بالمسئولية عن أعماله .

كذلك استدعى للشهادة طبيب نفسانى بأحد المستشفيات، كان قد عنى بعلاج « دودال ». فقال انه عند بحثه حالة المتهم،

وجده **مصابا بخلل عقلى وانحراف جنسى** . والمصاب بالخلل العقلى يتصف ـ عادة ـ بالرغبة فى الأعتـداء ، والاندفاع فى تصرفاته دون تروى ، والكذب ، والانحراف الجنسى ، والادمان على الخمر .. لايحدوه ندم أواحساس بالذنب ازاء مايصيب الآخرين من أضرار !

الخمر .. هل تبرر الجريمة

. **وبعد** كل هذه الاقوال ، شرح القاضى وقائع القضية للمحلفين بايجاز ، وقال ان عليهم ان يقدروا ما اذا كان «دودال» يعانى خللا فى قواه العقلية ، يجرده من الاحساس بمسئولية ارتكاب جريمـة القتل .. **فاذا اقتنعوا بذلك ، كان لهم ان يدينوه بتهمـة « ضرب أفضى الى موت » ، بدلا من جريمة « القتل العمد مع سبق الاصرار والترصد »** . اما فى حالة أخـذهم بقول « دودال » ذاته ، بأنه ارتكب جرائمـه تحت تأثير الشراب ، فى الوقت الذى كان ـ أثناء صحوه واحتفاظه بكامل وعيه ـ يتصرف تصرفا طبيعيـا ، فان **القانون لايرى فى السكر المبرر الكافى ..** فالشخص العادى ، المتمتع بكامل قواه العقلية ، اذا اندفع فى الشراب ، الى ان صـار فى حالة دفعته الى الاقدام على ارتكاب جريمة قتل ، لايجوز قبول الدفاع عنه بأنه فقد ارادته ، أو انه أقدم على فعلته بغير وعى .. اذ ان ماورد فى القانون الجنائى عن التجرد من الاحساس بالمسئولية ، لم يقصد به تبرير الجرائم التى ترتكب تحت تأثير الشراب .

وكان على المحلفين ان يضعوا فى اعتبـارهم ان اثنين من الاطبـاء النفسانيين عبرا عن رأيهما بأن **مجرد الافراط فى الشراب لم يكن الدافع له على ارتكاب جرائمـه ، فقـد كان**

يعاني – الى جانب ذلك – خللا فى قواه العقلية ، عطل احساسه بالمسئولية .

وختم القاضي كلمته بقوله : « غير انه من حقكم ان لا تتقيدوا باقوال الأطباء .. فاذا ما رأيتم ان تتمسكوا بقول المتهم ذاته – على أساس ان من الجائز ان يكون أكثر أدراكا لحالته – فان عليكم ان تصدروا حكمكم بادانته بارتكاب جريمة : القتل العمد مع سبق الاصرار والترصد » .

القاضي يحجزه وراء اسوار السجن

• **وقضى** المحلفون ثلاث ساعات يتداولون فى تفاصيل القضية . وما لبثوا ان عادوا الى قاعة المحكمة ، فاعلنوا قرارهم ، الذى يقضى بأن **«دودال » كان « مذنبا » بالنسبة لجريمة ضرب « فيرونيكا موراى » ضربا أفضى الى موتها ، « وغير مذنب» بالنسبة لقتلها عمدا ، على اساس تجرده من الشعور بالمسئولية .**

وما ان فرغ المحلفون من تلاوة قرارهم ، حتى طلب القاضى من « دودال» ان يقف ، ثم قال له : « نظرا لوقائع القضية التى عرضت امامى ، ارى انه **ليس مامونا ان اصدر عليك حكما بالحبس مدة من الزمن ، تخرج بعدها حرا طليقا ، حتى لو لم تكن بمثل الخطورة التى انت عليها الآن .**

« لذلك أشعر أنه يجب أن أصدر عليك حكما ، يمكن السلطات من احتجازك بين اسوار عالية ، الى ان يقتنعوا تماما من انك قد اصبحت فى حالة تسمح لك بالتجول – مرة أخرى – فى حرية ، بين اخوانك من بنى البشر ! »



الزحف الطويل

قصة الصين الحديثة



للأديبة الوجودية الفرنسية :

سيمون دى بوفوار

تلخيص وتعليق : الدكتور انور لوقا

كاتبة وجودية تشهد تطور الصين

• ((**سيمون دى بوفوار**)) اسم لامع فى الأدب الفرنسى المعاصر .. انها الكاتبة الوجودية الاولى .. حياتها تطبيق فذ لمبادىء هذه الفلسفة ، منذ زاملت « سارتر » فى دراساته العليا ، فتحررت من قيود بيئة متزمتة ، وانطلقت معه الى ميادين نشاطه المعروف ، تشاطره الفكر والعاطفة والصيت .. وقد انشأت عددا من القصص والابحاث الفلسفية والاجتماعية - لا سيما عن وضع المرأة بالنسبة للرجل - **وقامت بكثير من الرحلات فى بلاد اوروبا وامريكا وأفريقيا وآسيا** ، وعكفت اخيرا على نشر مذكراتها .. وقد لقيت كتبها الكثير من الرواج ، وترجم بعضها الى عدة لغات .

و ((**الزحف الطويل**)) - الذى ترجمه الاستاذ محمد كمال فايد - عنوان بليغ ، اذا رأينا البلاغة فى مطابقةالكلام لمقتضى الحال . فقد استعارت المؤلفة لكتابها عن تطور الصين الحديثة ، شطرا من قصيدة شهيرة نظمها رئيس جمهورية الصين نفسها ، الشاعر «ماوتسى تونج» ، ويترجمها البعض ب «المسيرة الكبيرة» . والمعنى واضح فى طول الطريق الذى قطعته القوى الثورية لتحرر الصين ، والنهوض بها من حضيض الفقر والهوان الى مراقى الكرامة الانسانية والهيبة الدولية . و «الزحف الطويل» عنوان بليغ من ناحية أخرى، اذا نظرنا الى حجم هذا الكتاب ، **وقدرنا أن ((سيمون دى بوفوار)) تدعو قارئها الى رحلة بعيدة المدى عبر خمسمائة صفحة ..**

على انه كتاب قيم شائق ، رغم ما يشوب بعض فصوله من

الأطناب والجفاف أحيانا . واذا كتب قلم « سيمون دى بوفوار » — وهى من أكبر عقليات عصرنا ثقافة وذكاء — عن التجربة التى تجتازها الصين الجديدة ، وهى من اعظم الأحداث وأجلها فى عالمنا الحاضر ، ينبغى ان نحتفل بالكتاب وأن نعيره من وعينا ما يستحق ..

« تعالوا وشاهدوا ! » ..

• وجه الطرافة فى الصين المعاصرة أنها — على الرغم من قيادة الحزب الشيوعى لثورتها — تختلف عن الديمقراطيات الشعبية الأخرى . فلم يتحقق من هذه الثورة سوى النصف ، وما زالت الرأسمالية والملكية الخاصة والكسب الفردى والتوريث امورا قائمة ، ولكن مصيرها الى الزوال تدريجا فى غير عنف .

ولقد اتيح للمؤلفة أن تنفق فى الصين ستة اسابيع ، بدعوة من الحكومة الصينية ، التى انتهجت سياسة اطلاع مفكرى العالم على تطورها ، منذ أصدر « شوين لاى » — أثناء انعقاد مؤتمر «باندونج» — نداءه المأثور : **« تعالوا وشاهدوا ! » ..** وتبادر الأديبة الوجودية الى أن تنفى عن نفسها شبهة التحيز للصين ومجاملة الحكومة التى استضافتها . انما هى تحاول أن تسجل مشاهداتها تسجيلا موضوعيا ..

واستكمالا لبحثها عن حقيقة الصين ، لم تكتف « سيمون دى بوفوار » بحصيلة ستة اسابيع من الزيارات المنتظمة ، والنزهات الحرة ، والمحاضرات ، والمحادثات ، والمقابلات المتعددة ، والمطالعات ، مما أمدها وهى فى الصين بمعلومات هامة .. بل مضت بعد عودتها الى باريس تسأل الاخصائيين ، وتقرا ما يرشدونها اليه من المراجع . **ولم تهمل — الى جانب ذلك — الالمام بالأدب الموجه ضد الصين الشعبية ، ومصدره**

« هونج كونج » ، التى تتلقى صحف الصين وتتسمع اذاعات راديو بكين وتتسرب اليها الأخبار والشائعات — عبر الحدود — ثم تصوغ من هذا كله نصوصا هادفة ، تستخدمها (فورموزا) وامريكا .

وبعد توضيح منهجها ذاك ، تعترف المؤلفة بأن كتابها « سيصبح غدا قديما » ، ولكنها تعى ان « التاريخ الذى تجرى الآن فصوله فى الصين تاريخ مشوق ، يثير من الشغف ما يحق معه أن تسجل اللحظات المختلفة التى تؤلفه » .

قصة فندق بكين

• وقصة فندق بكين — الذى أقامت فيه « سيمون دى بوفوار » — صورة مصغرة لتطور الصين . انه يطل على الشارع الرئيسى ، قبالة حى السفارات القديم . وهو يتألف من بناءين ، بكل منهما عشرة طوابق ، ولم يكن الجناح الجديد قد تم اعداده . وفضلا عن الأثاث المعهود من سرر ومناضد ومرايا ، يجد النزيل فى غرفته مذياعا ، وكمية من لفافات التبغ ، وبعض الفاكهة الطازجة ، وزوجا من النعال على السجادة . **وفى غرفة الاستحمام امام الواح الصابون المعطر ، شعرت بنت باريس بالخجل لما حرصت على ان تتزود به من الصابون قبل رحيلها** ، لا سيما وفى مدخل الفندق — وهو مظلم تنتظم فيه بأسلوب صارم موائد مستديرة ومقاعد من الجلد — حانوت يقدم لوازم الزينة وما اليها من اللعب والفواكه والفطائر والحلوى بأثمان زهيدة ، تستخدم البائعة فى حسابها عدادا من كرات الخشب !

اما مكتب الاستعلامات فيصعب عليك أن تستعلم فيه عن شىء ، لأن الحديث لا يجرى فيه الا باللغة الصينية !.. وبالفندق مكتبة تعرض صورا مطبوعة ومجلات انجليزية ،

وترجمات انجليزية لكتب صينية . وبه مكتب بريد وصالون للحلاقة وقاعات للعب الورق والبليارد ، وقاعة للحفلات تتسع لألف شخص .

وفى قاعة الطعام ، يلتقى مندوبون من جميع شعوب الأرض، فتسرح الاديبة الفرنسية بصرها بين باكستانيات وهنديات ملتفات بالساري اللامع ، وراقصات برمانيات فى ثياب حريرية مطرزة ، ويابانيين يرتدون الكيمونو أو الملابس الغربية، ومهندسين روسيين مع زوجاتهم الممتلئات وأطفالهم الشقر ، ووفود من نساء ايطاليا وألمانيا .. بل تلمح وفدا من الصم البكم التشيكيين يتبادلون الاشارات حول احدى الموائد !

وقائمة الطعام مكتوبة بالانجليزية ، والخدمة سريعة جدا ، تقوم بها نساء فى ميعة الصبا يلبسن سترات بيضاء ويربطن شعورهن القصيرة بشريط معقود ، وينجزن تقديم الوجبة فى نحو عشرين دقيقة . وبمثل تلك السرعة ترتب غرف النزلاء ..

أعجب نزوات السادة البيض

• **هذا** الفندق ـ الذى أصبح قلب تلك الحياة الدولية النشيطة ـ كان الى وقت قريب أحد مراكز الحياة الغربية: **بناه فرنسيون ، ثم امتلكه يابانيون ، قبل ان يؤول للصين..**

وفى صالونات الطابق العاشر ، كان ناد انجليزى فرنسى يشتد فيه صخب الرقص والشرب . وكانت احدى وسائل تسلية تلك الصفوة البيضاء، هى ان تنزل للتبول على الشرطى الواقف فى الساحة ، فهو لم يكن سوى صينى ، رغم زيه الرسمى !.. ولم يكن لهذا الشارع العريض الا نصف اتساعه، بينما كان يمتد حول حي السفارات سور تحميه المدافع الرشاشة .

ويصف الساحة رحالة فرنسي زار بكين سنة ١٩٣٤ ، فيقول : « أمام الفندق كانت فضلات قذرة ، ومتسولون قد اختلطوا برهط من الحمالين اصطفت عرباتهم وكأنهم ينتظرون استعراضا ، يبصقون ويستخرجون القمل من أبدانهم ويجأرون بأصوات كالعواء » !

أما اليوم فالساحة مكان لوقوف السيارات . ولا توجد في بكين سيارات أجرة ولا سيارات خاصة ، اذ جميعها تابعة للخدمات الرسمية . وهى من نوع « بوبيدا » الروسية ، أو « سكودا » التشيكية . على أن هناك بعض السيارات الانجليزية ، والأمريكية الفاخرة ، وهى ميراث خلفته حكومة « تشانج كاى شيك » ..

من الفقر الى الثروة

• **وحتى** سنة ١٩٤٩ ، كانت الصين — بعد أندونيسيا — أشد بلاد العالم فقرا . ففى ١٩٣٩ كان متوسط الدخل السنوى للفرد مقدرا بالدولارات : ٥٥٤ فى الولايات المتحدة ، ٢٨٣ فى فرنسا ، ٣٤ فى الهند ، ٢٩ فى الصين . وكان نصيب الصينى من الغذاء فى عامى ١٩٤٨ — ١٩٤٩ يقابل ٢٠ فى المائة من نصيب الفرد فى فرنسا . **وكان متوسط عمر الانسان يرتفع الى ٦٤ سنة فى الولايات المتحدة ، و ٦٢ سنة فى انجلترا ، بينما يهبط الى ٢٥ سنة فى الصين .**

ويردد ولاة أمور الصين : «نحن لا نصنع المعجزات» ، فلم تظهر الكهرباء والقوة المحركة وعربات النقل والآلات الميكانيكية من العدم بطريقة سحرية . وأول ما يلفت نظر الزائر هو مقدار الفقر الذى لا تزال عليه الصين الى اليوم . انهم يبنون عند أبواب بكين عمارات ومدارس ومستشفيات ومكاتب ، بدون آلات رافعة أو سيارات للنقل . وانما هناك

بعض العربات « الكارو » ذات عجلات يكسوها المطاط .. ومعظم المواد تنقل على ظهور الرجال فى طرفى قصبة تحمل على الكتف !

ومع ذلك فالصين ـ نظريا ـ بلد غنى، ومواردها الطبيعية لم تستغل بعد .. فلا يزال ٨٥ فى المائة من أراضيها غير مزروع ، لا سيما وادى (سيكيانج) الخصيب ، ويبلغ ثلاثة امثال مساحة فرنسا . وفى جوف الأرض الصينية كميات كبيرة من الفحم والبترول والحديد .. ويوم تمتلك الصين المعدات والطاقة اللازمة ، سوف تتفتح أمامها امكانيات ضخمة . اما الآن فثرواتها نائمة .

خطوات نحو التقدم ..

• **اجل** ، بمساعدة روسيا ، وبفضل المنشآت التى زودت بها اليابان منشوريا وقدر للصين ـ بعد ذلك ـ أن تستولى عليها ، وبحكمة التخطيط ومشروعات السنوات الخمس ، تقدمت الصين خطوات .. ففى الشمال الشرقى بدأت حركة التصنيع ، ولكن ما دامت الآلات لا تصنع محليا ، والمراكز الكهربائية لم تتوفر ، فستظل الصناعة الثقيلة عديمة الانتاج .

على أن الوفرة فى العمـــال تعوض عن نقص الآلات . وهذا هو سر ارتفاع الأبنية الجديدة فى ضواحى بكين بسرعة مدهشة . ان سكان الصين ليحسبون ضمن مواردها ، فهم قوة ضخمة للعمل .. ومع ذلك فالصين تشكو من أزمة البطالة . ولقد عمدت الدولة ـ لكيلا يظل الناس بلا عمل ـ الى أن تستخدم منهم أكثر مما يلزم. ففى عدد السكان حاليا زيادة ، غير منتجة ، ومع ذلك لابد من اطعامها . **ولن يتم التوازن قبل تنفيذ جميع مراحل النظام الذى بدا تطبيقه ..**

فاذ ذاك ستكفى المحصـولات التى تضـاعفها الجرارات والأسمدة وغيرها، قوتا للعدد المتزايد من الفلاحين والعمال. وسوف يتدفق الانتاج الصناعى فى سرعة .. وبين نهـاية برنامج السنوات الخمس الثالث ونهاية البرنامج العاشر ، يتوقع القائمون على أمر الصين تقدما يجعلها – فى نهـاية القرن العشرين – تضارع أكثر البلاد رقيا .

ولكن المشكلة الآن تتلخص فى اجتياز المرحـلة الأولى . فعلى الصين – لمدة خمسة عشر عاما ، ودون أن تطرأ عليها تحولات فنية هامة – أن تعول أبناءها الذين يتكاثرون من يوم الى يوم .. وتتقى الصين – فى ذلك – كل تأزم، وتحترس من نكسة الفقر ، وتنتهج عـــدم الاسراف ، والافادة من مستصغر الأشياء .. انهـا تتجنب الطفرة ، وتستند الى الماضى حتى تستخرج منه الحاضر .. لا تنبذه بل تعد له ، وتستبقيه الى أن يزول من تلقاء نفسه .

هل الصين بلد زراعى ؟

• **تاريخ** الصين هو تاريخ فلاحيهـا . **وعلى الـرغم** من امتداد المحيط حول الصين من الشرق والجنوب ، لم تنشأ فيهـا – كما نشأت فى حوض البحر الأبيض المتوسـط – حضارة بحرية كبيرة ، وانما ظل اقتصادها « قاريا » .

ودرج الفلاحون على اقتلاع الأشـجار ، فانعدمت ثروة البلاد من الغـابات ، كما تركوا أمر تربية الماشـية للرحل المحصورين فى الروابى . وقد طارت «سيمون دى بوفوار» فوق رقعة الصين ، كما اخترقتها بالقطار ، فراعها الا ترى المراعى والغابات ، والا تسـتعرض سوى مزارع الحبوب والبساتين الصغيرة !

ذلك أن الأرض الصالحة للزراعة لاتشغل الا ١٧ فى المائة

فقط من مساحة الصين ، ويتكدس فيها الفلاحون فتكتظ بالسكان . وتبلغ كثافة السكان اليوم ٣٦٥ نفسا فى كل كيلو متر مربع من الارض الجيدة ، ويرتفع الرقم الى ١٢٠٠ فى الصين الجنوبية . ولهذا لم يعرف الفلاح الصينى — رغم خصوبة الحقول — الا مستوى منخفضا من الحياة .

وثمة علة أخرى لفقره المتواصل ، هى الكوارث الطبيعية الدورية ، كالفيضانات والجفاف . وهكذا توالت على الصين مجاعات حصدت ملايين الفلاحين . غير أن هذا الاضطراب فى العوامل المؤثرة على الاقتصاد قد أدى الى ظهور فكرة الاصلاح الزراعى فى الصين منذ وقت مبكر .

اصلاح زراعى من أقدم العصور

• كانت الصين فى بداية تاريخها مجتمعا اقطاعيا ، يسخر الاشراف فيه الفلاحين ، ولا يبقون لهم من القوت الا ما يكاد يحفظ الرمق . فبات من المحال تخزين الغلال من عام الى آخر ، ومواجهة الكوارث الطبيعية . وسرعان ما فطن الأمراء الى وجوب تنظيم اقتصادى ، لأن البلاد لاتتمتع من الرخاء بالفسحة التى تخول لهم أن يستغلوها استغلالا فوضويا . ومنذ سنة ٣٥٠ قبل الميلاد ، وزع والى مملكة (تسن) الأراضى على المزارعين ، وفرض عليهم ضرائب تتناسب ومساحة حقولهم . وتعدد بعده من حاولوا أن يستبدلوا بسياسة الاهمال والارتجال نوعا من التخطيط .

ولكن هذا التخطيط كان قصير المدى ، هدف به الأباطرة الى الفائدة العاجلة ، لا الى توفير الأمان والرخاء اللازمين لاستقرار طبقة الفلاحين وزيادة الانتاج .. كان همهم الأول الاستكثار من الضرائب ، وانتزاع فرص الاستغلال والاحتكار من ملاك الأرض . غير ان اتساع رقعة الامبراطورية

حال دون تنفيذ القوانين العليا .. وظلت الأرض ألفى سنة كالكرة يتخاطفها الولاة وكبار موظفيهم ..

وفى العام التاسع بعد الميلاد ، وزع «وانج مانج» **الأرض من جديد على الفقراء** ، بمعدل ٥ هكتارات لكل أسرة ، وأعلن أن **المالك الوحيد هو الدولة** ، وأمر بتنظيم السوق وتحديد **الأسعار** واختزان الفائض من المواد الغذائية ، وتقديم قروض .. ومرة أخرى ، لم يكن الاصلاح خدمة للفلاحين ، وانما كان خدمة للحكومة ضد الاقطاع ، فلما قضت على احتكارات طبقة الأشراف ، وعلى التجارة ، اشتدت وطأتها على الزراع ، الذين وجدوا أنفسهم دون غوث ازاء القحط والفيضانات . وحدثت مجاعة أحالتهم الى أكلة للبشر ، والى ثوار . **وكانت ثورة هؤلاء الفلاحين – الذين اشتهروا بلقب « الحواجب الحمراء » – نهاية عهد « وانج مانج »** .

وظلت الارض تتأرجح بين الاقطاعيين وصغار الفلاحين ، **الى** ان قمع « **الكومنتانج** » حركات الفلاحين – **فى سنة ١٩٢٧** – ولم يترك « **تشانج كاى شك** » **الملكيات** الكبيرة تنشأ من جديد على حساب الملكيات الصغيرة فحسب ، بل عهد الى أصحاب العقارات بادارة الأرياف وبمهمة جباية الضرائب . وهكذا ولد اقطاع جديد ، وطغيان منكر .

مجتمع أساسه تقديس الأسرة

• **ووجد** ذلك النظام الاقتصادى الجائر دعامتين قويتين استند اليهما : البناء الاجتماعى للصين ، ونظرة أهلها الدينية للحياة . **فمن المعروف أن المجتمعات الزراعية تقوم على أساس الأسرة** . وفى الصين كانت الأسرة تخضع لسلطة شيوخها . وكانت القرية من رهط واحد – أى أن جميع أفرادها ينتمون الى جد واحد – والأسرة خلية لاتقبل

الانقسام ، وترتبط بأرض تملكها وتزرعها جماعيا ، وتعيش فى نظام من الاكتفاء الاقتصادى المصغر .

ولكن المقومات التى أدت الى الترابط بين اعضاء هذه الجماعة الصغيرة المنتجة على حدة ، جعلت الفرد عبدا لتلك الجماعة . ولقد قدست كل المجتمعات الزراعية آلهة تختص برعاية الأسرة ، غير أن «الكونفوشية» بالغت فى هذا الاتجاه فوطدت البناء الاقطاعى للأسرة .. وصاحبتها معتقدات تنسب للجماد ارواحا ، وتخضع الفلاحين فى حياتهم اليومية لالوان شتى من التنجيم والسحر ، والتحريم والتحليل ، كانت وبالا عليهم : كالتشاؤم من حفر الآبار فى شرقى القرية ، او فتح باب فى الحائط الجنوبى .. الخ .

ثورة الفلاحين ام العمال ؟

• **هل** الثورات الاشتراكية من صنع العمال وحدهم ؟

لقد اقر « لينين » انه فى بلاد الشرق ــ حيث تتميز الملكية الكبيرة لا بطابع راسمالى بل بطابع اقطاعى ــ ينبغى اعتبار صراع الفلاحين الاجتماعى عملا تقدميا . **وكان من اهم آرائه واطرفها فكرة تحالف طبقة العمال الثائرة مع طبقة الفلاحين الفقراء** .

واستوحى **((ماوتسى تونج))** حالة الصين ، فامعن الى ابعد مما ذهب اليه « لينين » ، ونادى بأن تكون طبقة الفلاحين هى العامل الرئيسى للثورة. فكان الاصلاح الزراعى فى الصين اول هدف سعى اليه الشيوعيون ، وكان توزيع الاراضى خير اداة استخدموها لضمان انتصارهم .

وفى سنة ١٩٣٥ أوقف التوزيع بقصد حث كبار الملاك على الانضمام الى جبهة المقاومة ضد اليابان . واقتصر الشيوعيون على تخفيض الدخل وتحرير الزراع من ديونهم .

ولكن المصادرات لم تلبث ان استؤنفت ، وقام « مؤتمر زراعى قومى» بوضع قانون صدر فى سنة ١٩٥٠ ، وبمقتضاه احتفظ الفلاحون الأغنياء من الأرض بالجزء الذى كانوا يفلحونه بأنفسهم . اما الأجزاء التى كانوا يزرعونها بايدى الأجراء ، فقد اخذت منهم ، ولم تمس حقول الفلاحين المتوسطين . واعيد توزيع الأراضى المصادرة بين فقراء الفلاحين .

حكمة الاصلاح الجديد

• تم هذا الاصلاح بأقل قدر من العنف ..مع الحرص على تجنب التسوية بين الفلاحين . **فقد اهتم فى جوهره بالانتاج ، فترك للفلاحين الأغنياء والمتوسطين مساحات من الأرض اكبر من تلك التى اعطيت للفلاحين الفقراء .**

وانتهى تنفيذ الاصلاح فى أغسطس سنة ١٩٥٢ ، فكان مجموع ما وزع ٤٧ ميلونا من الهكتارات ، انتفع بها حوالى ٣٠٠ مليون من الفلاحين ، أى ٧٧ فى المائة من المشتغلين بالزراعة . والأقليات الوطنية وحدها هى التى لم تتأثر بالقانون ، تشجيعا لها والتماسا لولائها .

وصاحبت تنفيذ الاصلاح عملية ايقاظ الوعى الطبقى عند الفلاحين . فصدرت التعليمات للموظفين بألا يستبعدوا الملاك مباشرة ، بل أن يوجهوا الفلاحين انفسهم الى التخلص منهم ، لاشعار هؤلاء المستضعفين بقوتهم ، واستئصال خوفهم من سيطرة النظام القديم . **ولكنهم فى الواقع كانوا خائفين ، من فرط ما اعتادوا الخضوع السلبى لسادتهم .** وتحول الخوف فى نفوسهم التقية الى شعور بالذنب ، فباتوا يخشون غضب السماء ، وواصل بعضهم دفع جزية سرية للمالك السابق !

وتعلمت الحكومة - من التجربة الطويلة فى المناطق المحررة - انه لايجب أن يثق المسئولون ثقة عمياء فى تلقائية مجموع الفلاحين ، **وهم فى درك من التخلف يمنعهم من الاجتراء على تقدير مصالحهم الخاصة** . ومع ذلك عمد الزعماء دائما الى أن يعتبر الشعب الصينى الثورة ثورته ، يقوم بها عن رغبة ، ويحصل على ثمارها بجهوده : فالحكومة لم تمنح الفلاحين أرضا ، وانما أعانتهم ببراعة فى الاستيلاء عليها . وهذا التعاون بين موظفى الدولة والشعب من أهم مميزات الثورة الصينية .

على أن القادة الشيوعيين لم يعتبروا توزيع الأراضى غاية فى حد ذاتها ، وانما اعتبروه مرحلة أولى من مراحل حركة ينبغى أن تفضى الى النظام الجماعى . وعندما تنمو فى البلاد طبقة عمالية ، وتتمكن الصناعة من وضع المحراث محل الفؤوس ، فسوف تلغى الملكية الخاصة ، وينسد الطريق المؤدى الى تركيزها وعودة الاقطاع .

والمشكلة الوحيدة هنا تنحصر فى اختيار الخطة . وهى مشكلة أساسها الوقت ، ويلخصها هذا السؤال : كيف السبيل الى بلوغ الهدف بأسرع ما يمكن وبأقل التكاليف ؟ وهل ينبغى للنظام الجماعى أن يصاحب استخدام الآلات فى الزراعة أم أن يسبقه ؟

الجمعيات التعاونية هى الخطوة الثانية

• **واتضح** أن الحل الثانى هو الأفضل : فلن يتم تعميم العمل بالآلات قبل عشرة أعوام أو خمسة عشر عاما ، يولد خلالها للفلاح الواحد عدة أولاد ، فتزداد أعباؤه ، على حين يظهر التفاوت فى المقدرة على العمل . وقد يضطر بعض فقراء الفلاحين الى بيع أراضيهم فتكبر ممتلكات المتوسطين

والأغنياء ، وهكذا ينشأ فقراء جدد ، ومتوسطون جدد ، وأغنياء جدد ، ويستأجر هؤلاء جهود أولئك ! .. **لابد اذن من الحيلولة دون العودة الى الاستغلال والراسمالية .**

ومن ناحية أخرى ، لابد من زيادة الانتاج . فما زالت الأراضى البكر خارج دائرة النشاط . وتفتيت الأرض ، وقلة الأدوات ، والمشاركة فى قطعان الماشية ، تعوق الفلاحين عن التوسع فى الزراعة . يجب تغيير هذه الأحوال .. على انه لن يتسنى للفلاحين تحسين أدواتهم الا اذا أصبحت مواردهم جميعا مشتركة . **ولن يستغلوا الأرض استغلالا منطقيا الا باتباع تخطيط جماعى ، فمن الضرورى اذن أن يتجاوزوا مرحله العمل الفردى .**

وهكذا تؤدى فكرتان مختلفتان الى خلاصة واحدة ، هى وجوب اتباع النظام الجماعى بأسرع ما يمكن ، لتلافى بعث الرأسمالية الريفية ، ولزيادة دخل الفلاحين والدولة . وبدأ الزعماء بالسعى الى بلوغ الهدف الثانى أولا ، واضعين نصب أعينهم أن يقتنع الفلاح بأن الجمعيات التعاونية وحدها هى التى تستطيع أن تقيله من الفقر .. فهى وحدها التى تسير به تدريجا نحو النظام الجماعى .

مراحل نظام التعاون

• **المرحلة الأولى هى** « فرق المساعدة المتبادلة » . وتلك وحدات كونها الفلاحون بعد الاصلاح الزراعى ، مبدؤها تجميع العمل — دون المساس بالملكية الخاصة — مما يتيح أمر تخطيطه. فمثلا ، كانت هناك قرية مؤلفة من ٢٣ أسرة ، تملك كلها ٣ جاموسات و٣ سواق (وكلها ملكيات خاصة) ، وكانت بعض الأسر تضم عددا من الرجال الأصحاء يزيد عن حاجة زراعة نصيبها من الأرض ، بينما تنقص الأيدى

العاملة فى أسر أخرى . **فادرك الفلاحون انهم اذا اشتركوا فى العمل ، استطاع الخمسة والثلاثون رجلا معا ـ دون خسـارة يتجشمها أحد ـ زراعة حقول القرية كلها .**

وبالفعل نظموا انفسهم أول الأمر لفترة الأعمال الضخمة ، واذا بمحصولهم يزداد ، فقرروا ـ فى العام التالى (١٩٥١) ـ انشاء فرقتين للمساعدة المتبادلة الدائمة . وراحوا يوزعون على كل أسرة حصة من الأجور ، مقابل كل حصة تؤدى من العمل .. ويتبع ذلك جزء معين من الارباح كذلك . أما الجاموس والسواقى فكانت تستخدمها الجماعة نظير احور معينة تؤول لأصحابها .

على أن المنازعات لم تلبث ان كثرت حول الأجور وتقسيم العمل . ونشب الخلاف بين موظفى الدولة والعناصر التقدمية وكتل الفلاحين .. وبعد مناقشات عديدة ، تقرر نصاب لمتوسط العمل ، روعى فى تحديده نوع الأرض ومساحتها . وادخل منهج مثله لتقدير الانتاج .

وفى تلك المرحلة الأولى ، يحتفظ كل فلاح بحق الرقابة التامة على أمواله .

وأما المرحلة الثانية ، فهى الجمعية التعاونية على نمط يسمى « شبه اشتراكى » .. وفيها تحترم الملكية ، ويكون الانتفاع بالريع مشتركا. **وهنا تعتبر الأراضى الخاصة جزءا من مال الجماعة ، ولكن الفلاح يتقاضى دخلا دوريا عن الماشية والأدوات التى تفرضها الجمعية .** وهو يستطيع ـ متى شاء ـ أن ينسحب ، وأن يسحب ماله .

ويقدر العمل الذى يؤديه كل امرىء بعدد من الأسهم مع مراعاة الوقت والانتاج . وتوزع الأرباح بين أعضاء الجمعية بنسبة رأس المال العقارى الذى قدمه كل عضو ، وعدد الأسهم التى نالها ، ويخصص جزء من الأرباح لشراء السماد

والآلات ودواب الحمل وما الى ذلك . وعلى الأعضاء الجدد – عند التحاقهم بالجمعية – أن يدفعوا اشتراكا يشترون به الحق فى الانتفاع برأس المال الذى قد تجمع من قبل ، وهو فوق ذلك بمثابة صندوق التأمين .

وقد بدأت هذه الجمعيات التعاونية فى الانتشار منذ ١٩٥١ . وتأنى المسئولون فى تعميمها ، خشية اثارة عداء الفلاحين ، وهم يحبون العهد الذى جعل منهم ملاكا ..

فى قرية تعاونية

• **وقد** زارت « سيمون دى بوفوار » عدة قرى تعاونية (شبه اشتراكية) فى شمال الصين. فأعجبت فيها بالنظافة، وبأن جميع القرويين يرتدون ملابس قطنية زرقاء محترمة .. والبيوت متشابهة ، بنيت من آجر يخالطه القش ، يسبق كل بيت فناء حوله سياج من الطين ، وعلى الأرض – التى عنى بكنسها – كانت الذرة تجفف .

والفلاحون لا يعرفون الجوع الآن .. انهم يأكلون الذرة البيضاء مسلوقة ، والخضر والشعرية ، وخبزا من أجود أنواع القمح ، وعجائن من فول الصويا. .وفيما ندر ، شيئا من اللحم والبيض. وليس فى بيوتهم كهرباء ،ولكنهم يسمعون اذاعة بكين من أجهزة للراديو ذات بلورات من كبريتات النحاس . وكثير من الفلاحين يملكون الدراجات .

وقد بنوا بيوتا من الحجر لتكون مقرا لجمعيات البيع التعاونية ، وأخرى لاسكان من لم تعد بيوتهم مأوى صالحا. واشترت الجمعية التعاونية مضخات لتيسير أعمال الرى . والضرائب معتدلة (١٢٪من الايرادات) . والاسعار مستقرة. وعند الحاجة ، تقدم الدولة قروضا بلا أرباح . وللفلاحين صندوق «أغاثة» لاعانة المرضى والطاعنين فى السن ، وعلاج

طبى مجانى . انهم لا يعرفون الرخاء بعد ، ولكنهم نالوا شيئا ثمينا هو الحياة الآمنة .

فى قرية اشتراكية

• ثم زارت المؤلفة قرية تتبع احدى جمعياتهم التعاونية ذات النظام « العالى » .. أى اشتراكية خالصة ، وهو شيء مازال نادرا . **والفرق بينها وبين الجمعيات التعاونية شبه الاشتراكية ، أن المالك لايتقاضى تعويضا عن الأرض التى يقدمها للجمعية ، وتحتسب الأرباح على أساس العمل الذى يؤدى فقط** .. وفى هذا مجلبة للخسارة بالنسبة لأصحاب الحقول الواسعة الجيدة التربة . ولكن هذه الخسارة تعوض بالزيادة فى الانتاج . ومع أن الأرض تظل ملكا للفلاح ، ويستطيع أن ينسحب وأن يسترد ماله ، الا انه يفقد كل علاقة خاصة بأرضه طالما ظلت فى نطاق الملكية الجماعية ، وطالما ظل هو عضوا فى الجمعية التعاونية . ومحظور على الجمعيات التعاونية استغلال جهد الغير أو استئجار العمال الزراعيين لأمد طويل ، أو عقد صفقات على الأرض أو على البذور . **وتدل الاحصاءات ـ فى هذه الناحية ـ على تضاعف الانتاج بفضل هذا التنظيم ، كما تدل سعة البيوت واناقة السيدات هنا على ارتفاع مستوى الحياة** .

واستقت « سيمون دى بوفوار » من رئيس الجمعية التعاونية ـ وهو فتى شديد الحيوية والذكاء ـ المعلومات التالية : الانتاج موضوع برنامج اجمالى وبرنامج تفصيلى . فالسماد يوزع بطريقة تكفل تنظيم الخصب تبعا لحاجة كل جزء من الأرض . وبدلا من أن يقوم كل امرىء بجنى محصوله من الشاى ، يتركز الجميع فى المناطق التى يبلغ فيها النبات درجة النضج اللازمة . وتخصص الأراضى لزراعة الأرز أو

الشاى أو الحبوب حسبما تصلح له . ولوضع برنامج العمل فى كل فصل ، يعتمد القوم على الخبرة السابقة ، ويقترح الأعضاء ما يرون ثم يتناقشون . ولتوزيع الارباح ، يتبعون تقدير حصص العمل ، اذ تقدر كل مجموعة فى نهاية اليوم عمل كل من أفرادها مع مراعاة الكم والكيف .

وتتجلى فائدة التنظيم الجماعى ايضا فى غرفة التجفيف. ومعظم القرى لاتملك بعد مصانع لتجهيز الشاى . فالشاى الأخضر ــ وهو أعم فى الصين من الأسود ــ يمتاز بأنه لايتخمر . والصينيون يحمصونه تحت درجة حرارة عالية. وفى هذه القرية يضعونه فى دنان توقد تحتها نار دائمة ، ويقلبونه بالأيدى ليلة كاملة . ومثل هذا العمل فى الانتاج الفردى يحتاج الى شخصين على الأقل ، أحدهما يغذى النار بالوقود والآخر يحرك الشاى . وأما هنا ، فيكفى لثمانية أحواض تسعة أشخاص بدلا من ستة عشر ، اذ يتولى الاشراف على الجميع شخص واحد . هذا الى جانب الاقتصاد فى المكان ، لان الاحواض كلها تشغل غرفة واحدة .

وفى القرية جمعية تعاونية للمبيعات ، ومركز صحى تقيم فيه ممرضة تهتم بحالات الوضع والتطعيم والأمراض غير الخطرة . ويقوم طبيب بعيادة القرية دوريا ، وفى الحالات العاجلة يذهب اليه رسول بدراجة ليدعوه .

وتتسلم دور الحضانة الأطفال ريثما تعمل الأمهات فى الحقول. وتنظم دروس للأميين وأخرى لغير الأميين، وتقدم فرقة مسرحية حفلات فى الأعياد .. كما حوربت الخرافات الضارة، والعادات غير النافعة . وأفلحت حملة الاصلاحات التفصيلية فى رفع مستوى الحياة الريفية .

ربط الزراعة بالصناعة

• **وتشجع** الدولة الفلاحين – فى نطاق لا يزال ضيقا – على استصلاح الاراضى . وفى برنامج « التنمية الزراعية » بيان المشروعات التى يجب أن تتم بين عامى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، وهى انتاج المحاريث الآلية الحديثة ، والأسمدة ، والمضخات، ومحاربة أمراض الحيوان والنبات . ولكن الحكومة ترى أن التعمير لا يؤتى ثماره الا فى اطار التنظيم الاشتراكى . ولهذا، انطلقت حركة كبيرة قبل تنفيذ البرنامج – سنة ١٩٥٥ بالتحديد – للتعجيل بالنظام الجماعى .

ولا ينفصل التنظيم الاشتراكى الصناعى عن التنظيم الاشتراكى الزراعى . وما أشد تداخل قطاعات الانتاج : فان كلا من الصناعة الثقيلة والخفيفة والزراعة ، من الترابط بحيث لا تستطيع احداها ان تنمو بمعزل عن الأخريين . وفى القطاع الزراعى الآن مفتاح الانتاج بجملته ، فهو الذى ينبغى أن يتطور باحلال الانتاج الآلى العظيم المدى محل الانتاج اليدوى .

وينبغى أن تدر الزراعة جزءا كبيرا من رؤوس الأموال الضخمة اللازمة لاتمام التصنيع والتطوير الفنى للزراعة نفسها . والى جانب الضرائب الزراعية المباشرة ، يجب تنمية انتاج مايحتاج اليه استهلاك الفلاحين للمصنوعات التى تقدمها الصناعة الخفيفة ، ومبادلة هذه المصنوعات بالغلال والمواد الأولية التى يقدمها الفلاحون ، وذلك لسد الحاجات المادية لدى الفلاحين ولدى الدولة على السواء .. غير أن تنمية الصناعة الخفيفة على نطاق واسع لا يمكن أن يتحقق على قاعدة من الاقتصاد الريفى الصغير ، بل يفترض زراعة تعاونية واشتراكية تزيد قوة الفلاحين الشرائية .

والفلاحون الفقراء - وهم يمثلون مايتراوح بين ٦٠و٧٠ فى المائة من طبقة الزراع - فى حاجة ماسه الى التنظيم الجماعى . ولم يصدر « ماوتسى تونج » - فى دعوته الى التعجيل بهذه الحركة - عن تفكير نظرى ، بل لقد قام أولا بجولة طويلة فى الريف ، وخالط الفلاحين وناقشهم ، ودرس الوضع عن كثب ، فاقتنع بأن « التعجيل » لم يكن ضروريا فحسب ، ولكنه كان ممكنا أيضا .

واوضح « ماوتسى تونج » أن الهدفين المقصودين - وهما اغناء الدولة باغناء الفلاحين ، والصراع ضد الرأسمالية - مرتبطان ارتباطا وثيقا .

وكان برنامج السنوات الخمس يقدر أن الجمعيات التعاونية ستضم - فى سنة ١٩٥٧ - ثلث طبقة الفلاحين . فاذا بها تتعدى هذا الرقم بكثير !

ثورة خضراء .. لا ثورة حمراء !

• **من الخطأ** تشبيه الثورة الصينية بالثورة الروسية . صحيح أن الاولى تستمد الالهام من الثانية ، ولكن فى نطاق استخلاص دروس تحول دون تكرار ما وقع فى روسيا من الأخطاء . وقد ميز « ماوتسى تونج » منذ سنة ١٩٤٩ بين المرحلة الديمقراطية والمرحلة الاشتراكية للثورة الصينية ، كما بين أن المرحلة الثانية ستتم دون عنف .

وتختلف ظروف الصين عن ظروف روسيا . فالجمهورية الصينية ليست بنت الهزيمة ، بل هى بنت النصر .. لم تطاردها فى بدايتها الجيوش البيضاء ، بل عضدتها حليفة قوية هى روسيا . وظل الفلاحون مدة سنين فى المناطق المحررة يتعاونون مع الجيش الأحمر ، الذى تتألف صفوفه كذلك من الفلاحين . والحق أن الفلاحين هم الذين ارادوا

الثورة وصنعوها ، فحررتهم من السخرة ، وأعطتهم الارض دون مقابل سلبى . وكان الزعماء ذوى جذور ضاربة فى طبقة الفلاحين ، فقد ناضلوا فى أحضانها ، ولهم بمشاكلها خبرة صادقة ، ومكنتهم تجارب الحرب الأهلية من وضع سياسة تلائم الأوضاع ، وتستجيب لتطوراتها بحدس مرهف . لذلك عندما اشتط فى البدء بعض موظفى الدولة - بدافع من غيرتهم - حيل بينهم وبين الشطط . وتوخى المسئولون السير بخطوات وئيدة ، حذرة ، لا تحيد عن مكان الشعب . **ولا يجد الزعماء داعيا لتجريد هؤلاء الفلاحين الاغنياء من الملكية ، لكسر شوكتهم .. بل يكفى لالغاء امتيازاتهم أن يغتنى مجموع الفلاحين .** ولسوف تؤدى معونة الدولة للجمعيات التعاونية ، والمزايا الفعلية للعمل المنظم جماعيا ، الى اضعاف هؤلاء الفلاحين الأغنياء ، لا سيما حين تصبح الزراعة ميكانيكية . فلكى ينتفعوا بالجرارات والآلات الزراعية ، سيضطرون الى الالتحاق بالجمعيات التعاونية . وسوف تقبلهم الجمعيات اذ ذاك ، لأنهم سيعدمون وسائل الاضرار بها .

سر النجاح : الحرية لا الاكراه

• **وأهم** ما ينبغى ادراكه ، هو ان نجاح العهد الجديد - فى الصين - يرجع الى حرص الحكومة على تنفيذ أمر هام .. **هو أن الانضمام للجمعيات التعاونية يجب أن يكون اختياريا .**

ولا تستلهم الحكومة هذه السياسة من مجرد مبدأ نظرى - هو احترام الحرية - بل انها لتعرف واقعيا ، ومن التجارب ، ان الاكراه لا يأتى بنفع .

ذلك أن الاقتصاد الصينى - فى مستواه الحالى - لابد أن يحسب أعظم حساب للعامل البشرى . ولقد صيغ النظام صياغة دقيقة ، بحيث يتضخم فيه الكسب الضئيل ، فان

كيسا واحدا من الأرز يعد صاحبه بشراء محراث ، ولكن كل خسارة قد تؤدى الى انتكاس حركة تعميم الآلات . **انه نضال من أجل الرخاء بالأيدى العارية ، تتوقف نتيجته على عمل كل فرد ، وينبغى أن ينبع من قلب كل فرد ..** اذ يستلزم نجاح النظام الجماعى أن ينضم الفلاح الى المنظمة، وأن يعمل عن رغبة حرة واقبال شخصى . ولذا عمد مؤتمر الحزب الشيوعى الصينى ـ سنة ١٩٥٦ ـ الى بث هذا النداء : ((**لا اكراه !**)) والسلامة فى التأنى ، والشرح ،والاقناع، واكتساب تأييد النفوس .

التصنيع واجب لابد منه

• **والآن** يسيطر على اقتصاد الصين ـ وهى البلد الزراعى ـ امر واحد .. هو **التصنيع** . وترسم ارقام الميزانيات السنوية المتتالية هذا الاتجاه بوضوح : **فالصين تستخدم الثروة التى تحصل عليها من أرضها لخلق الصناعة الثقيلة الضرورية لاكتفائها الذاتى ورخائها المقبل .**

ولما كان الشعب سريع التكاثر ، لم يكن بد من زيادة الغلة الزراعية .. وهذا التقدم ـ وخاصة استصلاح الأراضى الجديدة ـ يستلزم المحاريث الآلية ، وسيارات النقل ، والآلات الرافعة ، ومد الطرق والسكك الحديدية ، والترع .. وتلك حاجات ضخمة لا تكفلها المعونة السوفييتية التى لا يمكن أن تعتبر سوى تمهيد . على الشعب ـ وهو مئات الملايين من البشر ـ أن يعتمد على نفسه. ولو عدلت الصين عن التصنيع لظلت عالة على الاتحاد السوفييتى ..

ويتميز الاقتصاد الاستعمارى بالجرى وراء الكسب العاجل . ولذلك لا يهتم باعداد عدة البلاد التى ينهشها ، ولا يرمى قط الى تنمية صناعة ثقيلة بها .. وهكذا عمد الأجانب

فى الصين الى انشاء مصانع لانتاج بعض ما يستهلكه أهلها عامة من أنواع الغذاء ، والكبريت ، والمنسوجات . وكان توزيع هذه المصانع بطريقة غير معقولة ، فهى لم تقم حيث موارد المواد الأولية والسوق الداخلية ، وانما انتشرت متطرفة فى الموانىء البحرية التى أمر بانشائها الغربيون ، وخاصة فى (شنغهاى) .

وادى هذا التدخل الاقتصادى الى ظهور فئة بغيضة من الوسطاء . فقد كان الغربيون عاجزين عن التعامل مباشرة مع العمال الصينيين ، وهم يجهلون لغتهم .. **ولم يتورع الوسطاء عن اعتصار الصينيين وخداع الغربيين فى آن واحد ، فكدسوا الأموال ، ثم اشتروا آلات لحسابهم ، وتحولوا الى رجال صناعة !**

وكانت الامتيازات الأجنبية تحمى المغامرين الدخلاء ، ممن يشترون بأبخس الأثمان الايدى العاملة المتوفرة . ولم تتخذ الحركة العمالية صورة جلية الا منذ سنة ١٩١٨ ، اذ أيدها الشعب كله ، وقد ضاق بالغربيين واليابانيين . وكان ١٤٠ ألف عامل قد اشتغلوا فى أوروبا أثناء الحرب العالمية الأولى، فأذكى اتصالهم باخوانهم فى الغرب ثورتهم على أوضاعهم ومهانتهم ، وتمردوا فى شنغهاى ، وعضدتهم مظاهرات الطلبة، وطالب « الكومنتانج » ـ الذى رأسه « صن يات صن » زعيم الثورة ـ بتطبيق ثلاثة مبادىء : استقلال الوطن ، والديمقراطية ، ورفاهية الشعب . وتعاون الحزب الشيوعى ـ الذى تأسس سنة ١٩٢١ فى شنغهاى ـ مع «الكومنتانج» .

الاستعمار يحارب العمال

• **وسرعان** مانمت النقابات ، وبلغ الكفاح أشده ـ لاسيما فى شنغهاى ـ سنة ١٩٢٥ ، حيث اشتدت الملاحم بين العمال

الساخطين ورجال الشرطة الانجليز . واشترك فى الاضراب عمال المدينة كلها ، بل انضم اليهم أصحاب العمل الصينيون، وعدد من رجال المصارف وكبار الضباط ، ونادوا بالغاء الامتيازات الأجنبية . **على أن رد الغربيين كان سهلا : كانوا يملكون المحطات الكهربائية ، فقطعوا الكهرباء عن المصانع الصينية** . وتخلى أصحاب العمل عن الكفاح شيئا فشيئا.. وهكذا بدأت البورجوازية الصينية تخشى القوة التى تمثلها طبقة العمال ، ورأت فى الرأسمالية الأجنبية حليفا أقل خطرا عليها ، ففضلت مهادنته !

وعندما مات « صن يات صن » ، استقر زعماء « الكومنتانج » — وجميعهم من أنصار الشيوعية — فى (هان كيو) ، وكلفوا قائدهم العسكرى «تشانج كاى شك» باخضاع الصين كلها . وبينما كان جيش « تشانج » يزحف نحو شنفهاى ، خرج عمالها (٦٠٠ ألف) تحت قيادة « شوين لاى » ، فاحتلوا مراكز الشرطة ومخازن الذخيرة وثكنات الحامية ، **وأعلنوا حكومة الشعب . واستقبلوا « تشانج » يوم ٢٢ مارس ١٩٢٧ بفرحة الظفر** .. غير أن الملاك العقاريين ، وكبار التجار ، ورجال الصناعة ، أخذهم الخوف ، واذعنت وطنيتهم لمصالحهم الطبقية ، فراحوا يفاوضون « تشانج » ، فانقلب على أصحابه الشيوعيين .. ونشر حكم الارهاب !

وانحدرت حياة العمال الى الحضيض . أهدرت حقوقهم ، وبلغ الاستغلال بهم أبشع مراحله .. واستفحل فساد الصحة وفساد الأخلاق بينهم !

والى جانب عمال المصانع ، كانت توجد طبقة عمالية ترتزق من الشحن أو من جر العربات . هؤلاء كانوا على شفا المجاعة دائما ، يبذلون جهدا عضليا ، ولا يتناولون

الغذاء الكافى ، فيفترس السل معظمهم .. وفى كل عام كانت شنغهاى تجمع من شوارعها نحو عشرين ألف جثة !

ولم يكن الأطفال موضع عطف .. كان الطفل يعمل ـ منذ الخامسة من عمره ـ لقاء أجر تافه .. ولكنه ضرورى للأسرة ! .. وفضلا عن الأبناء الذين كانوا يواصلون العيش مع آبائهم ، كان هناك كثير من الأحداث يشتريهم المقاولون والوسطاء من الفلاحين مقابل لقمة العيش ، ويفضلون جلبهم من المناطق التى يصيبها القحط . وكان مديرو المصانع يستخدمونهم دون أجر لأربع سنوات ، متذرعين بأن ذلك نظير ما قدموا من نفقات . وكانوا يغذونهم بأطعمة فاسدة ، ويؤونهم فى عنابر ضربت عليها الرقابة ليلا حتى لا يتمكنوا من الهرب .

فترة الانتقال : استعانة الثورة بالراسماليين

• **وشل** حركة العمال هذا العجز الذى فرض عليهم ، فكان دورهم فى الثورة الأخيرة دورا ثانويا .

فلما تمت هزيمة اليابان ـ سنة ١٩٤٥ ـ استقر «الكومنتانج» من جديد فى شنغهاى . ووافق الغربيون على الغاء المعاهدات غير المتكافئة والامتيازات الأجنبية . ولكن الشيوعيين القليلين الذين هتفوا ضد الحكومة أعدموا . لقد سبق للعمال أن أخضعوا المدينة سنة ١٩٢٧ ، وأنشأوا جيشا شعبيا للاشراف عليها . **أما فى سنة ١٩٤٩ فقد ظلوا هيئة سلبية ، وكان الفلاحون عماد الجيش الأحمر الذى حرر شنغهاى .**

وفى سنة ١٩٤٩ صرح «ماو تسى تونج» بأن «البورجوازية القومية ـ فى المرحلة الحالية ـ ذات أهمية عظمى .. ولابد للصين من أن تدعوها الى المساهمة فى الكفاح المشترك» .

وكانت سياسة التعاون مع الرأسماليين تنطوى على أخطار محققة ، الا أن الحكومة الشعبية وضحت مذهبها : « نريد الغاء الرأسمالية لا الرأسماليين » .. **وانتهز بعض الأثرياء «فترة الانتقال» ليواصلوا سعيهم الحثيث فى سبيل الاستئثار بالأرباح . ودفعتهم حرب كوريا ـ اذ ذاك ـ والأمل فى انهزام الاشتراكية ، الى أن يخلعوا كل تحفظ ..** فكثرت أعمال التعدى والغش ، واختلسوا من موارد الدولة ـ لاسيما من الضرائب المفروضة عليهم ـ مبالغ طائلة ، لم تلبث الحكومة ان اضطرتهم الى ارجاعها ، كما ضربت بشدة على أيدى الموظفين المرتشين الذين تواطأوا معهم .

ومع ابقاء الحكومة على الرأسمالية ، الا انها لا تثق بها ثقة عمياء ، بل تسيرها وراءها فى مدار أحكمت حلقاته ، بحيث لايدع لهم مجال الاختيار أو الانحراف الى مثل فساد الماضى .. فضلا عن انها لم تقعد عن المضى فى سبيل الاشتراكية : فهى لم تستبق اباحة المشروعات ولا المنافسة . والقطاع الخاص نفسه مخطط ومراقب .

تنظيم القطاع الخاص .. وتصفيته

• **وما أبلغ** الأرقام الواردة فى هذا التنظيم الذى مهد للاشتراكية ! .. أصبح على ١٥ فى المائة من المؤسسات ـ التى تمد نفسها بالمواد الأولية وتبيع الأفراد جزءا من منتجاتها ـ أن تلبى الطلبات التى تأتيها من الدولة . **وفى ٨٥ فى المائة من الحالات ، تكفلت الدولة بتقديم المواد الأولية ، على أن تكون هى العميل الوحيد ، وأن يشترك مندوبوها فى الادارة ، وأن توجه خطة الانتاج .**

ولم تحدد الأرباح بصورة ثابتة ، فاذا أبرمت الوكالات التجارية للدولة عقودا مع الصناعات الخاصة ، نصت على

نسبة ارباح تتراوح بين ١٠ و ٣٠ فى المائة . وتقسم الأرباح اربعة أقسام :

(١) جزء تستغرقه الضريبة التصاعدية ، قديصل الى ٣٠ فى المائة من صافى الدخل . ولكن الضريبة تنخفض على الفروع التى تؤدى للبلاد خدمات ممتازة .

(٢) جزء يضم الى المال الاحتياطى .

(٣) جزء يخصص لتحسين معيشة العمال ومكافاتهم .

(٤) يحتفظ صاحب رأس المال بـ ٢٥ فى المائة من الأرباح . وله - كما يشاء - أن يستثمر نصيبه هذا من جديد أو أن يقبضه .

وبعض السلع - عندما تخرج من المصنع - تفرض عليها « ضريبة تحول » ، كالسجاير والنبيذ والكبريت .. كما يخضع غيرها لضريبة أخرى عند البيع . وعلى الأعمال التجارية - بالنسبة لبعض المشروعات - ضريبة معينة .

وظل انتاج القطاع الخاص أبطأ منه فى الميادين الأخرى . ولذلك قررت الحكومة - فى ختام سنة ١٩٥٥ - التعجيل بتصفيته ، لاسيما والتخطيط فيه كان كثير المشاكل .. وفى يناير ١٩٥٦ احتفلت بكين بدخول «المجتمع الاشتراكى» اى بالغاء القطاع الخاص . وفى شنغهاى أطلقت الصواريخ والمدافع فى ٢١ يناير ابتهاجا بنهاية عهدالمؤسسات الخاصة . ثم امتدت الحركة الى سائر ارجاء الصين .

ويمثل اختفاء القطاع الخاص خطوة كبيرة فى طريق الاشتراكية . ولقد اشتدت الرقابة ودعم التخطيط . على أن هناك مشروعات مشتركة يمكنها أن تشمل حتى ٨٥ فى المائة من الاستثمارات الخاصة ، أى أن رأس المال لم يختف بعد . ويقدرون أنه لابد من انقضاء خمسة عشر عاما أخرى لكى يصبح الاقتصاد بتمامه اشتراكيا .

ومع ذلك ، لم يكتم الزعماء أن الاشتراكية كانت هدفهم الأخير ، وأنهم انما أبقوا على رأس المال بقصد الفائه ، فلم يكن فى سياستهم نفاق . وأما رجال الصناعة – وسيتمتعون ببعض الامتيازات خمسة عشر عاما أخرى – فقد أذعنوا لمصيرهم المقبل ، وهو خدمة الدولة بوصفهم موظفين ذوى مرتبات .. ويدعوهم الى الاذعان ، أن الجيل الجديد لا يود استعادة تراث الآباء ، فقد تشبع بالمبادىء الاشتراكية .

ويعجب الاشتراكيون ، فى العالم كله ، بحذر الحكومة الصينية . فقد ضمنت – بأقل التكاليف – تعاون البورجوازية الذى لا غنى لها عنه ، وسارت سيرة تمكنها من تجريدها تدريجيا من ممتلكاتها ، دون التجاء الى العنف والخسائر .

حياة العمال

• **طبق** الصينيون فى بلادهم رأى « ستالين » القائل بأن بناء الاشتراكية يقتضى تفاوتا نسبيا فى الأجور .. وقد كتب « ماوتسى تونج » ، فى سنة ١٩٢٩ : « التسوية المطلقة تنبع من نفس الأصل الذى تنبع منه الديمقراطية المتطرفة فى السياسة ، ألا وهو خيال الفلاح المالك الصغير . ولا يمكن ايجاد مساواة مطلقة ، لا فى المرحلة التى تسبق تحطيم الرأسمالية فحسب ، بل وفيما بعد » .

واليوم تحتل ضرورات العمل المكان الأول ، وتتلاشى فكرة المساواة المطلقة أمام اعتبارات الفاعلية . فالعامل ذو المؤهلات ينال اجرا أكبر من أجر العامل اليدوى . ولما كانت الصناعة الثقيلة فى الصدارة ، فقد أصبحت الأجور فيها أعلى منها فى الصناعة الخفيفة .

ولقد تحسنت حال العمال ، فأصبحوا يرتدون ملابس محترمة ، ولا تبدو عليهم سمات سوء التغذية . غير أنهم لا

يتمتعون جميعا بالمسكن المريح . فهناك مدن عمالية حديثة - زارت المؤلفة إحداها فى (موكدن) - تضم ٧٠٠ أسرة ، وينقسم كل مسكن فيها الى غرفتين ومطبخ ودورة مياه .. وبكل من الغرفتين سرير عريض يتسع لأربعة أو خمسة اشخاص . وفى (شنغهاى) شاهدت مدينة العمال المسماة بـ (قريه النبع العذب) التى تؤوى ٤ آلاف اسرة ، فى بيوت من طابقين أو ثلاثة ، تتخلل صفوفها الحدائق ، وتشمل مدرستين ابتدائيتين ، ومدرسة ثانوية ، وروضة أطفال ، ومكتب بريد ، وثلاث أسواق ، وجمعيات تعاونية ، وصيدلية ، وخطى « أوتوبيس » عدا سيارات المصانع التى تنقل العمال من بيوتهم وتعيدهم اليها .. وان كان معظمهم يملكون الدراجات . وأولية الالتحاق بهذه المدينة لصفوة العمال ، ثم لمن يعانون السكنى فى أكواخ القش أو القوارب . وفضلا عن هذه المدن - التى مازالت قليلة - تحاول الحكومة اصلاح أحياء العمال القديمة ، بادخال المرافق الصحية اليها وتنظيفها .

واسبوع العامل الصينى ٤٨ ساعة ، قد تزيد ساعات اضافية باسم ((العمل الطارىء)) . ويجرى العمل طبقا لنظام دورى بحيث يستريح كل فرد يوما فى الأسبوع ، ولا يتوقف المصنع قط . وتبلغ عطلات الأعياد ثمانية أيام فى السنة .

ولئن كان العامل قليل الراحة ، فقد ظفر بشىء جديد هو ((الطمانينة)) : التامين ضد الحوادث والمرض والشيخوخة. يجب أن تدفع ادارة المصنع ٣ فى المائة من مجموع المرتبات - دون خصمها من الأجور - لصندوق التأمينات الموضوع تحت تصرف النقابة . وفى حوادث العمل ، يعالج العامل مجانا ولا ينقطع مرتبه ، فاذا أصيب بعاهة مستديمة

تقاضى معاشا لا يقل عن ٦٠ فى المائة من مرتبه . وفى حالة مرضه يتكفل المصنع أيضا بعلاجه ، مع دفع مرتبه له كاملا مدة ستة شهور ، ثم مخفضا الى ٦٠ فى المائة ثم ٤٠ فى المائة . ويتراوح المعاش ـ ابتداء من سن الستين ـ بين ٥٠ و ٧٠ فى المائة من المرتب ، تبعا لطول مدة الخدمة . وتتقاعد النساء عن العمل فى سن الخمسين .. وفى المناجم والمصانع الشاقة العمل ، ينخفض سن التقاعد الى ٥٥ سنة للرجال و ٤٥ للنساء .

وللعاملات عطلة ٥٦ يوما عند الوضع ، الذى يتكفل المصنع بنفقاته كما يمنح الأم علاوة . وقد ألحقت بكثير من المصانع حضانة مجانية .

ويحظى العمال فى الصين بامتياز آخر جديد ، **هو تمكنهم من مواصلة الدراسة فى الفصول المسائية ، لرفع مستواهم الفنى وبالتالى المعيشى . فلم يعد بينهم أميون .** ومن حق الناجحين فى الدراسات الأولى أن يمنحوا أجازة ـ لمدة ثلاث سنوات ـ بمرتب كامل للتخصص ، يدخلون بعدها ضمن هيئة الموظفين .

ويعترف المسئولون بأن مستوى حياة الشعب الصينى فى جملته غير كاف . ولكنا اذا ذكرنا استحكام الفقر فى البلاد سنة ١٩٤٩ ، ومدى بؤس العمال فى الجيل السابق ، وجدنا الموازنة بين معيشة العامل هنا ومعيشة العامل فى الغرب غير ذات معنى . انه أسعد من عمال آسيا بوجه عام !

الحريات العمالية

• **ومشكلة** العلاقة الصحيحة بين المصلحة العاجلة للفرد والمصالح الآجلة للمجتمع ، تثور أمام الناظر فى

الحريات العمالية . ان الدور العظيم الذى لابد أن تضطلع به طبقة العمال فى اقامة الاشتراكية ، ومسئولية هؤلاء الملايين الثلاثة نحو الستمائة مليون صينى يعللان الحد من هذه الحريات . **فما هى حقوقهم المعترف بها ؟ وما السبيل التى يضمنون بها أن تحترم هذه الحقوق ؟**

تقول الدولة ان صراع الطبقات لم ينته ، ولا ينبغى أن يتصف بالعنف .. انها الآن صاحبة اليد العليا على الانتاج كله — بالتأميم — وتؤكد ان العامل يعمل اذن لمصلحة البلاد باكملها ، أى لنفسه ، ومن غير المعقول أن تدخل ارادته فى صراع مع حاجات الانتاج .

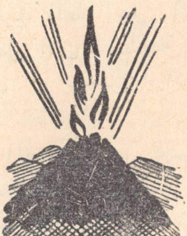
ومن نتائج هذا المذهب الرسمى أن العمال ليس لهم حق الاضراب . فاذا نشب نزاع بين العمال والمسئولين تولى حله « مكتب العمل » ، فان فشلت مساعيه عرض الأمر على المحكمة الشعبية ، التى تتخذ القرار الأخير . أما النقابات فتهتم بمسائل التأمين والمعاش .

وتختتم «سيمون دى بوفوار» حديثها بهذه الخلاصة :

« اذا كان مما لاشك فيه أن استزادة العمال من رغد العيش والحرية شىء ضرورى ، فمن الحق — مع ذلك — أن نؤكد ان نظام الحكم القائم قد غير فعلا حياة العمال من حال الى حال . لقد أصبحت «الحيوانات الآلية» بشرا .. والمبدأ المتبع رسميا مبدأ حقيقى فى جملته ، الا وهو أن العامل يعمل لنفسه . والأمر لا يحتاج الى غير ايجاد العلاقة العادلة بين مصالحه العاجلة ومصالحه الآجلة .. »

وفى العدد القادم نواصل تلخيص فصول هذا الكتاب .

الخالدون

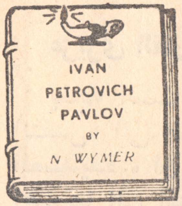


عظماء .. فى غير السياسة

عزيزى القارىء ..

فى الأعداد السابقة قدمت لك فى هذا الباب قصص حياة : «لويس باستير» .. و«اميل زولا» .. و «ماركونى» .. و «تشايكوفسكى» .. فـ «مصطفى كمال» .. ثم «شوبان» .. و «جى دى موباسان» .. و «مختار» و «تشارلس ديكنز» و «بيتهوفن» و «موسولينى» و «شيلى» .. و «بلزاك» و «بودلير» و «دستويفسكى» و «جيته» و «موليير» و «كونفوشيوس» و «الكسندر ديماس» و «ميكيل انجلو» ثم «ارسطو» و «اينشتين» و «فولتير» و «بيكاسو» و «البرت شفايتزر» وغير هؤلاء من الخالدين فى شتى ميادين الأدب ، والطب ، والاختراع ، والفنون .. الخ

وفيما يلى أقدم لك قصة حياة عالم كان له فضل تعاون الطب مع علم النفس فى خدمة الانسانية ..



إيڤان بيتروڤيتش بافلوف

الفلاح الذى كان أول فائز بجائزة "نوبل" للطب

للكاتب الانجليزى المحقق: نورمان وايمر



عزيزى القارىء :

يتجه الطب العلاجى الحديث الى التعاون مع « علم النفس» الى أقصى الحدود.. **فقد أثبتت البحوث والتجارب العديدة ، أن كثيراً من الأعراض المرضية ، قد ترجع فى أصولها الى انفعالات نفسية** ، فان الانفعالات قد تؤثر على بعض الغدد فتؤدى الى اختلالها ، ويترتب على هذا الاختلال أعراض أمراض جسدية فعلا .. بل ان من العلماء اليوم ، من يذهب الى القول بأن أمراض «الروماتيزم» ، و «السكر»، ونضوب القوى والنشاط .. بل وبعض عوارض القلب ، مردها الى الانفعالات النفسية ، فى كثير من الحالات ..

ولكن .. الى من يدين العلم والانسان ، بهذا الكشف العظيم الأثر ؟

لفريق من الرواد فى ميادين العلم .. رواد أوتوا من بعد النظر ، ومن طول الاناة ، ومن حب العلم والبحوث العلمية . ومن الروح الانسانية الدافعة الى تخليص البشر من الآلام .. رواد اوتوا من كل هذا ، ما حفزهم الى ارتياد المجهول ، والى كشف غوامضه !

ومن هؤلاء الرواد ، العالم الطبيب الروسى « ايفان بيتروفيتش بافلوف » .. الذى وهب نفسه للعلم - فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر - واستطاع ان يكشف عن حقائق هامة عن الجهاز الهضمى وعملية الهضم عند الانسان، وعن الجهاز العصبى ، وعن علاقة هذين الجهازين بالمخ .. وعن تأثير كل هذا على السلوك لدى الانسان والحيوان !.. **وفتح بذلك أبواب دراسات واسعة أدت الى تحسين أساليب علاج مرضى الأعصاب .**

ولكن .. ولكن قيمة « بافلوف » لا تقتصر على كشوفه

العلمية - من طبية ونفسية - فحسب .. بل لقد كانت حياته هو ، حياته الخاصة ، سلسلة من النضال والجهاد الدائبين ، تغذوهما عزيمة جبارة ، لا تنثنى امام الظروف والعقبات .. **كانت حياته مثالا لكل شاب يريد أن يصبح شيئا مذكورا ، بالنسبة لنفسه ، وبالنسبة لأمته .. وبالنسبه للانسانية جمعاء !**

على أن تحمسي لهذا العالم ، يجب أن لا يغرينى على أن أطيل فى الحديث عنه ، لأدع لك فرصة التعرف عليه خلال الصفحات التالية ..

واحد .. من احد عشر ابنا !

• **لو ان** الانسان استشير - قبل ان يهبط الى الحياة - فيما اذا كان راغبا فى ان يولد ، لفضل « ايفان بيتروفيتش بافلوف » ان يبقى فى باطن الغيب.. فقد كانت الظروف التى فتح عينيه عليها ، حين ولد - **فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٤٩** - ظروفا كئيبة ، بائسة ، تبعث القنوط فى أى نفس !

تفتحت عيناه - اول ماتفتحتا - فى بيت أقل من متواضع، فى بلدة نائية - الى الجنوب الشرقى من (موسكو) - هى بلدة (ريازان) ، التى كان ابوه قسا لكنيستها .. وكانت روسيا - فى ذلك العهد - ترزح تحت اثقال التأخر ، والفقر ، فلم يكن قس الكنيسة - لاسيما وهى كنيسة بلدة صغيرة نائية - يحظى بشىء من أطايب الحياة ..بل انه كان لايحظى بما يكفل له العيش الضرورى !

ولم تكن هذه كل المتاعب .. بل كان هناك ما هو أشد

وأنكى ! .. **كان القس من الصنف الولود ، فلم يكد «ايفان» يهبط الى الوجود ، حتى اتبعه بعشرة اولاد آخرين ..** ولولا ان القدر أشفق عليه ، لكانت طامته اكبر من كل وصف . ولكن القدر ساق اليه الموت ، فاختطف ستة من الاولاد الاحد عشر ، وهم بعد فى باكورة العمر !

وكان من الطبيعى ان ترهق كل هذه المرات ـ من حمل وولادة ـ زوجة القس المسكينة ، فاذا بها تذبل وتضعف ، حتى اذا اعوزها العلاج والرعاية ، وسط هذا الفقر المدقع ، رقدت مريضة .. وظلت بقية عمرها راقدة تحت براثن المرض !

قس .. وفلاح .. ومحب للاطلاع !

• **ولعل** النعمة الوحيدة التى جادت بها هذه الظروف على الأب ، انها لم تدع له فرصة كى يتأمل أحواله ، فقد كان مجبرا على ان يجاهد جهاد الابطال ، فى سبيل توفير الكفاف لأسرته .. القوت الذى لايكاد يسد غائلة الجوع .. فما بالك بالكساء لهذه الأجساد النحيلة ، التى كان سوء التغذية يضاعف من عجزها عن احتمال التقلبات الجوية القاسية !

لذلك كان القس ـ فى غير ساعات العبادة ـ يلجأ الى رقعة صغيرة من الارض ، تابعة لكنيسته ، فيعمل فى زرعها ، عسى ان يستنبتها ما يستعين به .. **فاذا وجد بعد ذلك دقائق من الوقت ، انصرف الى القراءة .. فقد كان ذكيا ، مفكرا ، مشغوفا بالاطلاع .**

وليس من شك فى ان ابا كهذا ، بطلا ، مناضلا ، مكافحا .. كان مثلا ساقه القدر للصغير « ايفان » .. مثلا يراه فى كل لحظة ، ويعيش فى احضانه ، ويستوعب تصرفاته وجهاده



ايفان بافلوف

فيختزنها فى اعماق نفسه ـ وهو لايدرى ! ـ لتكون له ، فى مستقبل ايامه ذخيرة تدفعه هو الآخر فى طريق النضال !

ولقد كان « ايفان » فى صغره صبيا يميل الى الخجل .. تعود شظف العيش منذ مولده ، واضطرته ظروف الحياة القاسية ـ عندما شب عن الطوق ـ الى ان يساعد أباه فى فلاحة رقعة الارض .. وأدى هذا التعاون الى توثق رابطة قوية بين الأب وابنه ، كان فيها خير عزاء لكل منهما !

وبفضل هذه الرابطة عنى الأب بأن يعلم ابنه مبادىء القراءة والكتابة ، ثم راح يدربه على الاطلاع على الكتب التى تزيد من معلوماته ، وتوسع آفاق تفكيره .. وكان يحمله على قراءة الكتاب مثنى وثلاث ، اذا هو لم يستسغه ، أو عجز عن فهمه فى المرة الاولى . ومن هنا تعلم « ايفان » ان يقرأ ليستنير ، وان لايدع مايقرأه حتى يكون قد فهمه واستوعبه .. وساعده تفتح ذهنه ـ بهذا الشكل ـ على ان يكتسب

عقلية مدققة ، محبة للاطلاع والمعرفة ، تواقة للدرس من اجل الدرس ذاته ، لاطمعا فى كسب او جزاء .

كل ذلك ، و « ايفان » لم يطو الأعوام الثمانية الاولى من عمره !

ولعله كان مسوقا الى ان يعيش فى بلدته المتواضعة ، فلاحا ، واسع الاطلاع ، محبا للدرس فحسب .. لولا حادث وقع له ، فى العام الثامن من حياته . اذ سقط من فوق جدار ، فهوى على ارض صلبة ، واصيب بأضرار جسيمة ، حتى انه ظل فترة لايستطيع ان يتنفس بسهولة ، وحتى لقد خشى ابواه ان تكون رئتاه قد اوذيتا ايذاء يؤثر عليه مدى الحياة ..

عافية للجسم والعقل .. فى الدير

• **ولكن** الحادث لم يتسبب فى ايذائه .. بل انه — على العكس — كان لصالحه . فقد كان له «اشبين» كهل طيب ، راهب فى أحد الأديرة ، **لم يكد يسمع بما أصاب « ايفان » الصغير ، حتى أصر على ان يأخذه ليقيم معه فى الدير ، فيرعاه ويعنى بصحته ..**

ومع ان الراهب الزاهد كان يقنع بكسرة من الخبز يبلها بالماء ، الا انه راح يغدق على الصبى طعاما طيبا ، وتوفر على علاجه حتى استرد عافيته ، ودربه على الوان من الرياضة أصبح بفضلها يستخدم رئتيه اتم استخدام ، كما استطاع ان يقوى عضلاته واعصابه .

ولقد عرف « ايفان » للراهب الشيخ فضل رعايته ،

فراح يتطلع اليه فى اكبار ، ويصغى فى اهتمام تام لكل ماكان يقوله له . ولما كان الراهب يعكف على العمل دائما ، فلا يسمح لنفسه بالركون الى الخمول ، **فان ((ايفان)) حرص على ان يقتدى به . . كما أخذ عنه بساطته وتواضعه وازدراءه للمادة** . . وهكذا لم يلبث ان صار للراهب تأثير روحى على الصبى فاق ماكان لأبيه من تأثير !

وحرص الراهب — كما حرص القس بافلوف ، من قبل — على تشجيع «ايفان» على القراءة ، والاطلاع ، والاستيعاب **. . فقضى الشطر الاكبر من العامين اللذين عاشهما فى الدير ، غارقا بين الكتب . وتعود ان يقرأ فى بطء ليستوعب كل كلمة** . . وبلغ من شغفه بما كان يقرأ ، انه كان ينطلق فى جنبات الدير ، يروى للرهبان اطرافا من قراءاته . . فلم يكن من اشبينه الا ان أتى له بدفتر ، وقال :

— اليك هذا ، اسرد فيه كل ما تقرأ ، حتى لاتزعج سواك . . وفى كل يوم ، سأقرأ ماتكون قد كتبت فى اليوم السابق .

يلحق باقرانه فى المدرسة

• **وهكذا** اصبح ((ايفان)) يحرص على الجلوس الى دفتره ، قبل ان يأوى الى فراشه — فى كل ليلة — فيروى ما يكون قد قرأ ، بأسلوبه الخاص . . وفى صباح كل يوم ، كان الراهب الشيخ يقرأ معه ماقد كتب ، ويصحح له مايكون هناك من اخطاء اسلوبية . **وبذلك علمه كيف يكتب ، وكيف يعبر عما فى نفسه وفى ذهنه . وقد كان لهذه الدروس اثر كبير فى حياته المدرسية ، فيما بعد .**

ولقد كان من جراء الحادث الذى وقع لايفان ـ وهو فى الثامنة من عمره ـ أن لم يتسن له الذهاب الى المدرسة قبل ان يناهز الحادية عشرة.. وقد التحق ـ فى بادىء الامر ـ بالمدرسة الكنسية الثانوية فى (ريازان) ، حيث كان اخواه اللذان يصغراه ـ دميترى ، وبيتر ـ قد سبقاه .. **ثم التحق بالمعهد اللاهوتى لاعداد القساوسة والرهبان .. واستطاع بجده وذكائه ان يلحق بزملائه فى السن !**

وفى المعهد ، تأثر « بافلوف » ايما تأثر بالمؤلفات العلمية للكاتب والناقد الروسى الكبير « بياريف » ، وبنظريات « تشارلس داروين » . كما استهواه علم الطبيعة . وقد اعتاد ان يناقش زملاءه ـ اثناء سيرهم فى ساحة المعهد ، او فى طريقهم الى بيوتهم ـ فيما كانوا يدرسون من نظريات علمية ، فكان يعرب عن آرائه فى قوة تعبير واقناع .. وكان يغيظه ان يقاطعه أحد قبل ان يتم حديثه .

البحاثة الصغيرة فى اكاديمية الطب

• وفى سنة ١٨٧٠ ، نزح « بافلوف » الى (بطرسبورج) التى تحمل الآن اسم (لنينجراد) ـ ليلتحق بجامعتها ، كى يدرس العلوم الطبيعية .. **وكان قد أصبح شابا نحيل الجسم ، طويل القوام ، تبدو عليه سيماء الجد والرزانة .** وما لبث « دميترى » ـ الذى كان قد سبقه الى الدراسة فى المدرسة الكنسية ـ ان لحق به فى الجامعة بعد عام ، فأقاما معا فى مسكن رخيص ، متواضع ، فى افقر أحياء المدينة . وراحا يقتصدان فى نفقاتهما ما استطاعا الى

الاقتصاد سبيلا . **فكانا يأكلان فى ارخص المطاعم ، ويستهلكان قدرا كبيرا من الخبز، يثقلان به معدتيهما لأن الخبز كان يقدم فى المطاعم دون مقابل !**

وكان « ايفان » يذكر ـ كلما اضناهما العيش الضنك ـ زهد الراهب الشيخ وقناعته ، فسرعان ما يستهين بما كانا يعانيان ..

وأصبح « بافلوف » دقيق الملاحظة ، قديرا فى كلامه .. واتجه الشطر الاكبر من اهتمامه الى «الفسيولوجيا» .. علم وظائف الاعضاء . وفى عامه الثالث فى الجامعة ، قرر ان يصبح طبيبا . ولم يمض عليه طويل وقت ـ فى تخصصه ـ حتى قام بأبحاث فى الاعصاب والغدة البنكرياسية ، فاز من أجلها بميدالية ذهبية . **ثم فاز فى سنة ١٨٧٥ باجازة العلوم ، فالتحق بالاكاديمية الطبية العسكرية ـ فى سانت بطرسبورج ـ لينال اجازة الطب .**

وفى العامين الأولين ، شرع « بافلوف » فى بعض أبحاث مستقلة ـ فى معامل الاكاديمية ـ على دورة الدم فى الكلاب .. ولم تكن ثمة معلومات كثيرة عن هذا الموضوع ـ اذ ذاك ـ وان قدر لبافلوف ان يثبت ، فيما بعد ، انه ذو أهمية خاصة لعلم الطب فى مجموعه ..

يشغل ببحوثه عن شهادة الطب !

• **واستطاع** « بافلوف » ان يكشف ـ فى تلك الابحاث ـ عن عدة حقائق جديدة عن تغير ضغط الدم . وأظهر اصالة فى آرائه واساليبه العلمية ، فابتكر أسلوبا فنيا جديدا ، أكثر

دقة وفائدة ، فى البحوث الفسيولوجية .. ففى الماضى ، كان الحيوان الذى تجرى عليه التجارب والابحاث يخدر كى لا يتألم . **ولكن الاسترخاء الذى كان يحدثه التخدير فى العضلات والاعصاب لم يكن يمكن من الوصول الى مشاهدات أو استنتاجات دقيقة** . فابتكر « بافلوف » طريقة لاجراء البحوث على الحيوانات ، دون تخديرها ، ودون تعريضها للألم .. وجعل من تأثر الحيوانات ، ورد فعل ما يجرى عليها ، مادة للدراسة تؤدى الى نتائج أكثر دقة وصوابا .

واعجب أساتذة الاكاديمية بالبحاثة الشاب ، فعهدوا اليه بمعمل جديد انشىء ملحقا بالعيادة الطبية . وكان المركز ثقيل العبء بالنسبة لشخص لم يؤت خبرة كافية . ولكن « بافلوف » لم يجفل من المسئولية .. والى جانب الاشراف على الطلبة وجهودهم فى المعمل ، أقبل على دراسات دقيقة واختبارات لعمل القلب ، وقام ببحوث عديدة على الحيوان .. كما قام ببحوث فى عدة أمراض باطنية . وقد شغل بهذه البحوث ــ لعدة سنوات ــ عن أجازة الطب التى كان يسعى اليها ..

يستدين ليتزوج .. عندما عرف الحب !

• **على أن** حياة « بافلوف » لم تمض جافة على طول الخط .. اذ لم تكد تنقضى بضعة أشهر على توليه الاشراف على ذلك المعمل ، حتى التقى بالحب .. التقى به ممثلا فى « سيرافيما كارتشيفسكايا » .. **وكانت فتاة لطيفة ذكية ، خفيفة الظل والحركة ، متدينة .. وكانت تصغره بخمس سنوات .**

ولقد أعجب « ايفان » بالفتاة ، منذ رآها لأول مرة .. بيد انه كان شديد الحياء ، فلم يؤت جرأة يكشف بها عن شعوره ، الا بعد ان انقضى حوالى عامين على تعارفهما .. ففى احدى ليالى شهر يونيو — من عام ١٨٨٠ — استجمع جرأته ، وعرض على « سارا » — كما كان يحلو له أن يدعوها — أن تقبله زوجا .. وأجابته الفتاة لفورها ملبية . وكانت سعادتهما فى تلك الليلة جامحة ، حتى انها شغلتهما عن كل شىء ، **فراحا يسيران فى الشوارع ، ويتحدثان عن مستقبلهما .. وعندما فطنا الى نفسيهما ، وجدا ان الساعة كانت قد بلغت .. الرابعة صباحا !**

واذ كان « ايفان » لم يحصل بعد على اجازة الطب ، فان دخله لم يكن يكفى لنفقات عيشه .. ولكنه لم يشأ أن يجعل الفقر حاجزا بينه وبين الحياة مع حبيبته .. وقبل أن يكتمل عام على تكاشفهما بالحب ، اقترض النفقات اللازمة للزفاف من أحد أصدقائه ..

واحتفلا بعقد قرانهما فى أول مايو سنة ١٨٨١ .. وبينما كانا راكعين — فى الكنيسة — جنبا الى جنب ، همس اليها : « من أجل ماذا تصلين ؟ » فهمست مجيبة : « من أجل سعادتك ! » .. فقال : « وأنا أصلى من أجل سعادتك ! »

حياة زوجية مليئة بالمتاعب والوفاء

• **وكانت** « سارا » خير عون ورفيق لبافلوف .. كان الانكباب على العمل يرهق أعصابه ، فكانت تحتمله لأنه — فى أويقات أخرى — كان مفرط الرفق والحب والحنان ..

وكان يثور لأتفه الامور ، ثم لاتلبث أن تنجاب عنه نوبة الغضب ، فيقبل على زوجته معتذرا ، سائلا الصفح .. وكان أحيانا يبدى انصرافا عن « سارا » ، اذ كان ينهمك فى بحوثه ، وقد استغرقته الرغبة فى أن يؤدى خدمة جليلة للانسانية ، وان يستغل علم الطب فى تقديم مساعدة صادقة لتخليص البشر من الآلام والمرض .. وكلما تقدمت به السن، كان يزداد استغراقا فى بحوثه ، وجريا وراء بغيته ..

على أن « سارا » كانت تغفر له هذا ، اذ كانت تدرك نبل غايته .. شىء واحد ما كانت لتغتفره له ، لولا حبها الفياض .. ذلك هو أن « بافلوف » كان شديد الغيرة ، حتى أنه حال بينها وبين اداء الواجبات الاجتماعية ما لم يكن هو بصحبتها!

كان كثير التناقض ، لا يسهل فهمه .. فهو – فى اويقات – ضيق الصدر ، سريع الغضب .. وفى أويقات أخرى ، بالغ اللطف والرقة .. وكان اذا أغرى بترك عمله ونسيان تجاربه ينقلب شخصا حلو المعشر ، مرحا ، حفيا بزوجته الى أقصى حدود الحفاوة ..

ولقد كان من حسن حظه ، ان كانت زوجته عاقلة ، حكيمة ، محبة .. ومن ثم فان زواجهما كان سعيدا موفقا. وقد أنجبا أربعة أولاد وبنتين ، ولكنهما فقدا الابن الاكبر ، وهو بعد طفلا ..

على أنهما – فى الأعوام الاولى من زواجهما – عانيا كثيرا من الضيق ، لقلة دخل « ايفان » ، حتى أنهما اضطرا الى السكن فى ذات المسكن الرخيص الذى كان « ايفان » يقيم فيه – قبل الزواج – مع أخيه.. وكانت لسارا شقيقة راحت تساعدهما

ـ بين الحين والآخر ـ ببعض المال ، ولكن مساعداتها كانت تقصر عن سد حاجات الزوجين ، **حتى أنهما كان يضطران ـ فى بعض الأحيان ـ الى أن يقيما منفصلين ، فينزل كل منهما ضيفا على بعض الاصدقاء ..** وكانت فترات الانفصال هذه ، تثقل على « سارا » ، وتملأها قلقا وهما . ولكنها كانت تسرى عن نفسها بقوة ايمانها وتدينها ، وتمنى نفسها بأن كل شىء لابد أن يتحسن يوما !

محاضر فى الكلية العسكرية

• **وبعد** عامين كاملين من زواجهما ، نال «بافلوف» اجازة الطب . فذهب الى ألمانيا ليوسع خبرته بالعمل تحت اشراف اثنين من كبار علماء الطب . ثم عاد الى الاكاديمية الطبية العسكرية ـ فى سانت بطرسبورج ـ حيث شرع يحصل على راتب صغير ، ظل قاصرا عن سد نفقات حياته !.. **ومن غريب المتناقضات فى شخصيته ، أنه ـ برغم شدة حاجته ـ لم يكن يقيم للمال وزنا ،** حتى أنه حصل ـ ذات مرة ـ على أجر اضافى ، فأقرضه صديقا .. ولم يعد الى مطالبته به ، كما استمرأ الصديق أن ينساه !

لذلك كان أفضل مسلك انتهجه ، أن عهد الى زوجته بالمسائل المالية ، فدبرت شؤونهما بأقصى اقتصاد ممكن .. حتى أنها كانت تعد له الشطائر فى الصباح ، ليتفادى تناول غداءه فى مطعم .. **وظلت ـ طيلة حياتهما الزوجية ـ هى التى تعنى بثيابه ، وتبتاع له ما يلزمه من كساء !**

وفى سنة ١٨٩٠ ، بدأ الحظ يبتسم لهما ، اذ رقى «بافلوف» رئيسا لقسم كبير فى الاكاديمية ، حيث كان يقضى الشطر

الأكبر من وقته فى القاء المحاضرات على الطلبة .. ولم يزعجه شىء قدر اضطراره الى أن يرتدى الزى العسكرى عند القاء المحاضرات .. فهكذا كانت تقاليد الاكاديمية الطبية العسكرية **.. على أنه كان يجد فى المحاضرات متعة تنسيه كل المضايقات،** فكما كان يقول : « انك حين تحاول ان تلقن غيرك شيئا ، تزيد من معرفتك ، لانه لا سبيل الى ان تعلم سواك ما لاتكون متفقها فيه .. ثم ان الانفعال الذى يصحبه القاء الدروس ، يوحى اليك دائما بأفكار جديدة ! »

مثال للاستاذ الجامعى ..

• **وكانت** كثير من آراء « بافلوف » جديدة ، ومثيرة لتلاميذه ، فسرعان ما أصبح من أحب الاساتذة .. وقد ذكر « بوريس بابكين » ـ الذى ظل يعمل تحت ارشاده خمسا وثلاثين سنة ـ ان « بافلوف » كان بعيدا عن الحركات المسرحية والمظاهر ، بل كان يبسط مادته فى سهولة وبساطه وجلاء .. وكان الطلبة يقبلون على دروسه فى تحمس وشغف، وقد سرت اليهم عدوى ولعه بعلم وظائف الاعضاء .. **ولم يكن يقرأ من مذكرات ، بل كان يعتمد على ذاكرته ، ويسمح للطلبة بأن يقاطعوه بأسئلتهم** .. ولا كان يعتمد على رسوم مطبوعة ، وانما كان يرسم بيده ـ على « السبورة » ـ كل ما يرى الحاجة تدعو الى رسمه أثناء الشرح .

ولم ينقض عام على توليه منصب المحاضر ، حتى عين كذلك مديرا لقسم وظائف الاعضاء ، فى معهد الطب التجريبى، الذى كان قد انشىء مؤخرا فى (سانت بطرسبورج) ، والذى كان أكبر مركز للتجارب فى اوروبا ، بعدمعهد باستور بباريس

.. وفى معهد الطب التجريبى ، بدأ ((بافلوف)) البحوث التى لم تلبث ان اذاعت شهرته . فقد عكف ـ فى السنوات العشر التالية ـ على دراسة عمليات الجهاز الهضمى ، مجريا تجارب طويلة ، ودقيقة ، على الكلاب .

وكانت بعض الدراسات تتطلب اجراء جراحات على الكلاب ، فكان يحتمل ذلك ، برغم شغفه بالحيوانات وحدبه عليها .. « من أجل الحقيقة ، ومن أجل خير الانسانية » .. وكان يترفق بكلابه، فكانت ـ بدورها ـ تنصاع له، وتطمئن اليه. **وكان بارعا فى الجراحة ، حتى أن الكلاب لم تكن تتعرض لايلام بالغ ، وكانت تبرأ من جراحها سريعا ، بفضل عنايته ورعايته .** وقدوصف احد الاساتذة براعته الجراحية يوما ، بأن قال : « أن بافلوف يجرى الجراحة بسرعة ، حتى انه ينتهى منها فى الوقت الذى يظن مشاهده انه قد بدأ لتوه ! »

بين معاونيه .. ومع أسرته !

. **وكان** « بافلوف » يطلب من مساعديه أن يكونوا مثله فى السرعة وخفة اليد ، أثناء الجراحة .. وكان شديد الدقة، ونادرا ما كان يطرى مساعديه ، خشية أن يبطرهم المدح فيفسد عليهم اجتهادهم .. ومع أنه كان يقسو فى اللوم أحيانا ، الا أنه كان ـ فى غير أوقات الجراحة ـ يعطف على مساعديه ، **وكان يكره أن يفصل أحدا منهم ، لا سيما اذا كان متزوجا ، حتى لا يدفع بزوجته وأولاده الى ضائقات مالية ، فقد علمته تجاربه فى الحياة قسوة الفقر !**

وكان ـ فى غير نوبات السخط والغضب ـ شديد الود لمعاونيه .. وقد فهموا ـ بدورهم ـ شخصيته ، وحقيقة

نفسه ، فكانوا يحترمونه ، ويرون فيه عالما ملهما ، يجدر بالمرء ان يحرص على أن يلازمه .. وقدكان — من ناحيته — يقدر آراءهم ويهتم بها ، ويقول : « ان عقل المبتدىء لايكون متخما بالنظريات كعقل العالم .. كما ان قدميه ويديه لا يثقلهما الماضى العلمى .. ومن ثم ففى وسعه ان يرى ما لا يراه الاستاذ ، وان يعبر عن أفكار جديدة ، لا تخطر للعقل المثقل بالمعرفة ! »

وكان اذا استغرق فى بحث ، نسى كل ما عداه ، فهو يفكر فى تجاربه ليل نهار ، وكثيرا ما ظل مؤرقا — فى جوف الليل — لهذا السبب ، مما أرهق أعصابه ايما ارهاق . **وكانت زوجته تلمس ذلك ، فتحاول أن تنأى بذهنه عن هذا التفكير ، وتدعوه الى ملاعبة أطفالهما ساعة فى كل مساء .** على أنه — برغم حبه لاولاده — كان يضن بساعة من الممكن أن يقضيها مع كتاب علمى !.. ومع ذلك ، فقد كان يقدر حكمة زوجته ، ويحاول أن يعمل بنصحها ما استطاع .. ولا يتردد — بعد ذلك — فى ان يشكرها لأنها حررت فكره من المعمل والبحوث ، وخلقت فيه اهتماما بأسرته ، كان ينعش فكره وروحه !

يقلب أساليب علاج العلل الهضمية

• **وقبيل** نهاية القرن التاسع عشر ، وضع كتابا ضمنه البيانات الجديدة التى اهتدى اليها فى تجاربه وبحوثه ، واسماه : ((**محاضرات فى عمل الغدد الهضمية**)) . وقد شرح فيه أن الجهاز الهضمى معقد ، يتألف من أعضاء كثيرة ، وان الغذاء — وهو يمر بجوف الانسان — يمر بعمليات عديدة ، اذ تأخذ أعضاء الجهاز الهضمى فى استخلاص العناصر

الغذائية ، وتفتيتها الى مواد بسيطة بفضل المفعول الكيماوى لاحماض وقلويات طبيعية قوية، وبفضل الخمائر «الانزيمات»، والعصارات التى تفرزها الغدد — اوتوماتيكيا — أثناء عملية الهضم . وتمر المواد الغذائية المبسطة — المستخلصة من الطعام — خلال جدران الامعاء ، الى مجرى الدم فيحملها الدم لتغذية أنسجة الجسم كله ، أما الفضلات فتفرز خارج الجسم .

ولقد كان شرح « بافلوف » لرحلة الطعام — من الفم الى أنسجة الجسم — أتم شرح من نوعه ، ولم يكن معروفا — قبل كتابه — سوى حقائق منفصلة، وغير مترابطة ، عن عملية الهضم . ومن ثم ، فان مكتشفاته الهامة قلبت الآراء — التى كانت سائدة — رأسا على عقب ، وتحتم نتيجة لذلك ، ابتكار أساليب طبية جديدة لعلاج العلل الهضمية .

يعطى الأوسمة لاولاده ليلعبوا بها !

• **وسرعان** ما اعترفت المحافل الطبية العالمية بأن « بافلوف » فى مقدمة العلماء .. **وكان أول « فسيولوجى » فى العالم ، يحصل على جائزة نوبل للطب ، اذ ظفر بها فى سنة ١٩٠٤ ، وهو فى الخامسة والخمسين من عمره** .. كما حصل — بعد ذلك — على عدة تقديرات سامية ، منها وسام نجمة ستانيسلاف الروسى . بيد انه لم يبد احتفالا بالأوسمة ، حتى انه كان يعطيها لأولاده كى يلعبوا بها !

على أنه بدأ يخفف من قيود الزهد على نفسه ، فشرع بجمع لوحات الفنانين الروس ، واشترى دارا ريفية فى (سيلومياجى) — فى استونيا — ليقضى فيه العطلات مع

أسرته .. وهناك ، بدأ يعنى بفلاحة البساتين ، وبزراعة الزهور .. وكان يقبل على الفلاحة فى انهماك ، حتى أنه كان يعود الى معمله ـ بعد العطلات ـ وهو منحنى الظهر ..

وقد جزع أحد معاونيه مرة ، اذ رآه على هذه الحال ، ولكن « بافلوف » هتف فى مرح : **« هذا رائع !.. من مثل هذا العمل استمد المتعة الفعلية ، التى تسبب لى ارضاء يفوق ما تسببه المتعة الفكرية .. فأنا بطبيعتى فلاح أكثر منى استاذا ! »**

ولعله كان يستعرض ـ حين قال ذلك ـ الشوط الطويل، الذى قطعه منذ كان صبيا فى الثامنة من عمره ، يساعد أباه على زراعة رقعة صغيرة من الأرض ، فى (ريازان) .. لا للمتعة ، وانما التماسا لقسط ضئيل من القوت للأسرة !

الحافز والاستجابة التلقائية

● **وكان** « بافلوف » ـ عندما ظفر بجائزة نوبل ـ قد بدأ نوعا جديدا من البحوث ، قدر له أن يستغرق اهتمامه بقية حياته . فقد اهتم ـ عن طريق تجاربه على الحيوانات ـ بدراسة وظائف المخ والجهاز العصبى ، وتركيبهما ، وطرق عملهما ، مركزا اهتمامه على الاستجابة التلقائية ـ ورد الفعل التلقائى ـ الناشىء نتيجة لمحفزات خارجية .. مثل تحلب اللعاب عند مرأى الطعام . **فان هذه الظواهر التلقائية ـ عند الحيوان والانسان ـ كانت تؤخذ قضية مسلمة ، فرأى أن يتحرى السر فى حدوثها ..** وهدته دراساته للجهاز العصبى الى أن يبدأ بدراسة مسألة تحلب اللعاب .

لذلك أنشأ غرفة جعلها بمعزل عن الاصوات تماما ، وقسمها الى مقصورتين ، يتخلل الجدار الفاصل بينهما ثقب يمكن استراق النظر خلاله ـ من احدى المقصورتين ـ الى ما يجرى فى المقصورة الأخرى . ثم وضع فى احداهما كلبا ، على منضدة ، وقد ثبت عليه جهازا لقياس كمية اللعاب .. واحتبس نفسه فى المقصورة الاخرى ، بحيث يشهد انفعالات الحيوان وتصرفاته ، دون أن يراه هذا ، حتى لا يتأثر به . ثم عمد الى بعض حيل بسيطة .. كأن يدلى أمام فم الكلب طعاما ـ بواسطة خيط ـ ثم يسحبه بسرعة .. واستطاع ان يقارن بين كمية اللعاب الذى يسيل من الكلب فى مثل هذه الحال ، وكميته فى حالة ما اذا كان الكلب مع رفاق له ، ووضع الطعام أمامها دون أن يصدها عنه شيء ..

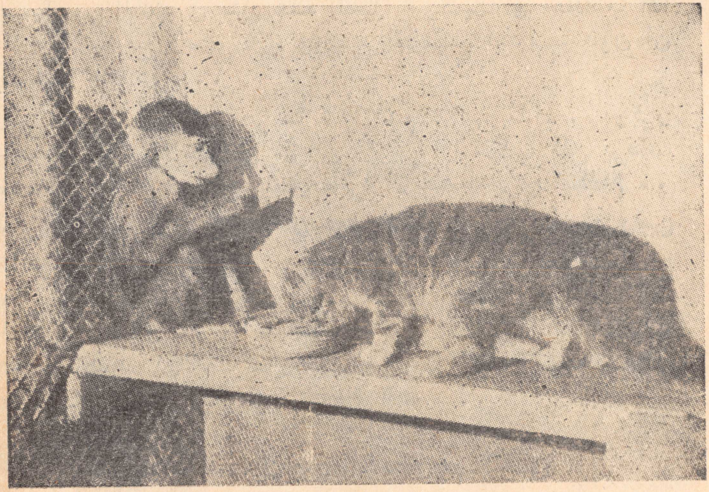
ثم جرب أن يدق جرساً كلما قدم للكلب غذاء .. وكرر هذا مرارا ، فلاحظ فى المرات الاولى ان **الكلب كان يرهف سمعه ، ولكنه لم يكن يبدى تأثرا الا عندما يرى الطعام .. على أن التكرار لم يلبث أن عود الكلب أن يقرب بين رنين الجرس وظهور الطعام ..** فاذا لعابه يتحلب عند سماع الرنين ، ولو لم ير الجرس . ثم جرب « بافلوف » دق الجرس ، دون تقديم الطعام .. وكرر ذلك مرارا ، فلم يلبث تحلب اللعاب ان أخذ يقل تدريجا ، حتى كف الكلب نهائيا عن التأثر برنين الجرس كاشارة للطعام !

أبواب للتعاون بين الطب وعلم النفس

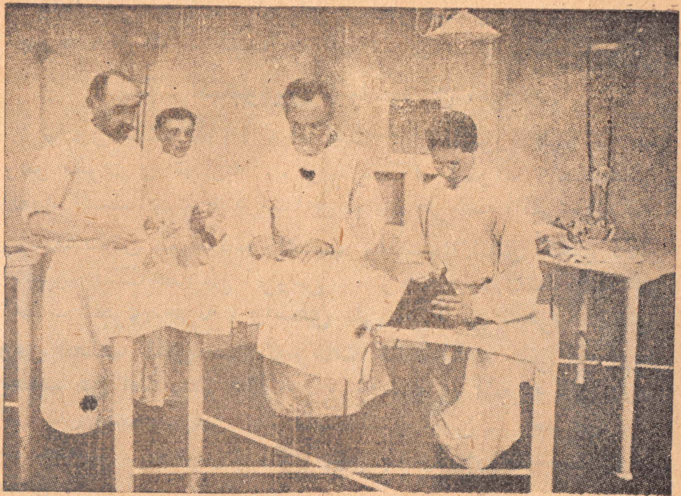
• **وبتكرار** الاشارة وتغيير نوعها ، تأكد « بافلوف » أن الصوت المألوف قد يكون محفزا للعمل . ومن ثم انتقل الى

تجربة ثانية ، لمعرفة ما اذا كان الحيوان يستطيع أن يميز بين اشارتين من نوع واحد .. فجعل دائرة مضيئة ايذانا بتقديم الطعام للحيوان ، وبيضاويا مضيئا اشارة الى عدم تقديم الطعام .. **ولم يلبث أن تبين أن الكلب قادر على التمييز بينهما ، وعلى أن يقرن كلا منهما بمدلولها ..** وتقدم خطوة أخرى ، فتبين أن لعاب الكلب لا يتحلب الا اذا كان ثمة مايشير الى طعام دسم أو شهى .

وهناك استجابات موروثة لدى الحيوان والانسان . فالخبطة على الركبة - مثلا - تحدث هزة غير اختيارية



قط وقرد .. من المجموعة التى كان بافلوف يجرى عليها تجاربه .



الدكتور بافلوف يقوم بجراحة لكلب وحوله مساعدوه

فى الساق .. وشكة الدبوس ، تحدث اجفالا غير متعمد ، وهكذا ..

ولم يدر « بافلوف » ـ وهو يجرى هذه التجارب ، ويثبت نتائج مشاهداته ،ثم يحللها ويطوعها للبحث العلمى ـ انه انما كان يفتح أبوابا جديدة لعلم النفس ، كى ينقلب من مجرد مادة تحفظ ـ كالعلوم الاجتماعية ، والجغرافيا ، والتاريخ ـ الى مادة علمية لها تجارب وتطبيقات عملية .. ليس هذا فحسب ، بل أنه فتح أبوابا لربط علم النفس بعلم وظائف الاعضاء ، وبالتالى .. بالطب والكيمياء !

واكثر من هذا .. لم يكن ليخطر ببال « بافلوف » أن تجاربه هذه كانت فتحا جديدا .. فى العلم والانسانية !

ينتقد الشيوعيين فيبالغون فى اكرامه !

• وفى سنة ١٩١٧ ، اندلعت نيران الثورة الروسية ، وهو مغرق فى تجاربه .. ولم يكن « بافلوف » مشفقا على العهد القيصرى ، فقد نشأ فى أبشع ظروف الفقر والفاقة ، وشهد طوال عمره ذلة الشعب والضنك الذى كانت تعانيه الاغلبية الساحقة من الروس .. ولكنه بهت للتطورات التى أخذت تجرى حوله ، **وأشفق على بلاده من الحرب الاهلية ، ومن العنف الذى ساد تصرفات البلاشفة ، حتى أنه لم يكن يحجم عن انتقادهم علانية** .. وذهب فى الجرأة الى درجة أنه كان يسخط على تصرفات الشيوعيين - بعد أن توطد سلطانهم - وهو يدرك أنهم بثوا جواسيسهم فى كل مكان .

ولقد انساق مرة الى الحملة على الشيوعية فى اجتماع عام ، فلما انتهى الاجتماع ، دعى الى دائرة الشرطة ، حيث وجهت اليه أسئلة عن آرائه . **فلم يتردد فى أن يعرب عن هذه الآراء بصراحة تامة ، ثم ذيل محضر التحقيق بتوقيعه ، فى غير خوف ولا وجل .**

وكان مثل هذا « المحضر » خليقا بأن يودى به الى السجن ، أو الى الموت ، كما جرى لكثيرين غيره . ولكن شهرته كعالم من أكبر علماء الطب ارغمت البلاشفة على احترام مكانته . وبدلا من أن يعنفوا معه ، قرروا - على العكس - ان يتقوبرا اليه ، وأن يكسبوه فى صفهم ، بأن يوفروا له أسباب التوفر على عمله ، وأن يعاملوه كمواطن ممتاز .

ومن ثم أصبحوا يرسلون الى بيته - فى كل صباح - احدى مركبات القصر الامبراطورى السابق ، لتنقله الى المعمل ! .. والفوا لجنة خاصة لتدرس خير الظروف التى يمكن توفيرها للعلامة « بافلوف » وأعوانه ، وانفقوا مبالغ كبيرة لادخال تحسينات على المعمل .. ثم لم يلبثوا ان شيدوا له معملا جديدا رائعا فى قرية (كولتوشى) ، بالقرب من (لنينجراد) .

حياة نشيطة برغم شيخوخته

• **وتقبل** « بافلوف » منهم كل هذا ، لانه كان مؤمنا بأهمية بحوثه العلمية ، وبوجوب أن يمضى فيها الى اقصى ما كان بوسعه .. ولم يكن ثمة سبيل لان يبدأ من جديد ، فى بلد آخر ، كما فعل كثيرون غيره .. اذ كان قد بلغ الرابعة والسبعين .

ومع أنه كان قد اكتهل ، الا أنه ظل عاكفا على بحوثه بجد واجتهاد ودأب .. فكان يستيقظ فى السابعة من كل صباح ، وبعد فطور خفيف ، يتناوله وهو يصغى الى أنغام الحاكى (الجرامفون) ، كان ينصرف الى عمله تسع ساعات فى اليوم أو عشرا .. ثم يعود الى داره متعبا ، جائعا ، فى الساعة السادسة مساء ، فيتناول الطعام ، ويغفو - بعد ذلك - ساعة ، على سبيل الاستجمام .. يعكف بعدها على القراءة والكتابة حتى الساعة الواحدة أو الثانية صباحا !

وفى تلك الاعوام ، قام بعدة جولات فى الخارج ، لالقاء محاضرات فى المحافل العلمية . وذهب الى أمريكا - بوجه خاص - ليلقى محاضرات فى علم وظائف الاعضاء ، وارتباطه بعلم النفس .. وكان أينما ذهب يقابل بالتكريم والتبجيل .

دروس للشباب .. من خلاصة تجاربه

• **ولعله** تذكر جهاده فى شبابه ، فكان فى شيخوخته يعنى عناية خاصة بمن يتوسم فيهم وفاء للعلم من الشباب .. فكان يأخذ بأيديهم ، ويتولى ارشادهم .. وكان يقول لهم : ((**ادرسوا أولا مبادىء العلم واصوله ،قبل ان تحاولوا التحليق فى سمائه** .. ولا تنتقلوا قط الى مرحلة ، الا بعد ان تكونوا قد استوعبتم تمام الاستيعاب المرحلة التى انتم فيها .. ولا تحاولوا قط ان تخفوا مواطن الضعف فى معرفتكم بالتظاهر والافتراء .. روضوا انفسكم على كبح النفس والصبر .. وعندما تتوفرون على الدرس أو التجربة أو المشاهدة ، فحاولوا أن لا تقفوا عند القشور .. **لا تصبحوا مجرد جامعى حقائق ، بل حاولوا أن تغوصوا فى الغوامض حتى تصلوا الى أصولها .. وتذكروا دائما ان العلم يطالب الانسان بان يهبه حياته كلها**)) !

والحق أنه كان ــ طيلة عمره ــ يطبق ما كان يدعو اليه سواه ..

وفى سنة ١٩٣٥ ، فقد ابنا من أحب أبنائه عليه ، فحاول ان يصمد للصدمة .. ولكن المرض استبد به ، فلم يلبث أن **مات فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٦ .. وهو فى السادسة والثمانين من عمره !**


كتب جديدة
من الغرب والشرق
عرض لأحدث الكتب
أخبار الحركة الأدبية فى العالم

الكتاب الجدد فى الشرق والغرب

عزيزى القارىء :

عند اختيار الكتب التى تلخص لأى عدد من « كتابى » ، أو التى تترجم لأى عدد من « **مطبوعات كتابى** » ، تعترضنا دائما نقطة تثير جدلا أزليا .. فقد تدفع المصادفة الى يدى أحد من أسرة التحرير ، بكتاب رائع ، لكاتب أجنبى حديث ، قد لا يكون أحد من قراء العربية قد سمع به ، أو قرأ له من قبل .. وهنا يدور التساؤل : **هل من الحكمة ان نقدم للقارىء العربى كاتبا لم يعرفه ، ولم يقرأ عنه أو له ؟**

ويقول فريق : « ولم لا ؟ .. وكيف يعرفه القارىء أو يقرأ له ، اذا لم نقدمه اليه ؟ » .. ويجيب فريق آخر : « ولكن القارىء يحب الاسماء اللامعة . والنقاد فى المجلات الاسبوعية واليومية يوافونه دائما بكل حديث .. وهم أسبق منا الى ذلك ، لتقارب فترات ظهور الصحف التى يكتبون فيها .. لذلك ، يفضل القارىء أن يقرأ لكاتب يكون النقاد قد رددوا اسمه » .

ولكن المطابع – فى الدول الاخرى – لا تتوقف عن الدوران ، ريثما نفرغ من نقاشنا .. فانتاجها متدفق .. والكتاب الاجانب – من شرقيين وغربيين – الذين عرفهم القارىء العربى وألفهم ، يقلون يوما بعد يوم .. **فالموت « لا يعرف أجازة » ، والشيخوخة لا تكف عن نخر عقول الكتاب ، لتمتص طاقاتهم الفكرية**

والابتكارية، كما فعلت بالروائى الانجليزى «سومرست موم» .. ومن ثم فانتاج المطابع الاجنبية يحمل أسماء جديدة باطراد ، وبسرعة تفوق سرعة انتباه ناقدينا الادبيين ..

كاتب جديد .. قديم !

• **ومن** حقك ان تطالبنى بمثال .. ولن أخيب رجاءك ! هل سمعت ـ يا عزيزى القارىء ـ عن **«افيلين وو»** ؟ انه رجل وليس امرأة ، كما يوحى اسم « افيلين » ! .. والاطرف من هذا ، انه ليس بالكاتب الجديد ، وانما هو مؤلف ذائع الصيت فى بلاده ، وله عدة كتب تلقى رواجا كبيرا فى انجلترا .. وبلغ من مكانته فى الادب الانجليزى الحديث ، أن صحيفة « الاوبزيرفر » ـ وهى من أوسع الصحف الانجليزية انتشارا ـ خصصت الصفحة الاولى من ملحقها الاسبوعى ، فى أحد أعدادها ، للحديث عنه بمناسبة ظهور آخر قصة له ..

بين الفكاهة والسخرية شعرة واحدة !

• **امتاز** الانتاج الاول لافيلين وو ، بروح الفكاهة .. وبهذه الروح تناول نظام التعليم فى انجلترا ، فى كتابه « التداعى والانهيار » ، فاذا النقاد يأخذون الفكاهة على أنها سخرية ، فيثيرون ضجة حول الكتاب والكاتب .. **والفرق بين الفكاهة والسخرية ـ فى عصرنا الحديث ـ فرق ضيق جدا .**

و « افيلين » ـ فى هذا الكتاب ـ لم يحاول أن يسخر من نظام التعليم فى الواقع ، وانما حاول ان يرسم صورة ـ تثير ضحك القراء ـ للطبقة الرفيعة فى مجتمع بلاده ،

والمدارس الخاصة التى ترسل اليها هذه الطبقة ابناءها .. ومع حملات النقاد، فان كتاب «التداعى والانهيار»، استطاع أن يخلق لنفسه مكانة فى الادب الانجليزى المعاصر ، **كواحد من « أظرف » خمسة كتب ظهرت هناك فى القرن الحالى !**

وفى الكتب التالية ، بدأت روح السخرية اللاذعة ، تبدو خلال أسلوب « افيلين وو » ، وأمتزجت بالفكاهة التى كانت تسود اسلوبه فى أعماله الاولى ، الى أن تبلورت اتجاهاته ، وتجلى له طابع خاص به ، يجمع بين الاسلوبين ، حتى ان الناقد الانجليزى « فيليب توينبى » يصف الاسلوب الناجم بأنه : « **مضحك لاذع** » .. تختلط فيه النكتة بوخزة او وكلة !

وليس معنى هذا ان قصص « وو » تخلو من المأساة ، ومن الحب .. **بل ان المأساة عنصر رئيسى فيها ، مستمد من المأساة الكبرى للحيــاة الحديثة ، فى رأى « وو » ..** فهو يرى أن الرجل الصالح ، الطيب ، يهلك — فى عصرنا هذا — وسط تيارات عالم تسوده الانانية ، والنزوات الدنيئة ..

« ثلاثية » عن الحرب الماضية

• **وكثير** من النقاد يتهمون « وو » بأنه وقح ، رخيص .. ولكن أنصاره يردون على ذلك ، بأنه صريح الى أقصى حـد ، ولاذع فى سخريته من كل ما لا يعجبه فى حياة بلاده ونظمها .. **وكثير من الناس يحبون ان يغمضوا أعينهم عن عيوب مجتمعهم، باسم الكبرياء الزائفة ، والكرامة المخدوعة .. ومن هنـا يتهمون « وو » بالوقاحة والترخص !**

وآخر كتاب صدر فى لندن ، بقلم « افيلين وو » ، هو : « تسليم بلا قيد ولا شرط » .. وأنا لم أقرأ الكتاب بعد ، ولكنى قرأت عنه لأكثر من ناقد أدبى ، فعرفت أنه جزء من « ثلاثية » عن الحرب العالمية الماضية ، عالج فيها « وو » احداث هـذه الحرب ، لا فى بلاده وحـدها ، وانما فى البلاد الاخرى كذلك .. ولكنه لا يلبث ان يرتد الى بلاده - بين حين وآخر - ليصور مباذل الجنود الامريكيين فى انجلترا .. ومباذل المجتمع الانجليزى ، وبينها **تهالك المراهقات الانجليزيات على هؤلاء الامريكيين .. بمساعدة امهـاتهن وعمـاتهن وخالاتهن !..** وتداعى الاخلاق فى انجلترا خلال الحرب .. وتداعى الروح المعنوية ، حتى أن وزارة حكومية استخدمت ساحرا من أفريقيا ، لكى يقوم بالتعويذات والسحر للقادة النازيين !

وقد تلمس فى هذه الظاهرة الاخيرة - ظاهرة السحر - لونا من فكاهة «افيلين وو» ، ولكن من الجلى انه لم يقصدبها الفكاهة المجردة ، وانما شاء ان يبرز التداعى المعنوى عن طريق المغالاة !

مثل هذا الكاتب ، الا ترى معى انك تحب ان تطلع على انتاجه ، ولو انك لم تعرفه قبل ان تقرأ هذه الصفحات ؟

فلننتظر حتى تصل ثلاثيته !.. وعلى فكرة ، هذه الثلاثية عناوينها : « البشر والاسلحة » .. و « ضباط وسادة مهذبون » .. واخيرا : « تسليم بلا قيد ولا شرط » .

« اطفال سانشيز » .. والفقر !

• **وكاتب** آخر ، ظهر فى أمريكا ، يدخل فى نطاق موضوعنا هذا ..

انه « **اوسكار لويس** » .. لم تسمع عنه ، ولم تقرأ اسمه من قبل ؟!.. أعرف هذا !

ان « اوسكار لويس » كاتب اجتماعى ، يعرض – بأسلوب قصصى ممتاز – المشكلات الاجتماعية..فى المجتمع الانسانى عامة . ولكنه لا يعالج هذه المشكلات وهو جالس الى مكتبه ، وخلال التقارير والاحصاءات والكتابات التى ينشرها غيره ، ويتخذها هو كمراجع .. وانما هو يبحث ، ويجرى وراء موضوعاته ، ثم يبتكر الطريقة لعرضها ..

ولقد حيرته فكرة عميقة : **لماذا يقنع الفقير بعيشه ، وكيف ؟**

ولكى يجيب عن هذين السؤالين ، راح « اوسكار لويس » يبحث عن أسرة تصلح لأن تكون نموذجا للفقر .. وعثر – أخيرا – على أسرة « سانكيز » – أو « سانشيز » – فى المكسيك .. فماذا يفعل ؟

لقد اختلط بهذه الاسرة اختلاطا وثيقا ، حتى ألفه أفرادها وألفهم بدوره .. وأخذ ينصت الى أحاديثهم .. ولكنه لم يكن ينصت ليدونها على الورق ، **وانما كان يسجلها مباشرة على أشرطة .. من أفواههم ، وبلهجاتهم ، وانفعالاتهم !**

ومن واقع هذه الاحاديث ، وضع « اوسكار لويس »

كتابا اطلق عليه اسم : ((**أطفال سانشيز**)) .. فماذا الكتاب يحدث ضجة فى الاوساط الادبية والاجتماعية فى امريكا ..

حياة الفقراء ليست كئيبة

• **ويقدم** « لويس » لكتابه قائلا : « ان حياة الفقراء ليست كئيبة .. ان القصص التى تضمنها هذا الكتاب ، تكشف عن عالم من العنف والموت .. من العناء والحرمان .. من الخيانة ومن انهيار الاسرات .. من الانحراف والفساد، ووحشية الشرطة ، وقسوة الفقير على الفقير » ! ..ومع كل هذا ، فان « اوسكار لويس » يصر على ان **((حياة الفقراء ليست كئيبة)) !!**

ويسوق المؤلف حديثا سجله لأحد أطفال الاسرة :

« فى كل عام ، كان الملوك الثلاثة يفدون الى دارنا ، فى السادس من شهر يناير ، ويتركون لنا اللعب فى حامل اصص الزهور ، الذى تعتز به أمى .. **ولكن الملوك الثلاثة لم يأتوا فى السادس من يناير ، من أحد الاعوام ، فكنت أتعس طفل فى الدنيا .. »**

وواضح انه يقصد الخرافة القائلة بأن هناك من يزور بيوت المسيحيين – فى عيد الميلاد – ويترك هدايا للاطفال. وواضح أيضا ، ان الاسرة كانت تنتمى الى كنيسة شرقية ، فهى تحتفل بعيد الميلاد فى ٦ يناير .. وبدلا من « سانتا كلوز » ، او « بابا نويل » ، يؤمن القوم بأن ثمة «ثلاثة ملوك» – اشارة الى المجوس الثلاثة الذين ادركوا امارات مولد المسيح ، فحجوا اليه – وان هؤلاء الملوك يزورون البيوت ، بعد نوم الاطفال – فى ليلة عيد الميلاد – ليتركوا لهم الهدايا واللعب ..

ويمضى الطفل قائلا : « ولقد استيقظنا ـ معشر الاطفال ـ مبكرين ، فى ذلك اليوم ، ككل الاطفال ، لنسعى الى اللعب .. **وذهبنا نتفقدها فى حامل اصص الزهور ، ثم فى رماد المدفأة .. ولكننا ـ لسوء الحظ ـ لم نجد شيئا .** ولم يبق لنا سوى ان نخرج الى الساحة ، وأن نرقب اصدقاءنا وهم يحملون لعبهم ! .. وكان ذلك آخر « سادس من يناير » قضته أمى معنا ، قبل ان تموت . وبعد ذلك ، ظللت أعواما .. أبكى » !

وحيثما مضيت فى الكتاب ، هفت بعواطفك السذاجة البريئة المؤثرة :

« **أحسب أن أسوأ ما جرى لى ولأخى ، هو اننا كبرنا ..** فقد كنت جد سعيد ، حتى بلغت الثامنة » !

« **كان ثمة خبز فى كل مكان ، ولكنى كنت جائعا ! ..** انك لا تستطيع أن تتصور مدى الشعور الذى يترتب على هذا ! »

الاطفال سواء .. فى الفقر والغنى !

• **وأسرة** « سانشيز » اسرة فقيرة ، تعيش فى ضنك ، فى غرفة واحدة بمدينة (مكسيكو) . ومع ان المشكلات المترتبة على الفقر عندهم ، قد تختلف عن مشكلات الذين يعيشون فى مستوى متوسط ، أو فى مستوى وافر الرخاء ، **الا أن التأثرات النفسية لدى أطفال الطبقات الثلاث ، لاتختلف كثيرا . لأن النفس البشرية واحدة ، فى كافة الطبقات والاوساط ..**

مثال ذلك ان « كونسيلو » ـ الابنة الكبرى فى الاسرة ـ تتعذب ، وتنطوى على نفسها ، لمجرد شعورها بأن أباها لا يحبها .. ونجد ان الاب شقى بهذا الوضع ، اذ يدرك ان

اطفاله يشعرون بانه لا يحبهم بالقدر الذى يكفيهم ، فى حين انه لم يقصر فى حبهم . فهو حائر لا يدرى .. **كيف يحبهم أكثر مما هو يحبهم فعلا ؟** .. وهو يذكر انه فى صغره لم يحظ بكثير من الحب ، ومن ثم فهو يخال ان قلة نصيب المرء من الحب ، ظاهرة يتوارثها الابناء عن الآباء ، وهى تستفحل من جيل الى جيل !

ومع ذلك ، فان « سانشيز » كان – ككل اب – له من بين ابنائه واحد يسرف فى الحنو عليه وتدليله .. وكانت « مارتا » هى صاحبه الحظوة لديه . وقد سجل لها المؤلف قولها :

« كانت طفولتى اسعد طفولة نعمت بها فتاة .. كان لى ان افعل ما أشاء ، ولا أتعرض لعقاب .. وكنت اذا بكيت ، ربت أبى على ظهرى ، ونفحنى بنقود » !

الاخلاق والشعور بالمسئولية تتضاءل

• **هكذا** لم يحل الفقر دون أن ترى ان طفولتها كانت **« أسعد طفولة نعمت بها فتاة »** !.. وكما يفسد التدليل بنات الاغنياء ، فانه – كذلك – يفسد بنات الفقراء . ومن ثم نشأت « مارتا » مفلوتة الزمام ، متلوفة الاخلاق .. وانتهت الى شقاء كغيرها ممن لم يصبن تدليلا !

والفقر موجود دائما ، ولكن طبيعة الفقر والفقراء هى التى تتغير .. فنجد ان ابناء « سانشيز » متباينون ، وكلهم مختلفون عن أبيهم .. ونجد ان المستوى الخلقى والشعور بالمسئولية ، يتضاءلان من جيل الى جيل .. فقد كانت جدة « سانشيز » الاب ، مغرقة فى التقوى والتعبد . وحرص « سانشيز » على أن يعول كافة النساء اللائى أنجب منهن أطفالا ، **ولم يشفق على نفسه – بعد أن قضى ثلاثين سنة فى**

عمل دائب شاق – فاذا به يتطوع لرعاية أحفاده الذين جاءوا ثمرات غير شرعية ! .. أما اولاده – وهم الجيل الذى تلاه – فلم يحرصوا ؟ « حتى على ايقاد الشموع ، ووضع كوب ماء وكسرة خبز بجانب هذه الشموع ، فى يوم الموتى » .. كما تقضى الطقوس الدينية !

ومن هذه الاحاديث – التى سجلها المؤلف – يقفز سؤال : **ماذا يتبقى للفقير ، اذا تجرد من العقائد والتقاليد ؟**

لا شىء تقريبا .. فكأن العقائد والتقاليد المتوارثة هى التى تعينه على تقبل الفقر وشظف العيش !

وتفرغ من هذه الدراسة الواقعية المسجلة للفقر ، فتظل كلمات « سانشيز » الاب تتردد فى اذنيك :

« ما الذى يجرى لأسرتى ؟.. اواه ، ياربى !.. انهم يقضون على أنفسهم ، ويفنون ببطء ، كأعمامى وأخوالى وأمى وجدتى .. ذهبوا جميعا وتركونى مبكرين .

« أجل ، ان مانويل ابنى سيعيش ، **ولكن على حساب من ؟..** كم مرة سيتاح له ان يختبر حب أطفاله اذ يحرمهم القوت ؟.. من الفظيع ان اتخيل انه سيعيش بعد اطفاله » !

مع المؤرخ الرحالة « توينبى » ..

• **من** الناس من يوحى اليك حديثه بروح من الود والصداقة ، تجعلك تركن اليه وتطمئن ، حتى انك لتنسى ان تسأله عن اسمه ، فاذا ما افترقتما ، بقيت معك روحه الودود ، وان غاب عنك اسمه ..

ومن هذا الصنف « ارنولد توينبى » ، المؤرخ الذى عرف بمناصرته للعرب ، وبشغفه بتاريخهم وتاريخ الشرق عامة .. والذى ينتظر أن يزور الجمهورية العربية المتحدة قريبا ..

واحدث كتاب لتوينبي ــ واسمه «بين اوكسوس وجومنا» ــ يعكس الصفة التى ذكرناها عنه .. فأنت تشعر ــ أثناء قراءته ــ بأنك تنصت الى رجل طيب ، ذى لهجة ودية آسرة .. آسرة الى درجة أنك لاتملك سوى ان تقتنع بأن ركوب عربة يجرها ثور ، فى بطاح افغانستان او باكستان ، امتع وافضل من ركوب طائرة نفاثة ..

وهذا صحيح بالنسبة لتوينبي ، على الأقل .. اذ يمكنه من ان يرى كل شىء ، وان يشهد المعالم الدارسة ، وان يدرس المدنيات التى تصادفه ، لكى يثبت الفكرة التى سيطرت عليه ، وانعكست على كتاباته ، وهى أن كل الحضارات ــ التى انقرضت منها ، والتى لا تزال على قيد الوجود ــ تكون فيما بينها وحدة ..

وعلى أجنحة حديثه المشوق ، نطوف معه الاماكن التى زارها فى العام الماضى ، اذ قام بجولة فى غرب باكستان ، وافغانستان ، وشمال غربى الهند ، حيث التقى بآثار من المدنيات الآرية ، والفارسية ، واليونانية ، والاسلامية .. كما تأمل معالم المدنيات الحديثة فى هذه البقاع .. ومزج كل هذه الملاحظات التى جمعها بأحاديث طريفة عن الاسكندر الاكبر ، وسوفوكليس ، ودارا الفاتح الفارسى .. وابراج الاستطلاع السوفييتية المقامة فى مواجهة ضفة نهر (أوكسوس) ، والطفرات الحاضرة فى (كراتشى) .. وتلاميذ المدارس من الجيل الناشىء من الهندوكيين ..

وهكذا نجد ان الكتاب رحلة طريفة فى بقاع لم نألفها .. ورحلة أطرف فى رحاب تاريخ الشرق القديم .. ورحلة ثالثة ، أكثر طرافة من سابقتيها ، فى حاضر الشرق !

ذكريات زوجة شاعر

• **هل** لحياة الشاعر الخاصة ، اثر على أعماله ؟

سؤال طالما راود اذهان الكتاب والناقدين والمؤرخين . فعالجوه مرارا .. ولكن أسواق الكتب شهدت أخيرا ، كتابا يعتبر دراسة عملية ، من صميم الحياة الخاصة للشاعر الانجليزى ((**توماس هاردى**)) .

فمن المعروف عن ((هاردى)) انه حرص – فى حياته – على ان لايعرف الرأى العام عن شؤونه الشخصية الا أقل القليل ، الى جانب ما قد تكشف عنه بعض أشعاره .. **وبلغ من حرصه انه كتب – قبيل موته – سيرته الخاصة بقلمه ، وان نشرت تحت اسم زوجته الثانية ، لكى يطمئن الى ان الرأى العام لن يطلع الا على ماشاء هو ان يطلع عليه من حياته الشخصية** .. ثم بدا انه أعدم – بعد ذلك – كل ماتبقى لديه من أوراق تشى بشىء عن هذه الحياة .

.. هكذا ضحكت الاقدار !

• **ولكن** المثل العربى يقول : ((وتقدرون فتضحك الاقدار)) **.. وقد ضحكت الاقدار من ((هاردى)) اخيرا ، اذ عثرت ابنته ((ايفيلين هاردى)) على بضع اوراق افلتت من ابيها ، وقدر لها البقاء !** .. وكانت الاوراق تضم ذكريات كتبتها ((ايما هاردى)) – زوجة هذا الشاعر – أبان حياتها ، فضمت اليها ((ايفيلين)) – بمعونة الكاتب ((روبرت جيتينجز)) – بعضا من أشعاره التى تعكس بعض ومضات من حياته ، ونشراها فى كتاب بعنوان : ((**بعض ذكريات – بقلم ايما هاردى**)) .

والذكريات تتنـاول حياة « ايما جيفورد » ـ كما كانت تدعى قبل زواجها ـ منذ صغرها الى ان تزوجت .. ومن هذه الذكريات ، نستطيع ان نلمس اسباب فشـل زواجها من «هاردى» ، والسر فى ان الحب القوى الذى ربط بينهما ـ فى البداية ـ لم يلبث ان انقاب الى نفور شديد ، أشقى الشاعر ، وأشاع الظلمة فى حياته ، وأحال أشعاره ـ فى بعض الاحيان ـ الى تشاؤم ويأس من نصيب الانسـان فى الحياة الدنيا ..

كانت جميلة ، ولكن .. ؟ !

• **كان** الحب لدى توماس هـاردى هو أغلى واسـمى عاطفة يخفق بها قلب الانسـان ، ومن ثم فان مرارة اخفاق هذا الحب ، كانت فى حياته أشد من أى شىء آخر صادفه.. **فقدكان بطبيعتهوادعا ، صبورا ، وفيا**..ومثل هذا الشخص اذا شـعر بالشقاء ، فلا بد ان مصدر هذا الشقاء كان اكبر من وداعتـه ، ومن صبـره ، ومن وفائـه .. **فكيف كانت زوجته ، التى تسببت فى شقائه ؟**

كانت جميلة ، لاشك فى ذلك .. شعر كستنائى ، وعينان رماديتان ، وبشرة ناعمة بضة ، وقوام رشيق ملفوف ..

وكان خليقا بزوجة اوتيت هذا الجمال ، ان تنعم مع زوج اوتى مثل تلك الخصال ..

ولكن طباعها كانت سر نكبة هذا الزواج..فعلى الرغم من الحب الذى جمع بينهما قبل الزواج ، شعرت « ايما هاردى » بأنها ـ بهذا الزواج ـ قد هبطت عن مكانتها الاجتماعية .. ولو اننا عرفنا ان اباها كان محاميا ، وانه فشـل فى حياته لافراطه فى الشرب ، حتى اضطر الى ان يعيش عالة على امه .. لو اننا عرفنا هذا ، لأدركنا ان «هاردى» هو الذى تنزل عن مستواه ، حين اقدم على الزواج منها !

تترحم على اصل الجدود !

• **ولكن** .. كانت « ايما » تغفل حاضر اسرتها ، لتعيش فى الماضى البعيد ، منذ عرفت ان اصول اسرتها تنحدر من أسرة نورماندية عريقة ، كان اسمها « جى دى فورد » .. ومن هنا كان اسم ابيها «جيفورد» تحريفا للقب القديم .. وعلى ذكرى هذا الماضى القديم ، راحت تعتبر ان «هاردى» ادنى منها اصلا ، فأوسعته غرورا وصلفا .. وراحت ـ فى « بعض الذكريات» ـ تنعى حظها ، وتترحم على اسرتها !.. ولعل من طريفه ما كتبته فى هذا الصدد !

« لكم احرجنى ان انتقل فى مركبة عامة ، وهى وسيلة للتنقل لاتليق بمقامى » !

ثم انها كانت متعنتة فى معتقداتها الدينية ، ولعل هذا كان رد فعل لما رأته من ادمان ابيها للخمر .. فكثيرا ما يكون الاثر النفسى لدى الابن ـ من فساد ابيه ـ حافزا له على التزمت والتعصب .. بينما كان « هاردى » متحررا .. لا بمعنى التحرر الذى يتباهى به بعض شعراء اليوم ، والذى ينطوى على نوع من الكفر او اللادينية .. **وانما بمعنى عدم التزمت فى تفسير تعاليم الدين وتطبيقها !**

ومع الغرور ، كان هذا التحرر من « هاردى » يثير ثائرة « ايما » ، ويؤدى الى الشقاق ..

النقطة السوداء فى قلب الجمال

• **ومن** ناحية اخرى ، كانت « ايما » حقودا .. ومن العجيب ان يسكن الحقد قلب حسناء لها جمالها . ولكن الواقع ان « ايما » ـ على ما يبدو لنا من ذكرياتها ـ كانت تعانى من اختلال عاطفى ، يرجع الى مركبات نقص وعقد نفسية ..

من ذلك انها كانت تكره اختها .. لا لشيء الا لأن هذه الاخت قدر لها ان تتزوج قبلها !

ومن ذلك نفهم — ايضا — انها لم تكن مدنفة فى حب « هاردى » ،كما خيل اليه قبل الزواج ، وانما هى كانت — فى الغالب — تتظاهر بالحب ، لأنها كانت تريد ان تتزوج ، حتى لاتبدو — فى عينى نفسها ، على الاقل — ادنى من اختها ..

وبعد ان اقتنصت الزوج ، بدأت تكشف عن حقيقة نفسها ! .. وبدأ شعورها بالنقص — لأن اباها كان فاشلا ، ومعدما — يوحى اليها بالتعالى على « هاردى » .. بل اننا لانعدو الصواب اذا قلنا انها كرهت «هاردى» ، لعقدة نفسية كامنة .. تلك هى انها كانت تشعر — فى قرارتها — ان « هاردى » كان كريما حين تزوج منها — **وقد بلغت الرابعة والثلاثين من عمرها** — فى حين انه كان يستطيع ان يتزوج بفتاة تصغرها سنا .. وان كان هو أكبر منها !

تتشاءم من عش للنحل !

• **ولقد** أعجب « هاردى » — عندما التقى بها لأول مرة — بما أبدت من خيال واسع .. ولكنه لم يفطن قط الى ان هذا الخيال قد ينحرف ، تحت ضغط عوامل من البيئة ، والظروف .. **وهذا ما حدث فعلا ، فان الخيال الجامح ، جنح بها الى عالم الخرافات ، فآمنت بها الى درجة تنم عن انها كانت مصابة بشيء من الخلل العقلى ..** حتى لقد اكتشفت عشا للنحل فوق نافذة مخدعها — بعد الزواج — فكادت تجن ، واعتبرته فألا سيئا !

وقد كشف علم النفس التحليلى الحديث ، عن ان كثيرا من حالات الخلل العقلى ، **ترجع الى عوامل نفسية !**

بقى ان نصف صورة سريعة للشاعر «هاردى» ونفسيته .. فلقد قدر له ان يطلع فى اوراقها الخاصة ، على قطعة كتبتها عن اول لقاء لهما .. كتبتها قبل وفاتها بأقل من عام ، واطلع عليها بعد ان اودعها قبرها ، فاذا به ينسى ما عانى من شقاء ، واذا به يكتب قصيدة ، يوجه فيها الخطاب اليها :

« ... لا كما كنت ،

« عندما تغيرت عن تلك التى كانت لى كل شىء ..

« وانما .. كما كنت فى الاول ،

« عندما كان يومنا جميلا » !

ناحية اخرى من نواحى « هاردى » ، تمثلت فى اعدامه كل ما كان يشى بمصدر الشقاء فى حياته .. الا ترى فى ذلك انه دليل على الوفاء ، اذ لم يشأ ان يسىء الى ذكرى زوجته ؟

بين العطف والفهم فرق كبير

• أجمع النقاد يوما ، على وصف الكاتب الفرنسى «**جورج سيمينون**» بأنه « اميل زولا » العصر الحديث .. وليس فى هذا كثير من المغالاة ، فالواقع ان « سيمينون » أوتى براعة « زولا » فى اختيار شخصياته النسوية – لاسيما من بنات الطبقة الدنيا ، أو ممن زللن فى الحياة – وفى تحليل عواطفهن ، والنواحى الجنسية فى حياتهن ..

ولكن « سيمينون » ميز نفسه عن « زولا » بميل الى الجريمة ، واثارة مشاعر الترقب لدى القراء ، وحبك المفاجآت ، ثم التسلسل المنطقى الذى يكشف به أسرار الجريمة .. بعد ان يكون قد عبث بأعصاب القارىء !

واعتاد «سيمينون» – اذا ما مزج بين النوعين – ان يبلغ

قمة الابداع .. وهذا ما حدث فى روايته الاخيرة : **« الاعزب »** .

الفنان الذى تزوج بغيا

• **وتدور** احداث الرواية ، فى احدى مناطق باريس الشعبية المزدحمة .. حيث التقى فنان بارد المشاعر الجنسية ، ببغى انقذها من ان تشوهها خناجر أفراد عصابة كانت تعمل معها .. **ولم يتردد الفنان ــ رغم بروده الجنسى ــ فى ان يتزوج من الفتاة ، وان يعيش معها حياة منعزلة ، مغمورة ،** حتى لا يهتدى اليهما شركاء الفتاة من افراد العصابة القديمة ــ من ناحية ــ وحتى تتوفر للفنان الحياة التى كان يهواها .. حياة العزلة والهدوء . فلم يكن الزوجان يلتقيان بغير حارسة البيت ــ البوابة ــ وغلام صغير ، كانت تزعم انه حفيدها ..

ويفاجأ الرجل يوما بزوجته تختفى ، فيكاد يجن .. اذ كان عطفه عليها ، وعرفانها بفضله ، عاملان اقاما علاقاتهما على اسس أقوى بكثير من العامل الجنسى ..

ولا يلبث ان يعثر عليها ، ولكن..جثة هامدة . ويتكشف انها قتلت نفسها .. وهنا ، يفجر «سيمينون» المفاجأة التى كان يدخرها .. ثم يمضى فى كشف ما حدث ، بالطريقة البوليسية !

دراسة نفسية طريفة

• **والواقع** ان الرواية ليست مجرد تسلية ، بل انها دراسة طريفة للعلاقة بين شخصين ، يعيش احدهما لكى يغمر الآخر بكرمه وعطفه وحنانه ، دون ان يحاول ان يفهمه .. ويستطرد « سيمينون » من هنا الى بيان كيف انه

اسهل على المرء ان يكون كريما عطوفا ، من ان يسعى الى فهم معاشره . ويدرك الفنان ـ بطل القصة ـ هذه الحقيقة لأول مرة ، عندما يتبين ان حفيد « البوابة » لم يكن سوى ابن زوجته ، من حياتها السابقة !

وتنتهى القصة بأن يحتضن الفنان ذلك الفلام ، ويبدأ فى معاملته كما كان يعامل امه من قبله !

عقوبة الاعدام كضابط لصلاح المجتمع

◆ **السير** جون بارى من رجال القانون والتشريع البارزين فى استراليا . وهو يشغل منصب قاضى المحكمة العليا فى فيكتوريا ، كما أنه رئيس لقسم الجريمة بجامعة ملبورن .

وقد لفت نظر السير جون بارى كتابان جديدان ، صدرا أخيرا فى سلسلة بنجوين (الطبعة الخاصة) . أولهما بعنوان : **((المشنوقون))** من تأليف : **((آرثر كوستلر))** و **((س.هـ. رولف))** . وثانيهما بعنوان : **((شنقوا خطأ))** من تأليف : **((لسلى هال))** .. وهما يعالجان قضية عقوبة الاعدام فى بريطانيا وبلدان الكومنولث . ومن ثم كتب السير جون مقالا ممتعا فى صحيفة **((الأوبزرفر))** ، ناقش فيه الكتابين ، وما جاء فيهما حول عقوبة الاعدام . وقد جاء فيه :

تنشأ الآراء حول عقوبة الاعدام لاعتبارات عاطفية ، لا يتدخل فيها العقل بالشىء الكثير :

◆ **ان** الشعور ـ المنبعث من الخوف والرعب ـ بأن المجتمع على حق حين يلجأ الى التخلص من مخلوقات قاتلة ، هو شعور تلقائى شائع ، وليس عسيرا على الفهم . ومن هنا ينشأ التأييد المعهود لعقوبة الاعدام ، كرادع فريد لا غنى عنه .

كذلك ينشأ معه الخوف من الغائها ، على أساس أن هذا الالغاء سوف يؤدى الى ارتفاع معدل ازهاق الارواح من جانب ، والى اقلاق البوليس واضعافه من جانب آخر .

◆ **قضية** الغاء عقوبة الاعدام هى - بشكل أساسى - قضية أخلاقية ، تستند الى القول بأن حياة الانسان شىء مقدس ، حتى لو كانت حياة وحش سفاح ، وأن احترام الحياة امر لا غنى عنه ، خاصة فى مجتمع يسعى لتشييد مدنية فاضلة .

◆ **وهذان** الكتابان يمثلان آخر ما صدر من أدب ضمن الحملة المعروفة ، التى أثارها على عقوبة الاعدام المحامى المشهور السير صامويل روميللى فى عام ١٨٠٨ . وهما يستعرضان قضية الغاء الاعدام فى انجلترا ، وأشكال هذا الالغاء ، كما أنهما يضربان أمثلة واقعية لقضايا معروفة ، حكم على مرتكبيها بالاعدام ، مثل اليزابث فننج عام ١٨١٥ ، واديث تومسون عام ١٩٢٣ ، ووالتر رولاند عام ١٩٤٧ ، وتيموثى ايفانز عام ١٩٤٩ .

◆ **ونذكر** - على سبيل المثال - ان تجربة استراليا فى هذا الميدان ، تدعم وجهة نظر «**كوستلر**» و «**رولف**» ، القائلة بان الغاء عقوبة الاعدام لا يستتبع ازديادا فى معدل ازهاق الأرواح ، عن طريق القتل أو غيره . ذلك لان العقوبة قد الغيت فى كوينزلاند منذ عام ١٩٢٢ ، كما ألغيت فى نيوساوث ويلز فى عام ١٩٥٥ (فيما عدا حالتى الخيانة العظمى والقرصنة) . ومع ذلك فلم يشاهد هناك ازدياد فى معدل القتل .

◆ **يقول** أحد انصار الغاء الاعدام المتحمسين ، ويدعى كلارنس دارو : « فى النهاية نجد أن المشكلة ، ببساطة ، تدخل ضمن الصراع بين المشاعر الخيرة والمشاعر الشريرة »

• **وبعد** هذه الجولة فى اسواق الكتب العالمية ، انتهى بك الى سوقنا العربية ، فاختار لك كتابا من أحدث الكتب التى ظهرت فيها ، هو :

تاريخ العلم والانسية الجديدة

ترجمة وعرض : **اسماعيل مظهر**

• **الاستاذ «جورج سارتون»** رائد من رواد الفكر فى القرن العشرين . وهو من أصل بلجيكى هاجر الى أمريكا وتجنس هناك .

ولد بمدينة « غنت » فى ٣١ من اغسطس سنة ١٨٨٤ ، وتوفى بمدينة « كمبردج » بولاية « ماساشوستس » فى ٢٢ من مارس سنة ١٩٥٦ .. تخصص فى تاريخ العلوم ، وخرج من تخصصه بمذهب جديد .

غادر بلجيكة فى ابان الحرب العالمية الاولى ، عند وقوع الغزو الألمانى ، وهبط انجلترة فأقام بها بعض الوقت ، **ثم رحل الى الولايات المتحدة حيث أصبح الرائد الاول لحركة تاريخ العلوم فى جامعة « جورج واشنطن »** . ثم أصبح استاذا فى جامعة « هرفارد » حيث أقام الى ان تقاعد فى سنة ١٩٥١ .

فى سنة ١٩١٢ أصدر مجلة **« ايزيس »** ، وتخصصت فى البحث فى فلسفة العلوم وتاريخها ،

الناشر : دار النهضة العربية ، بالاشتراك مع مؤسسة « فرانكلين » .

وتولى رياسة تحريرها بعد سنة ١٩١٣ . وفى سنة ١٩٣٦ أصدر مجلة ((اوزيريس)) ، وخصصها للبحث فى تاريخ المعرفة والثقافة والفلسفة والعلم .

من دراساته الواسعة فى تاريخ العلوم ، خرج بمذهب جديد مضى يدافع عنه ويبث مبادئه فى كتبه العديدة، وفى مجلتيه اللتين اختار لهما اسمين مصريين.

سمى مذهبه **الانسية الجديدة** New Humanism ولعله من الواجب ان اعرف القارىء بالسبب فى اختيار هذا الاسم لمذهب تاريخى فى فلسفة العلوم ففى القرن الخامس عشر ، وتمهيدا للنهضة الاوربية Renaissance ، قامت حركة فكرية ناشطة أخذت تنمو وتذيع . وكان مدارها أحياء الآداب القديمة التى خلفتها الحضارات السابقة ، وبخاصة حضارة اليونان وحضارة الرومان .. وكانت أضواؤهما قد خبت فى خلال عصر الظلام الذى استمر ألف سنة ، أى منذ أن أغلق الامبراطور يوستنيانوس مدارس اثينا (٤٢٩م)، الى حدود القرن الخامس عشر . أطلق على هذه الظاهرة التاريخية اسم «الحركة الانسية» Humanism والمقصود من هذه التسمية ((**عودة العقل البشرى الى انسيته ، اى الى حريته باعتبار ان الانسان حر فى تفكيره وفى ضميره)) . ومن هنا كانت تسمية ((سارتون)) لمذهبه بالانسية الجديدة ، ان هذا المذهب تعقيب على المذهب القديم** ، يقصد به ان يصبح العلم قريبا من حياة الانسان وأصلا من أصول الثقافة العامة ، بعد أن اعتزل العلم فى العصر الحديث ، وانتبذ بنفسه مكانا أبعده عن أن يكون ذا صلة بحياة الناس الفكرية .

أما تسمية هذا المذهب ((بالانسية)) فى لغتنا

العربية ، فنسبة الى « الانس » ، ومنه اشتق الانسان ونسب اليه فقيل الانسانية . وانما عدل عن استعمال كلمة الانسانية لان هذه تقابلها فى الانجليزية لفظة Humanity ومنها أخذ ما يسمى الآن مباحث الانسانيات Humanities ، وضرورة التفريق بين هذه المفهومات ، هى التى جعلتنا نصوغ لفظ « الانسية » للدلالة على اصطلاح : Humanism

***

ما هو السبب فى ان يعتزل العلم ، ويصبح مقصورا على طائفة خاصة من العلماء ، وتضعف صلته بالمعرفة العامة ، وان كان وثيق الصلة بحياتهم الخاصة وبحياتهم الحضارية ؟

ويرجع السبب الى حالات اجتماعية وفكرية ، صبغت الفكر بصبغة جامدة خلال قرون عديدة . **فان العقائد الرجعية ظلت تسيطر على حياة الفكر أكثر من عشرة قرون كوامل** . وكانت مدينة القسطنطينية هى الموئل الذى آل اليه علماء اليونان وأدباء الرومان ، بعد أن أغلق الامبراطور يوستنيانوس مدارس أثينة ، فى أوائل القرن الخامس الميلادى . فلما سقطت هذه المدينة فى يد العثمانيين – فى سنة ١٤٥٣ ميلادية – فرهؤلاء العلماء الى الغرب، وانتشروا فى جنوبى ايطالية ، واستوطنوا بعض مدنها .. ومنهم من هبط صقلية ، ومنهم من استوطن روميه ، **وقد نقلوا معهم كل ما وصلت اليه أيديهم من مأثورات الفلسفة والآداب القديمة** ، ومن ثمة أخذت اللغة اليونانية تنتشر وتستأثر بالمعرفة ، وبدأ اتصال الذهن الغربى بآداب اليونان والرومان القدماء مرة أخرى . **وهنالك بدأت معركة فكرية بين العقائد**

الرجعية وتلك الآداب ، وأخذت تشتد وتقوى ، فكانت سببا في تأليف محاكم التفتيش وبدء الاضطهاد الذى وقع فى براثنه كل متأدب أو عالم يحيد عن المأثورات الرجعية . وهذه الحركة الفكرية هى التى سميت بالحركة «الانسية» .

عندما نشطت الحركة العلمية فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، كان القمع الفكرى هو المهمة الأولى للسلطات السائدة ، وكانت الفكرة العلمية قد اتجهت نحو الاثبات التجريبى الاختبارى ، وبدأت فى صورة حركة سرية ، فانطوى العلماء على أنفسهم حذر المطاردة وابتغاء السلامة أن ينزل بهم جور أوعسف أوموت من غير اراقة قطرة دم ، أى بالحرق أحياء .

كان نشوء طريقة الاثبات التجريبى الاختيارى أول عهد للعلم باعتزال الحياة الفكرية للناس ، وانطوائه على تلك الطريقة ، فانفصل عن بقية المعارف الانسانية كالآداب والشعر والفن ، واختص بعالم وحده لا يشاركه فيه ضرب آخر من ضروب المعرفة . ومنذ ذلك العصر ورث العلم تلك الانطوائية ، بل ذلك الاعتزال الذى فصله عن الذهنية العامة فصلا يكاد يكون تاما .

ولما اشتد ساعد العلم وبدأ يتغلغل فى حياة الناس دون عقلياتهم ، حدث فراغ فى الثقافة ، سببه ان العالم أصبح جاهلا بآداب عصره ، والأديب جاهلا بعلوم عصره . **فما الذى يسد ذلك الفراغ ؟**

ذهب « جورج سارتون » ، وكان الرائد الأول فى هذا الباب ، الى أن ذلك الفراغ لايسده الا أن يصبح «تاريخ العلم» مادة أساسية من مواد الدراسات الجامعية . وفصل ذلك تفصيلا فى الفصل الرابع من كتابه « تاريخ العلم والانسية الجديدة » . ومضى ينفذ فكرته فى كتابه « تاريخ العلم » ،

وفى فصول عديدة نشرها فى مجلة « ايزيس » ومجلة « أوزيريس » وفى محاضراته وندواته .

رأى « سارتون » أن انطوائية العلم واعتزال العلماء كان لهما سيئات أخرى ، أهمها تفكك سلسلة التطور فى تاريخ الفكر . فان العالم الذى لايعرف أن للمصريين القدماء وللبابليين والمسلمين جهود سابقة فى العلم ، ولا يدرك انه اذا استطاع ان يرى لأبعد مما رأى أسلافه ، فانما ذلك لانه يرى من فوق أكتافهم . هذا العالم يصبح منقطعا عن آداب عصره . والأديب الذى يجهل تطور الفكر العلمى على تتالى العصور ، أديب انقطع عن علوم عصره . **ومن هنا يحدث ذلك الفراغ الذى يعتبره « سارتون » من أكبر ما ترمى به الحضارة الحديثة من عوامل الانحلال** ، ويصبح الاكباب على دراسة تاريخ العلوم هو الرابطة التى توثق أطراف الحضارة الحديثة ، وتزيل تلك الفوارق التى كانت سببا فى تقاطع الأمم ، وفى أن تنظر أمة أخذت بحظ من العلم ، الى أخرى اصابتها نكسة طارئة ، نظرة الاحتقار لماضيها وحاضرها ، مما كان سببا فى كثير من تلك الشرور والآثام التى عانت منها الانسانية ما عانت فى خلال ثلاثة القرون الفارطة من عمر الحضارة .

« من هنا يقول « سارتون » فى كتابه هذا :

من المندوب اليه أن نكون أحياء الضمائر ، مؤيدين للواجب . ولكن مما يبعث على أشد الأسى ان نكون منافقين مفتونين بذواتنا . وأخشى ان يكون بعض العلماء قد انطووا على نزعة نحو الافراط فى الكبر والتفاخر ، كما قامت الشواهد على ايغالهم فى الافتتان بأنفسهم بوصفهم طبقة معينة . لقد نزع بعضهم بحماقة الى مناجزة كل ما هو غير علمى من المناشط الأخرى ، فاوروا بذلك نار الخصومة تلقاءهم وكان يمكن

أن يتفادوا هذا الأمر ، لولا تلك النار التى اشعلوها . وفئة اخرى سلكت مسلك صبيان سكارى ، مضوا يهدمون كل ما خيل اليهم انه خطأ أو لا عقلانى فى نظرهم ، فبرهنوا على أنهم حمقى مخربون ، وأنهم أشد غفلة وأثقل مسئولية من الاسطوريين عباد الاصنام . **ومثل هذه الحماقات هى من الحطة والخسة فى الدرك الأسفل . غير انه من المتعذر ان تهجر بتة .** فالحقيقة ان رجل العلم لا الزام عليه أن يكون عاقلا . فان ذهنه قد يكون حادا لماعا ، ولكن ضيق الافق . وقد يكون قادرا على أن يخترق حجب الاسرار المستوره عن كل من عداه ، فيبرهن — فى هذه الناحية — على براءة ذكائه وفراهته . ومع هذا فقد يكون بليدا فى جميع النواحى الاخرى . وواجب علينا ان نعترف ان كثيرا من رجال العلم قد يبدو فيهم نقائص فى التربية ، لامحالة تثير أولئك الذين يتخذونهم هزؤا أو هدفا لاحتقارهم ، والذين قد يتفق أن يكونوا أكثر تحضرا منهم . »

***

يرى الاستاذ « سارتون » — ورايه الحق — ان تاريخ المعرفة الانسانية أشبه بتاريخ فرد واحد ، كان مضغة ثم جنينا ثم طفلا شب وتفتى فصار رجلا بلغ أشده واستوى . ويقوم على هذا التشبيه حقيقة ظلت مطوية عن العلماء عصورا ، وما تزال مطوية عنهم فى عصرنا هذا ، **اما الخروج عن هذه الانطوائية فليس لها غير سبيل واحد هو الالمام بتاريخ المعارف والعلوم الانسانية بحيث تصبح جزءا اساسيا من برامج التعليم الثانوى والجامعى ،** وان يشترك فى تلقيه جميع الذين تضمهم الكليات العليا نظرية وعملية ، حتى يتحقق بذلك تكوين ثقافة موحدة تؤدى رسالة عليا ، هى

رسالة التقريب بين الأمم ، والوقوف على مراتب التدرج فى الفكر الانسانى . وبذلك تقوم الحضارة على اسس ثابتة تقيها شر الانقسام والتفرقة ، وتكون حائلا منيعا ان يصيبها ما أصاب غيرها من انحلال وفساد .

يقول « سارتون » : « من الحقائق المؤسية ، ان كثيرا من رجال العلم لايستندون الى ميراث من ثقافة الماضى ، فتراهم ينفرون من النظر الى الوراء . وان هذه لدائرة حرجة . فلماذا هم ينظرون تلك النظرة ، اذا لم يكن فيها من شىء ينظرونه ؟ ومعرفتهم بتاريخ العلم لا ترتد لأبعد من القرن السابع عشر . وبعد : **نقول انهم من حيث هذا مفرطون فى الخطأ . فان النتائج الكبرى لم يحصل عليها العلم فى العصر الحديث ، الا بسبب انها النتائج الاخيرة** . غير ان هذه النتائج لم تصبح مستطاعة الا بجهد وسابقة بذلت . »

ومن ثمة يذهب سارتون الى أن الوقوف على بدايات العلم ومعرفة الأطوار التى مر بها الفكر الانسانى ، لاتقل جلالا ولا فائدة من دراسة العلم نفسه ، لان فى كل علم من العلوم الحديثة بذور فرخها أسلافنا فى الذهن الانسانى ، واليها ترجع الثمرة الأخيرة التى نجنيها فى القرن العشرين . وهو يمثل لذلك بقائد يرسل احدى كتائبه لمهاجمة العدو فى مكان بعيد عن مستقر الجيش . انه يعلم ان هذه الكتيبة سوف تهلك جميعا ، ولكن ذلك يمكنه من ان يفوز بهدفه الرئيسى . وتنفذ الخطة كما رسمها القائد ، ويتجدد الامل الضائع ، ويهزم الجيش العدو ويمزقه شر ممزق . وهنا يتساءل سارتون : **هل انهزم رجال الكتيبة التى ضحى بها أم انتصروا ؟** .. اما اذا قصرنا النظر على الكتيبة بوصفها وحدة مستقلة ، فانها انهزمت شر منهزم . اما اذا اعتبرناها

جزءا من الجيش كله فلا شك فى انها تكون قد شاركت فى الانتصار .

ويذهب « سارتون » الى أن وجهة النظر الثانية هى الصحيحة . ذلك بان رجال الكتيبة لم يقتصر أمرهم على انهم جزء من الجيش المنتصر ، بل ان التضحية بهم هى التى انتزعت الانتصار من براثن الموت . انهم لم ينتصروا وحسب ، لقد كانوا نواميس الانتصار وابطاله .

وكم من كتائب من المفكرين قد أكلهم الزمن وأسدلت عليهم ستور النسيان ، مع انهم أولئك الذين وضعوا أساس النصر الذى نجنى نحن ثماره فى هذا العصر ، وسيجنى ثماره جميع الذين سوف يأتون من بعدنا . **واذن ينبغى لنا أن نتقصى تقاليدنا ومأثوراتنا الانسانية ، عير مستثنين تلك المأثورات العظيمة التى نقلت الينا معرفة القدماء وحكمتهم وتقاليدالعصور الوسطى وكل القرون السابقة على عصرنا ..** يجب علينا أن نعرف أولئك العظماء الذين أورثونا ماورثنا . وما من شىء هو أدعى الى فخرنا وشموخنا من تلك الموروثات التى منها يتألف لباب ثقافتنا ، وجوهر قلوبنا وأرواحنا .

يقول « سارتون » : « ان دراسة التاريخ وبخاصة العلم ، يمكن الا يقتصر على انها نبع الحكمة الانسية ، بل نتخذها هاديا ومرشدا ومقوما لضمائرنا . انها تساعدنا على أن نكون متواضعين غير مغالين ولا نازعين لكبرياء تلقاء انتصاراتنا ، وان نظل شاكرين آملين عاملين بهدوء وهوادة فى سبيل انجاز واجبنا . »